وزارة الثقافة

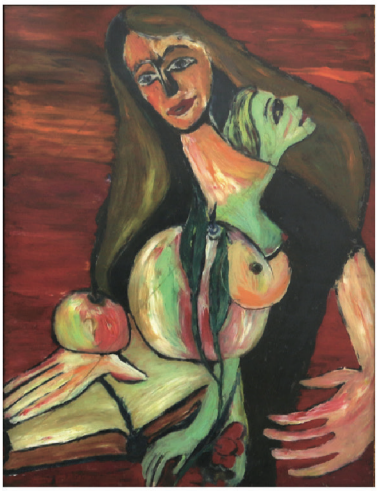

مسارح الأذهان

تأليف: خليل بيدس

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

مسارح الأذهان

مجموعة أدبية فنية روائية في حقيقة الحياة

تأليف: خليل بيدس

صدرت الطَّبعة الأولى منها عام ١٩٢٤

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: خليل بيدس
اسم الكتاب: مسارح الأذهان
الطبعة الأولى: ١٩٢٤

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
لوحة الغلاف للفنان: جبرا إبراهيم جبرا

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

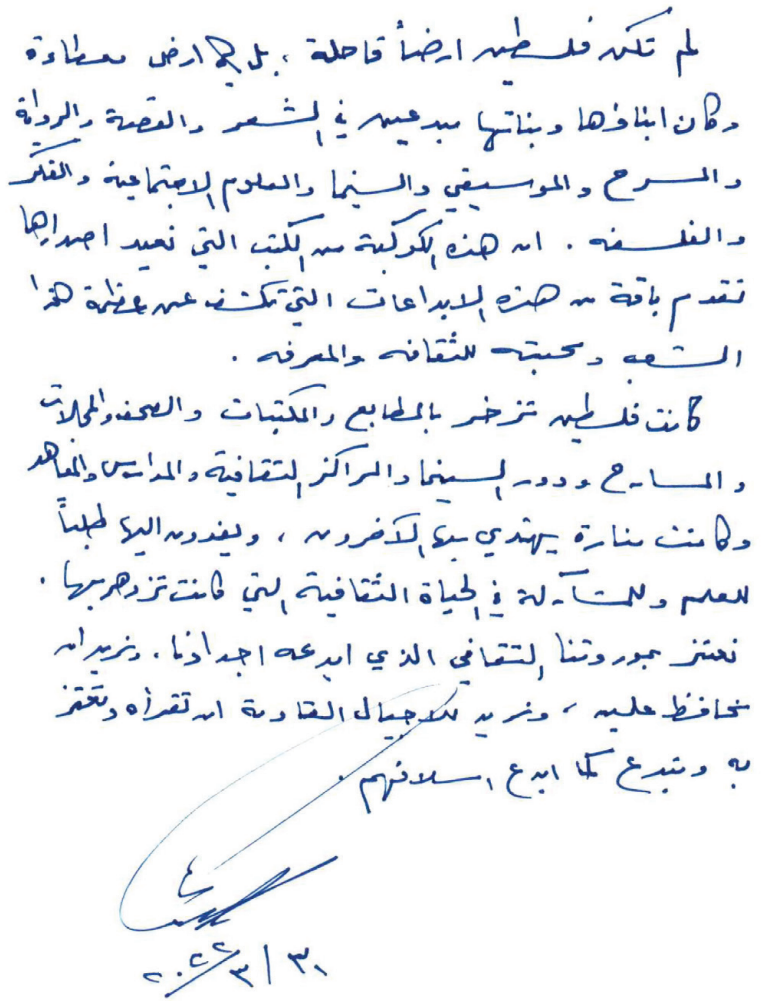

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارض معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفه. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافه والمعرفه.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الاخرون، ويقصدونها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٠

مسارحُ الأذهَان

مقدمة الطّبعة الأولى

لا يجهل أحد ما للروايات من الشأن الخطير والمقام الرفيع بين سائر كتب الأدب عند جميع الأمم، فهي من أعظم أركان المدنية، وفي مقدمة المطبوعات انتشارا وتداولا، وأشدها رسوخا في النفوس والقلوب، وأثبتها أثرا في الأخلاق والعادات، وأعظمها عاملا في البناء والهدم. لأن فيها تمثيلا لمظاهر الحياة وصورها، من خير وشر، وفضيلة ورذيلة، وعدل وجور، وصدق وكذب، ووفاء وغدر، وإخلاص ورياء، وهناء وشقاء.

وفيها وصف أحوال الأمم، وعبر الزمان، وحوادث الحب والغرام، والحرب والسلام، وما يتخلل ذلك كله من عفة وأمانة، وغدر وخيانة.

وفيها عرض حياة الإنسان في جميع أدواره، في ربيع حياته وخريفها، في صعوده وهبوطه، في آلامه وآماله، في سرائه وضرائه، وفقره وغناه، وأهوائه وأشواقه، وسائر أطواره وأحواله.

وقد أقبل الكتاب على تأليف الروايات، وتهافت القراء على مطالعتها، وأجاد من كل فريق فئة، وضلت فئات، والرواية تتقلب وتتحول، إلى أن أصبحت موضوع اهتمام السواد الأعظم من كل أمة، وسمير كل قارئ وقارئة على الإطلاق، وأصبحت فنا من أجمل فنون الأدب، موضوعه الإنسان في حياته الاجتماعية والعمرانية والخلقية.

وظهر في كل أمة جمهور من نوابغ المفكرين، لم يكتبوا إلا الروايات - الروايات الخالدة - التي تناقلتها اللغات، وكان لها دوي عظيم، عقبته

انفجارات هائلة في النفوس، وانقلابات خطيرة في أحوال الأمم.

وقام هؤلاء الروائيون - وهم مصورو أحوال النفس البارعون - يلجون أعماق هذه النفس، كما يلجون أعماق القلب، ويصورون العواطف، ويمثلون الحقائق، وينشرونها على الناس في أثواب اللهو والفكاهة.

وظهر جبابرة الفن، أمثال كرنيل وراسين وموليير وبلزاك وهوغو وتولستوي وشكسبير وولتر سكوت وتورغينيف ودوستويفسكي وغوته وشلر وديكنس ومارك توين وايبسن ودوماس الكبير والصغير وزولا وشاتو بريان ودوريه وموباسان وبورجيه وغيرهم وغيرهم.. فكان من ذلك العبر، وكانت المواعظ، وكان من ذلك غذاء النفوس، وقبس البصائر، وكان التأمل والعلم، وكانت الحكمة والفلسفة.

الروائي يكتب للعامة، وهم السواد الأعظم من كل أمة. يكتب للنفوس الحائرة، والقلوب المتألمة. يكتب للنفوس الجائعة، والقلوب الظمأى.

والعامة يميلون إلى الرواية، لأنها كتابهم ورفيقهم وعشيرهم، وهي أجمل ما يتلهون به في ساعات فراغهم، وأفضل ما يرتاحون لمناجاته في خلوتهم، وأنجع ما يتوسل به لإصلاح عاداتهم وتثقيف أخلاقهم، وأعذب مورد يستمدون منه البصائر.

والروائي، إن لم يعاشر العامة ويدرس أحوالهم، أو لم يكن منهم ويعش بينهم، أو لم تكن فيه قوة التصور ومهارة التصوير وبراعة الوصف،

ولم يكـن فيـه النظـرة الأدبيـة الصادقـة إلى كل حـادث، والارتيـاح التـام بـل الكلـف التـام يبحثـه، وإن لم يـسر بعملـه عـلى الـدوام إلى الأمـام، إلى أعـلى درجـات الكـمال، ولم يكاشـفه الإلهـام والوحـي والنبـوة، فليـس بـروائي عبقـري.

وهـو إن لم يقـرأ مئـات الروايـات، ومئـات التواريـخ، ولم يطلـع عـلى حـوادث الكـون، ويلـج كل مجتمـع، ويـدرك معنـى الحيـاة وأسرارهـا وأسـاليبها، وينتـزع غـرض روايتـه مـن حـوادث الحيـاة وطبيعـة الإنسـان، ويجعلهـا منطبقـة عـلى الحقيقـة والواقـع، فليـس بـروائي متفنـن.

وهـو إن لم يكـن نبيـا، يـرى ببصيرتـه مـا لا يـراه غـيره، وإن يكـن شـاعرا يحلـق في السـماء الخيـال، ولم يكـن عالمـا اجتماعيـا يعلـم الأحـوال، ويطلـع عـلى كل شـأن مـن الشـؤون، فليـس بـروائي ماهـر.

فالـروائي الحقيقـي العبقـري المتفنـن الماهـر - هـو مـن عـاش للفـن، وكتـب للفـن، ومـات في سـبيل الفـن.

والروايـة الحقيقيـة، الفنيـة، هـي التـي ترمـي إلى المغـازي الحكميـة أو الأغـراض الأدبيـة، إلى تمجيـد الفضائـل أو التنديـد بالرذائـل، إلى تهذيـب الأخـلاق وتنويـر العقـول وتنقيـة القلـوب وإصـلاح السـيرة.

وهـي النقيـة مـن كل شـائبة، الخاليـة مـن كل وصمـة، التـي تبقـي أثـرا في نفـس القـارئ، وتحـدوه عـلى التأمـل، وتقـوده في سـبيل الرقـي الأدبي

والحب النقي. هذه هي الرواية الحقيقية، الرواية الفنية، الرواية الخالدة.

لا الرواية المبتذلة المشوهة ...، التي لم يكتبها أديب، ولم يرسمها قلم روائي مصور بارع.

ولا جرم إن بين هذه الروايات مئات وألوفا لم تكتب للغرض الأسمى، وقد انتشرت أيضا، وتهافت القراء عليها كما تهافت الفراشة على النار، وهي تعرض في كل سوق وتباع بيع السلع وبأبخس الأثمان، وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيها.

وهذه الروايات - إذا جاز أن تسمى أمثال هذه السخافات روايات - لم يكتبها أربابها وينشرها الناشرون إلا لأغراض تجارية محضة، فلا هم ولا القراء - من العامة طبعا - يعبأون بعبارتها، وكثرة أغلاطها، وتفاهة موضوعها، وغير ذلك مما لا يتنبه له إلا الأديب، ومما لا أراني في حاجة معه إلى البينة والدليل، وهذه أسواقنا تعج عجيجا بباعة هذه السلع، أو هذه السموم، التي ينفثها ناشروها في كل مكان وزمان، وقد عمت بها البلوى.

إن ناشري هذه «الروايات» قد كدروا بعملهم مشرب الرواية، وأسقطوا منزلتها، وعاثوا في القراء بفساد آدابهم وزيغ خطتهم، وجنوا على اللغة، والأدب، والأخلاق، والعواطف، والفضيلة.

إن الروايــة، ولــو صغــيرة، تجــلى فيهــا جــمال الفــن، فامتزجــت بأجــزاء النفـس، لخـير مـن المئـات مـن أمثـال تلـك السـلع التافهـة، التـي يتاجـر بهـا بعـض المشـعوذين، ممـن ضاقـت بهـم وسـائل الكسـب، فلجـأوا إلى هـذه الصناعـة، وبئـس مـا عملـوا.

ولا شـك أن قيمـة الروايـة، هـي فيـما تتضمنـه مـن الفائـدة، وتتوخـاه مـن العـبرة. وقيمـة الكاتـب الـروائي، هــي فيـما تمثلـه للقـارئ مـن الحقائـق، بالأسـلوب الفنـي الشـائق.

وقـد ظهـرت الروايـة في الـشرق بالصـورة التـي نعرفهـا الآن، منـذ عهـد غـير بعيـد، وكان أكـثر مـا ظهـر مـن هـذا النـوع منقـولا عـن اللغـات الغربيـة، وأقبـل أدباؤنـا عـلى الترجمـة إقبـالا عجيبـا، ولم يتصـد للتأليـف، وخصوصـا تأليـف الروايـات الكبـيرة، إلا النفـر القليـل. وقـد أحسـن كثـيرون باختيـار أحاســن روايــات نوابــغ الإفرنــج، ونقلهــا إلى العربيــة أحكــم نقــل. وقــد أجـادوا وأفـادوا، بقـدر مـا أسـاء غيرهـم بنقـل الروايـات الركيكـة السـخيفة، التــي تقــذف بقرائهــا في مهــاوي الضــلال والــشر وســائر ضروب المعايــب والنقائــص.

غـير أن الأمـة كلـما ارتفـع شـأنها الأدبي وتبسـطت في المدنيـة، مالـت بطبعهـا إلى الأنفـع والأفضـل، وأعرضـت عـن القبيـح والسـخيف، وكـثر فيهـا مـن ينهـض لمجـاراة أهـل الغـرب في وضـع الروايـات الأدبيـة والوطنيـة.

ولا يخفى أن الفن الروائي في الغرب طافح بالحسنات، وقد سبقنا الغرب بذلك مراحل كثيرة، ففيه من الروائيين المتفننين مئات وألوف، وهم أساتذة الفن بلا جدال. فإذا نقلنا عنهم، أو نزعنا إلى أسلوبهم، فإنما نزيد آدابنا ثروة وجمالا، ونزيد كتابنا أسلوبا واطلاعا وفنا. ولكن لنراقب الله في كل ما ننقل أو نؤلف، ولنسر بالفن الروائي إلى الأمام، إلى الكمال، ولا نقدم إلى الأمة إلا أفضل ما يقدم من هذا الغذاء الروحي الطيب.

***

هذا ما أردت أن أقوله في تعريف «الرواية» توطئة للإشارة إلى هذا الكتاب - «مسارح الأذهان» - الذي أقدمه الآن إلى الجمهور الكريم، وكله فصول روائية فنية، ليس منها إلا ما يتضمن أدبا أو عبرة أو ضربا من ضروب الحكمة والتثقيف.

وقد قدمته إلى حضرة الأستاذ الفاضل والصديق الكريم الياس أفندي انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر، وكان قد نشر هذه الأيام، بقلمه وأقلام غيره من الكتاب والأدباء، طائفة صالحة من المطبوعات الجميلة التي لا تجارى، وأعلن عزمه على متابعة نشر كل ما يتوسم فيه الفائدة والنفع للجمهور. وهي لعمر الحق خطوة جميلة جدا في سبيل خدمة الأدب والفن في الشرق، لا يستطيع إتيانها وإتقانها، إلا من أوتي ما أوتيه الأستاذ الياس الياس، من قوة الإرادة والهمة العالية، وموهبة الإجادة والإبداع، والبذل الكثير في سبيل العلم والعرفان.

وفي مأمـولي أن الأسـتاذ بعـد أن يطلـع عليـه، سـيبرزه في أجمـل شـكل فنـي، شـأنه في كل مـا يتـولى أمـره مـن المطبوعـات، التـي يشـكر عليهـا أجمـل شـكر. كـما أن في مأمـولي كذلـك أن يكـون هـذا الكتـاب غـذاء نافعـا للنفـوس، حريـا بالإقبـال عليـه، وباللـه التوفيـق.

خليل بيدس

القدس في ١ مايو/ أيار سـنة ١٩٢٤

أين الحقيقة؟

ساد السكون في أثينا، مهد الفلسفة ومنشأ الحكمة، ومدَّ الليل رواقه، فلم يُسمعَ فيه إلا تنفُّس المدينة الراقدة. وأرسل القمر أشعته الفضيَّة فتوّجت رؤوس الجبال والهياكل وانبسطت على غابات الزيتون والنخل.

نامَ كل من في تلك المدينة العظيمة، حتى الخفراء على الأبواب. فوقفت كل حركة وسكن كلُّ ضوضاء، ولم يبقَ مستيقظا إلا فتى يُسمى «ديوكلس». وكان على أعظم جانب من الذكاء والجمال والغنى، ومن طلاب الحكمة في أكاديمية العلوم، حيث كان يقضي نهاره وبعض ساعات ليله في الدرس والبحث، إلى أن اشتد فيه هذا الميل، وعاد لا يحلو له إلا الانفراد بنفسه والاسترسال إلى تأملاته.

وكان لأثينا – إلاهة الحكمة - تمثالٌ من المرمر النقي الجميل، أُقيم على دكة مرتفعة في حديقة الأكاديمية.

وكان ديوكلس أكثر الطلاب اختلافا إلى هذا التمثال، وأشدهم رغبة في مناجاته، حتى إنه كان يذهل عن نفسه أحيانا وهو واقف لديه، يتأمل في محاسنه وستنزل من لدنه الوحي والإلهام.

أمام هذا التمثال كان ديوكلس في تلك الليلة، وقد سكنت كل حركة في المدينة. ومضى عليه ذُهلٌ من الليل واقف بخشوع غائصٌ في أفكاره. ثم انتفض بغته، فأكبَّ على قدمي التمثال يقبلهما ويغسلهما

بدموعه ويقول: «أيتها الآلهة الجميلة أشفقي عليّ وأصغي إلى توسلاتي وتنهداتي».

قال ذلك ونظر إلى وجه التمثال، وكان القمر قد أرسل إليه أشعتهُ، فازداد تلألؤا. واشتدت رهبة الهدوء وسكنت حركة النسيم، وانقطع حفيف أوراق الشجر، فانقبض صدر الفتى وجاشت نفسه، ثم زفر زفرة حارة وعاد يخاطب التمثال قائلا: «أيتها الآلهة العظيمة! إليك وحدكِ أقدّم احترامي وعبادتي، لأنك أشربتِ نفسي محبة الحكمة والرغبة في بلوغ الكمال والوقوف على الحقيقة. غير أن هذه الرغبة قد أضرمت في نفسي حتى كادت تحرقني. فإما أن تُخمدي الآن هذا اللهيب أو تكشفي لبصيرتي الحقيقة، هذه الحقيقة العظيمة المقدسة، حقيقة هذا الوجود، نفس كل شيء وروح كل شيء، هذه الحقيقة المجردة التي يصبو إلى معرفتها الفلاسفة والعلماء وكل حي عاقل. اكشفي لبصيرتي هذه الحقيقة يا آلهة الحكمة، لأني أريد أن أعرفها وأبصرها وأقف نفسي عليها وأبذل في سبيلها حياتي - بكل ما فيها من غنى وسعادة وجمال وشباب وحب ومجد».

قال ديوكلس هذا الدعاء وعاد فنظر إلى وجه التمثال، فألفاه كما كان جامدا لا يتحرك. فضرب بجبينه على قدميه المرمريتين وعاد إلى صلاته وابتهاله، وكانت كلماته تخرج من أعماق نفسه وهي أشبه بدخان المحرقة، إلى أن جمد كله على قدمي الآلهة، وعاد لا يشعر بالوجود.

وإذا بأغصان الشجر قد تحركت. وهب النسيم فسُمع لهبوبه صوت

أشبه بصوت بني البشر، كان ينادي: ديوكلس! ديوكلس!.

فذعر الفتى وأفاق من غيبوبته وأخذ يلتفت ذات اليمين وذات الشمال، وهو يظن أن رفاقه في الأكاديمية يبحثون عنه وينادونه، فلم يرَ أحدا.

وكان الصوت لا يزال يناديه، فحار ديوكلس في أمره وأرسل نظره إلى وجه التمثال فرآه يتحرك، وقد نزلت يده المرمرية فمست كتف ديوكلس، وكأن سلكا كهربائيا مسه، فانتفض انتفاضا شديدا وسرت في عروقه الرعدة، فطأطأ رأسه خوفا. وأنه لكذلك إذا به يسمع الصوت ثانية، وقد ثبت له هذه المرة أن المتكلم إنما هو التمثال نفسه، وكان يخاطبه بصوت جليّ قائلا: «لقد دعوتني يا ديوكلس، فها أنذا. إني سمعتُ صلاتك واستجبت لك، فما الذي تريد أن تسألني إياه؟».

وما كاد ديوكلس يسمع هذا الكلام حتى ذُعر وسقط إلى الأرض وهو يكاد يفقد شعوره من شدة الخوف. ولكنه لم يلبث أن ثاب إليه رشده، فتجلَّد واختلس نظرة إلى وجه الآلهة ثم قال: نعم إني دعوتك يا آلهة الحكمة لأني أريد أن أعرف الحقيقة، وليس من يرشدني إليها غيرك.

فقالت الآلهة: فأنت إذا تريد أن تعرف الحقيقة، وما هي إلا هذا الوجود نفسه وجوهر كل شيء. غير أن هذه الحقيقة، الحقيقة المجردة، لم يستطع أن يدركها أحد من الناس. إنهم قد رأوا الحقيقة، ولكنهم لم يروها إلا محجوبة بالأستار. وأما الحقيقة المجردة فلم يرها ولم يطلب أن يراها غيرك. فإذا كنت مصرا على عزمك فاعلم أن ذلك يقتضي ثمنا

باهظا قد تنوء به؛ لأنه يوجب عليك أن تتخلى عن الغنى والسلطة والحب والمجد، وهي أفضل ما أسبغته الآلهة على البشر.

فقال ديوكلس: إني بملء المسرة أتخلى عن ذلك كله، حتى عن الشمس أيضا.

فأطرقت الآلهة، وخيم السكون على الحديقة، وحنت الأشجار رؤوسها إجلالا لابنة «زفس»، ثم رفعت الآلهة رأسها وقالت: حسن، إنك سترى الحقيقة، ولكن لن تراها كلها في وقت واحد. فسأحملك إياها مرة كل سنة، وأدعك تمزق عنها كل مرة سترا من الأستار التي تحجبها... وستظل حيا إلى أن ترى أخيرا الحقيقة مجردة من كل حجاب. فطفح وجه الفتى سرورا ولم ينبس ببنت شفة، انتظارا لما تريد الآلهة أن تقوله أو تفعله. وما عتم أن رآها قد خلعت عنها رداءها المرمري، فتجلى سناؤها أمام عيني ديوكلس، ولكنها أصبحت خفيفة شفافة كشعاع الشمس، ثم تقدمت إلى ديوكلس فحملته بين يديها وطارت به في الفضاء إلى أن بلغت بلادا مجهولة، فحطت فيها على جبل شامخ ينطح برأسه السماء.

هناك على ذلك الجبل رأى ديوكلس شبحا ملتفا بالحجب الكثيفة فلم يستطع أن يدرك هيئته.

وكانت الآلهة قد أشارت إلى ذلك الشبح وقالت لديوكلس: هذه هي الحقيقة. إنها ترسل بأشعتها الضئيلة إلى الأرض، فيبصرها الحكماء والعلماء. ولولا هذه الأشعة لكانت الدنيا في ليل مدلهم وظلام دامس.

إن البشر لا يبصرون من الحقيقة إلا هذه الأشعة المنبعثة منها، وهي ضعيفة ضئيلة كما ترى. وأما الحقيقة نفسها فهي هذا الشبح المغطى بهذه الأستار. فتقدم أزح عنه سترا.

ففعل ديوكلس كما أمرته الآلهة. وما كاد يميط عن شبح الحقيقة أحد أستاره حتى استحال ذلك الستر إلى طائر أبيض، رفرف قليلا ثم طار محلقا في الأرجاء السماوية، ووقف ديوكلس هنيهة أمام الحقيقة، فرأى أشعتها أكثر لمعانا وإشراقا أكثر من ذي قبل.

ثم هبطت به الآلهة إلى الأرض. فرجع إلى الأكاديمية. وعادت هي وارتدت ثوبها المرمري.

برَّ ديوكلس في وعده للآلهة. فهجر لذاته وطفق يجتهد في اعتزال الناس ويكثر من التأمل والدرس.

وعاد لا يميل إلى المآدب التي كان يقيمها ورفاقه. وهجر المراقص والمقاصف أو أندية اللهو والطرف، حيث كان شبان أثينا، يجتمعون بغاداتها الحسان.

ولما كانت السنة الثانية ظهرت له الآلهة أثينا وحملته إلى ما وراء آفاق هذا العالم، فكشف الستر الثاني عن شبح الحقيقة. فسطع نورها في بصره وأبصر من ذلك الضياء ما لم يبصره قبلا. ثم عاد إلى الأرض وقد اشتد زهده في لذّاتها.

وكان رفاقه يستغربون هذا الانقلاب في أحواله ويحاولون أن يستميلوه

إلى حفلاتهم وملاهيهم، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا.

وكان لهم معرفة ببعض فتيات أثينا الجميلات، وكانت إحداهنّ تحبه. فلما رأت فيه هذا التغير تصدت له مرة وقالت: ما بالك يا ديوكلس قد أعرضت عني؟ أنظر! إن عينيّ كالكواكب اللامعة، وشعري كالياقوت المضمخ، وجسدي لا يزال غضا بضا، فعد إليَّ يا حبيبي ولا تزدر الحب. إن الآلهة أنفسهم لا يعرفون لذة تفوقه.

فأجابها بقوله: إلى الحب قد طار من قلبي، أيتها الفتاة كمان طار الستر الثاني.

وسار في طريقه تاركا الفتاة التي كانت تحبه، في ذهولٍ شديد، لأنها لم تفهم من كلامه شيئا، ولعلها زعمت أن به مسا من الجنون.

***

وبعد عام أزاح ديوكلس الستر الثالث. فاشتد نفوذ بصره، وارتفع شأن مقامه بين رفاقه.

لم يعد لديوكلس علاقة بحلقات الفلاسفة، ولا صوت في الأندية العامة. ولكنه كان إذا وُجِدَ في اجتماع وتكلم يُنصت الجمهور لاستماع أقواله، يرتشفون كلام الحكمة من فمه ارتشافا، حتى قالوا إنه فاق أفلاطون وغيره من الفلاسفة الغابرين، وصاروا يلحون عليه بقبول الرئاسة في الفلسفة والزعامة في الإدارة الوطنية، فأبى ذلك كله.

بيد أنه لما نشبت الحرب بين الأثينيين وأعدائهم انتظم في الحال في

صفوف المقاتلين للدفاع عن الوطن. ولم يلبث أن عاد مثخنا بالجراح. ولما وُزّعت أكاليل الفخار على بواسل الجنود لم يكن هو في الحفلة. وأخذوا يفتشون عنه، فلم يقف له أحد على أثر.

***

توالت السنون وديوكلس يرفع عن شبح الحقيقة سترا بعد آخر. وقد شاب شعر رأسه وانحنت قامته، وغارت عيناه وخارت قواه. ولم يكن يعزيه ألا أمر واحد، وهو أنه سيشاهد الحقيقة ويرى ما لم يراه غيره.

***

وجاءت الليلة السرية الأخيرة. ولم يبق على شبح الحقيقة إلا ستر واحد. وقد حملت الآلهة أثينا ديوكلس، فأقامته أمام الشبح وقالت – أنظر كيف أن الحقيقة تتوقد من شدة التألق، إن تلك الأستار التي أزحتها عنها في السنين الماضية وطارت في الفضاء، لم تكن إلا ضلالات حياتك. وقد نبذتها واحدة واحدة. فإذا كنت نادما على ما فعلت، أو إذا كان الخوف قد دب إلى قلبك، فعد في الحال إلى الدنيا واقضِ فيها ما بقي من نصيبك في هذه الحياة.

فصاح ديوكلس: لقد جدت بنفسي لأجل هذه اللحظة الأخيرة، فلستُ بعائد الآن عن الحقيقة، إلا بعد أن أنزع عنها ستارها الأخير وأراها ماثلة أمامي، لا يحجبها عن بصري شيء.

قال هذا وتقدم إلى الشبح وقد اشتد خفقان قلبه وارتعشت يداه.

ولكنه خجل من نفسه، فتجلد ومد يده وانتزع الستار الأخير عن الحقيقة.

ويا لها من ساعة رهيبة!.

إن ديوكلس ما كاد يزيح ذلك الستار حتى انطفأت الأضواء، وساد الظلام، ولم يبصر شيئا.

فصاح بصوت كادت تنشقّ له مرارته: أين الحقيقة؟ أين الحقيقة أيتها الآلهة العظيمة؟ إني لم أرَ شيئا تحت الستار الأخير، وقد أظلم الكون كله.

فقات له الآلهة: إن عينيك قد عميتا، وطارت ظلالتك الأخيرة يا ابن البشر! إن الحقيقة لا يمكن أن يبصرها الناس، إلا وهي مغطاة بالأستار والحجب. فقد يدركها البعض من وراء عشرة أستار، والبعض الآخر بأقل من ذلك، وغيرهم بأكثر. ولكن الحقيقة المجردة لا يمكن أحدا أن يراها أو يعرفها ...

سمع ديوكلس هذا الكلام، ثم خرّ مكبا على الأرض، وفاضت روحه.

نحن وهم

كانت سلمى في السابعة والعشرين من العمر، رشيقة القوام صبيحة الوجه جامعة من المحاسن كل شائق رائق. وهي زوجة رجل من متوسطي الحال يسمَّى أديبا، كان كاتبا لإحدى الشركات التجارية المشهورة، وقد مضى عليه بضع سنوات في هذه الخدمة أحرز في أثنائها ثقة رجال الشركة به وارتياحهم إليه، حتى صاروا لا يبتّون أمرا إلا بعد سؤاله والوقوف على رأيه.

وكان أديب يحب زوجته محبة شديدة ويحرص جهده على راحتها وسرورها، فلا يرفض لها طلبا ولا يعارضها في أمر، وقد مضى على اقترانه بها سنتان لم تزيداه إلا كلفا لها وافتنانا بمحاسنها.

***

في مساء بعض الأيام كانت سلمى في مخدعها تنتظر عودة زوجها، فدخلت عليها خادمتها وناولتها رسالة، عرفت سلمى كاتبها من العنوان، فصرفت الخادمة وفضّت الرسالة، فإذا فيها: «أيتها المفداة بالروح!. مضى هذا الأسبوع كله وهو لم يزدني في كل يوم من أيامه إلا شوقا جديدا إليكِ، فأرفقي بي وأذني لي في زيارتك هذا المساء ساعة يخرج زوجك إلى شغله المعتاد في دار الشركة في مثل هذه الليلة من كل أسبوع، واعلمي أني سأكون بانتظار العلامة المتفق عليها بيننا وأنا على أحر من الجمر، حتى إذا أقبلت الساعة التاسعة ورأيت نور المصباح في نافذة مخدعك طرت إليكِ على أجنحة الشوق والهيام، وإلا

فـإني سـأظل في موقفـي أرنـو إلى النافـذة، إلى أن يجمـد الـدم في عروقـي وأمـوت في دائي.

جميل»

قـرأت سـلمى هـذه الرسـالة وعلائـم الـسرور والارتيـاح تـزداد وضوحـا في وجههـا. ثـم شـخصت ببصرهـا كأنهـا تـرى أمامهـا شـبح الحبيـب ولا تريـد أن تتحـول عـن منظـره الجميـل.

وكان جميـل هـذا ضابطـا في الجيـش يبلـغ مـن العمـر نحـو الثلاثـين. وقـد تعـرّف بسـلمى في بعـض حفـلات الرقـص، فمالـت إليـه ومـال إليهـا، وكانـت تجتمـع بـه في منزلهـا وفي بعـض المتنزهـات، إلى أن هامـت بـه وهـام بهـا، وأصبحـا لا يرهبـان عـذولا ولا يحـذران رقيبـا.

وإنهـا كذلـك إذ قُـرع جـرس المنـزل، وكان القـادم زوجهـا، فارتعشـت قليـلا، ولكنهـا لم تبطـئ أن أخفـت الرسـالة وخرجـت مـن مخدعهـا لاسـتقباله، وهـي ترحـب بـه وتسـأله عـن صحتـه وسروره. ثـم تأبطـت ذراعـه ودخلـت بـه إلى غرفـة المائـدة وهـي تُظهـر لـه كل حـب وكلـف. ولمـا جـيء بالطعـام أخـذت تباسـطه وتفكهـه بأحاديثهـا وتقـدّم إليـه أطيـب مـا عـلى المائـدة مـن ألـوان الطعـام والـشراب.

وكان أديـب ينـسى في مثـل هـذا الوقـت كل تعـب نهـاره، فيُقبـل عـلى زوجتـه وقـد طفـح وجهـه سرورا وامتلأت نفسـه هنـاء، وكان يقـول كل مـرة في نفسـه: مـا أرغـد عيـش الرجـل إذا كانـت رفيقـة حياتـه مثـل هـذه المـرأة

اللطيفة العفيفة .. فهي ليست بشرا، وإنما هي ملاك هبط من السماء .. هي ملاكي الحارس الأمين في هذه الحياة.

وكانت سلمى في أثناء ذلك تواصل اهتمامها به وتقصُّ عليه أعذب الأحاديث، ثم قالت له: يظهر لي أنك اليوم منزعج الخاطر، أو لعلك تكون منحرف الصحة لأنك لم تأكل كعادتك، وقد علا وجهك الاصفرار، فيجب أن تُعنى بصحتك يا عزيزي وتستدعي طبيبا لمعالجتك.

فضحك أديبا وقال: أنتِ واهمة أيتها الحبيبة فأنا لا أشكو شيئا. وأما ما أظهر لكِ من تغيّر وجهي فقد يكون من تأثير تعب النهار. ولو أُتيح لي أن أقضي هذا المساء بقربك لرأيتِ غدا غير ما ترينه الآن في صحتي.

فتكلّفت سلمى الإجفال وقالت بوجل: وهل أنت مزمع أن تغادرني هذا المساء؟ وإلى أين؟

قال: إلى الإدارة، لأننا سنجتمع، كعادتنا في مثل الليلة من كل أسبوع للمباحثة في شئون الشركة.

قالت: ولكن ذلك لا يُحتمل! أنت تشتغل النهار كلّه وهذا حسبك، فما بالهم لا يكتفون به؟ وهل يزعمون أنك آلة لا تتعب ولا تحتاج إلى الراحة، إني لا أدعك تخرج هذه الليلة.

قال: وهل يمكن ذلك يا عزيزتي؟

قالـت: وكيـف يمكـن أذن أن يحملـوك فـوق طاقتـك الليـل والنهـار؟ ألا يعلمـون أن لـك زوجـة تحـنُّ إليـك وتريـد أن تـراك؟

قـال: هـو مـا تقولـين .. غـير أني ألفـت العمـل، وإني أواظـب عليـه لتتوافـر أسـباب راحتـك وراحـة طفلتنـا وهنائكـما. وسـتكون لي بقيـة أيـام هـذا الأسـبوع، فليـس لأحـد أن يحرمنـي البقـاء بقربـك في مسـاء كل يـوم منهـا.

ثـم أخـذ يدهـا بـين يديـه ونظـر إلى عينيهـا فـرأى الدمـع يترقـرق فيهـما، فضّمهـا إلى صـدره وقبَّلهـا في عينيهـا وخدّيهـا.

فقالـت: ومتى يكون ذهابك؟

قال: قبيل السـاعة التاسـعة، لأن الجلسـة ستعقد في التاسعة تماما.

فظهـر الـسرور في وجـه سـلمى عـلى رغـم مـا كانـت تبديـه مـن الحـذر .. ولمـا أزف الوقـت قامـت تشـيّع زوجهـا إلى البـاب وقالـت لـه: سـأظل مسـتيقظة إلى أن تعـود، فإيـاك أن تبطـئ عـليّ بعـد نهايـة الاجتـماع.

قـال: قـد يطـول هـذا الاجتـماع إلى منتصـف الليـل أو بعـد ذلـك بسـاعة، فنامـي أيتهـا العزيـزة ولا تزعجـي نفسـك بطـول الانتظـار.

ثـم قبَّلهـا وقبَّلتـه وخـرج وهـو يقـول في نفسـه: حقـا إنهـا آيـة الإخـلاص وعنـوان الحـب الصحيـح الطاهـر.

***

وعـادت سـلمى فأضجعـت طفلتهـا في سريرهـا، ثـم وقفـت أمـام المـرآة فأصلحـت شـعرها وزينتهـا. وكانـت السـاعة التاسـعة قـد أقبلـت فوضعـت مصباحـا عـلى نافـذة مخدعهـا وخرجـت إلى فنـاء الـدار، ومـا هـي إلا بضـع دقائـق حتـى قُـرع البـاب قرعـا خفيفـا لم يسـمعه سـواها، ففتحتـه بسرعـة. ولم يكـن القـادم إلا حبيبهـا جميـلا. فعطـف عليهـا يقبلهـا فدفعتـه عنهـا بلطـف، ثـم دخلـت بـه إلى المنـزل وهـي تحـاذر أن يراهـما أحـد.

وكان لسـلمى خادمـة صبيـة تدعـى مرثـا، وكانـت مملـوءة عافيـة ونشـاطا، وقـد منحتهـا الطبيعـة فـوق ذلـك جـمالا باهـرا. وكان أحـد فتيـان الحـي قـد أحبهـا وخطبهـا مـن أهلهـا، فرضـوا بـه كـما رضيـت بـه مرثـا أيضـا، فـرأى منهـا قلبـا صافيـا وودودا حقيقيـا ولطفـا ورقـة شـعور، فـازداد تعلقـا بهـا. وكان ينتظرهـا أكـثر الأحيـان في الطريـق حينـما كانـت تخـرج بابنـة مولاتهـا للنزهـة، فيراهـا وتـراه أو يسـير إلى جانبهـا يتحادثـان. وكان الحـب بينهـما قـد اشـتدَّ حتـى صـار أحدهـما لا يطيـق صـبرا عـلى فـراق الآخـر.

واتفـق أن هـذا الفتـى جـاء لزيـارة خطيبتـه في تلـك الليلـة، ولم يكـن ذلـك مباحـا لـه، ولكنـه جـاء مدفوعـا بعوامـل لا تُقـاوم، فاسـتقبلته مرثـا سرا وأدخلتـه إلى غرفتهـا وجلسـت إليـه تحادثـه، وهـي في خـوف شـديد مـن أن تـأتي سـيدتها فـتراه عندهـا.

وطـال الحديـث بين الاثنـين إلى منتصف الليل وهما لاهيان عن كل أمر.

وهكـذا بينـما كانـت سـلمى جالسـة إلى عشـيقها جميـل في مخدعهـا يتطارحـان أحاديـث الغـرام، كانـت مرثـا أيضـا جالسـة في غرفتهـا إلى حبيبهـا وخطيبهـا يتشـاكيان ويتغـازلان.

***

ولم تشـعر سـلمى إلا والسـاعة تـؤذن بانتصـاف الليـل، فذعـرت، وقالـت لجميـل: يكفـي الآن، فيجـب أن تخـرج قبـل أن يعـود زوجـي مـن عملـه.

فتنهـد جميـل وقـال: وكيـف أسـتطيع أن أفارقـك أيتهـا الحبيبـة، بـل كيـف أسـتطيع أن أظـلّ أسـبوعا كامـلا في انتظـار مثـل هـذا الموعـد؟

قالت: اخرج الآن وسـنتحدث في فرصة أخرى.

فتنهَّـد ونهـض فضمَّهـا إلى صـدره وعانقهـا طويـلا، ثـم خـرج وخرجـت سـلمى تشـيّعه. وقـد أقفلـت وراءه البـاب وعـادت فأبـصرت غرفـة الخادمـة والنـور يسـطع مـن خـلال بابهـا، فتعجبـت ودنـت مـن الغرفـة، فسـمعت صـوت الخادمـة، فلـم تشـك في أنهـا تخاطـب أحـدا في الغرفـة، فـازداد تعجبهـا ودنـت مـن بـاب الغرفـة فدفعتـه برجلهـا ودخلـت، فـرأت خادمتهـا مسـتغرقة في السـمر مـع خطيبهـا، وهـو مطـوّق خصرهـا بذراعيـه. فانتفضـت غضبـا وعـادت إلى مخدعهـا دون أن تكلمهـا شـيئا.

وكانـت مرثـا المسـكينة قـد وقفـت كالصنـم حـين رأت مولاتهـا، وعـادت لا تـدري مـاذا تقـول وكيـف تُـبرِّئ نفسـها وقـد هلـع قلبهـا وخانهـا الجَلَـد.

***

ولما عاد أديب قصّت عليه سلمى الخبر، وهي لا تزال ثائرة النفس. فقال لها، وهو يحاول ملاطفتها وتسكين غضبها: هوني عليكِ يا عزيزتي ولا يزعجك مثل هذا الأمر. إن مرثا فتاة جميلة ومن حقها أن تحب وتهوى كباقي الناس، وليس الفتى الذي رأيته عندها إلا خطيبها، وهو لا يلبث أن يقترن بها بعد شهرين أو ثلاثة. فلا أرى في عملها والحالة هذه ما يستدعي كل هذا الحنق.

فقالت سلمى: قل ما شئت وتفنن في الدفاع عنها ما شئت. أما أنا فلا أرضى أن يكون منزلي مجتمع الخلان والعشاق، كما أني لا أرضى أن تظلّ هذه الخادمة عندي يوما واحدا بعد الآن.

قال ـ افعلي ما يلهمك قلبك أيتها العزيزة. ولكني أعود فأقول لكِ إن مرثا لم تجنِ في عملها إثما تُعاقب عليه، وإذا كان القدر قد جعلها خادمة، غير أنه لم يحرمها عواطف الحب، فهي بشر أيضا، ومن حقها أن تحب وتهوى.

وبذل أديب جهده في إقناع زوجته وحملها على العدول عن عزمها، فلم يُفلح. وكان أول شيء عملته في الصباح أنها طردت مرثا من منزلها، ولكن غضبها ظلَّ أياما في حمو واتقاد، وكانت كلما اجتمعت بزوجها تتطرّق إلى ذكر هذه الحادثة، ولا تستطيع أن تفهم كيف خَلَت مرثا بخطيبها وجنت مثل هذه الجناية الغريبة!

أيَّتُها الشَّمسُ!

لله أنتِ أيتها الشمس!

ما أجملك وما أبهاكِ!

أنظر إليكِ، وأنتِ تحملين إلى لجج البحار سيول التبر الذائب وتنثرين الزمرُّد واللؤلؤ.

في طرفة عين، وأنت تسبحين في البحر، تبنين من الأمواج الفيروزية قصورا عجيبة غريبة، ولكنك لا تلبثين أن تهدميها لتبني غيرها أغرب وأعجب وأجمل، إذ لا حدّ لتفننك ولا نهاية لإبداعكِ.

أنظر إليك. والنفس توّاقة إلى الخروج إلى حيث ترقص أشعتك الذهبية، لأمرح معها وأرقص وأعدو من جهة إلى أخرى ومن قصر باهٍ باهر إلى آخر خالب ساحر.

وما أجمل الغابة وقد كسوتِها حلة أرجوانية فأصبحت كالحكايات الغريبة بحوادثها، المدهشة بعجائبها.

أيتها الشمس المشرقة، إني أحبك وأهواكِ، لأنك أحسنتِ إليَّ وأحييتِ قلبي وملأتِ نفسي أملا يوم كنت شابا، ويوم كان قلبي منجذبا إلى السماء.

فقد أحببت وقتئذٍ فتاة جميلة كأنها أحد أشعتك، ورشيقة ولطيفة كالزهرة الغضة، وكنت حين أسمع صوتها كأني أسمع نغمات الملائكة.

وكنـا كلانـا نسـتقبلكِ كل يـوم صباحـا. وأنـتِ مطلـة مـن وراء الجبـال، ترسـلين شـعاع ابتسـامتك إلى وجـه الحبيبـة، فتصبـح كلُّهـا شـفافة وخفيفـة كأشـعتك، ونقيـة كألماسـك ولآلئـكِ.

وكنـت – إذا ذاك – أدنـو إلى وجـه الحبيبـة، فأقـرأ في عينيهـا تلـك الحكايـات الحلـوة التـي كانـت والـدتي تقصهـا عـليَّ لأنـام، وأرى فيهـما الأحـلام التـي كنـتُ أراهـا وأنـا طفـل.

وفي أحـد الأيـام – وقـد أصبحـتُ رجـلا – كنـتُ واقفـا عـلى شـاطئ البحـر وإلى جانبـي امـرأة بارعـة الحسـن والجـمال، وقـد ذهبنـا إلى ذلـك الشـاطئ لنسـتقبلك أيتهـا الشـمس، وننظـم لـكِ آيـات التسـبيح، وكأنـك أوحيـتِ إلى تلـك المـرأة الجميلـة فمـدت يدهـا البيضـاء إلى كتفـي، وشـعرتُ بأنفاسـها المنعشـة تهـبّ عـلى وجهـي. وقمنـا بعـد ذلـك نعيـد لشروقـك وقـد أشرق في نفـسي الحـبُّ، كـما أشرق في نفـس المـرأة التـي كانـت إلى جانبـي. وأشـفقت وقتئـذٍ أن تغيبـي، فتغيـب شـمس حُبـي. وخفـت أن تطمـو عليـك أمـواج البحـر فتغرقـكِ.

ومرضـتُ بعـد ذلـك، وأحسسـتُ في أحـد الأيـام بثقـل في رأسي، كأنـه حُـشي بالرصـاص حشـوا. وكان المطـر يتسـاقط عـلى نافـذة غرفتـي، فيروعنـي، ويرتـد نظـري عنهـا لأنـكِ لم تكـوني فيهـا أيتهـا الشـمس، وقـد خُيّـل إليّ أن غـولا هائـلا قـد ابتلـع العـالم بجملتـه.

وخُيّـل إليّ أيضـا أني لـن أسـمع بعـد أغاريـد الفتـاة الحسـناء في المـرج وعـلى ضفـاف النهـر، ولم أرى أشرعـة المركـب وهـو يسـبح عـلى مـرآة الأمـواج

الزمردية مسرعا بمن على ظهره من الركاب إلى حيث تتدفق أشعتك العجيبة أيتها الشمس.

ونمت أنا حليف الهم وقد ملأ اليأس قلبي، لأني خشيت أن لا أرى تلك العيون التي فيها سعادتي. وخفت أن أموت فلا يسمع أحد نشيد حبي.

ولبثت على فراش المرض مدة، وقد ودعت الحياة وأخذ شبح الموت يدنو مني.

ثم فتحت عيناي فجأة، فشعرت بدبيب الحياة في جسمي، وشعرتُ بأن الرصاص الثقيل قد خرج من رأسي.

هذه أنتِ أيتها الشمس الجميلة، وقد زرتني ثانية فكبحتِ جماح الموت وأبعدتِ شبحه عني. وقد دخلتْ أشعتكِ إلى غرفتي وسطعت على الجدار وفي المرآة، وأشرقت على صورة محبوبتي، وكانت على منضدة بإزاء سريري، فرأيتها كأنها تبتسم لي وتناديني..

وكنتُ مرة في الغابة، فرأيتُ صيادا يحمل طائرا لا يزال حيا، وهو ينتفض بين يدي قانصه والدم يسيل منه. وكان الصياد قد أخذه إلى النهر فغمسه في الماء ثم وضعه في جرابه. وعاد فغسل يديه من آثار دماء الفريسة .. وكنتِ أيتها الشمس طالعة وقد رأيتِ ذلك الصياد وشهدتِ فعله ... ولكنك أشرقتِ على يديه الملطختين بالدم.

ورأيتُ في أحد الأكواخ الحقيرة عجوزا طريحة الفراش، وقد اشتدت

عليها وطأة المرض ولم يعد لها رجاء في الحياة إلا إذا أرسلتِ إليها أيتها الشمس ببعض أشعتك المحيية، ولكنك لم تسمعي نداء هذه المسكينة، بل أعرضتِ عنها ورحتِ تسطعين على قصور القتلة والسفاحين ...

رأيتُ كل ذلك منك أيتها الشمس، وقد هالني ما رأيتُ، وصرتُ أخشاكِ وأرهبكِ.

فإذا متُّ غدا وطويت في حفرتي واجتمع أهلي وأصدقائي يبكوني ويندبوني – فإنكِ ستشرقين أيضا فوق قبري ضاحكة مسرورة، كما كنتِ تفعلين يوم كنتُ أُسَبّح لكِ .. وسترسلين بأشعتكِ - تلك الأشعة التي سطعت على يدي الصياد الملطختين بالدم، والتي كانت العجوز المائتة في أشد الحاجة إليها لحياتها ـ ولا فرق عندك بين البرئ والمجرم.

كنت أود أيتها الشمس أن تضحكي لمن يكون أهلا لضحكك، وتعبسي في وجه من يستحقون عبوسك.

إن من البشر أيتها الشمس أبالسة لا يستحقون أن تشرقي عليهم، فأنت إنما تزيدينهم ضلالا واسترسالا في الجرائم والموبقات.

الثَّورُ المُقَدَّس

في بلاد الفراعنة، حيث كان كل شيء مقدسا، ما عدا طبقة العمال، وكل شيء ثمينا، ما عدا عرق الجبين ودم المسكين، حدث منذ أربعة آلاف سنة ما يأتي:

في بقعة من بقاع تلك البلاد، على ضفاف النيل، وقف في أحد الأيام فتى من الفلاحين وإلى جانبه ثور له يرعى العشب الأخضر، وكان الفتى يحب ثوره لأنه كان الأداة الوحيدة لمعيشته.

وإنه لكذلك إذ أبصر عن بعد ركبا يحثون رواحلهم إلى جهته، وما عتم أن تبينهم، فإذا هم جماعة من الكهان، سدنة الإله أوزيرس، فتهيب الموقف ولبث في مكانه خاشعا.

كان الكهان قد رأوا الثور يرعى، فبادروا إليه وأخذوا يفحصونه من رأسه إلى أسفل قوائمه، وقد فتحوا فاه وداروا حوله من كل جهة، ثم خرُّوا كلهم على وجوههم إلى الأرض يُصلُّون وينشدون أناشيد السرور والحبور، والفتى ينظر إليهم شاخصا مبهوتا، لا يدري ما الذي حملهم على هذا الصنيع. ولكنه لم يطل تعجبه، لأن الكهان نهضوا بعد ذلك على أقدامهم وقالوا له: إنك لسعيد الحظ أيها الفتى، لأن الشمس قد آثرتك ينعمها التي لا تُحصى، فخصتك بوجود الثور «أبيس» بين يديك، وهو الألف والستون من تجسُّد الإله أوزيرس.

فقال الفتى، وقد ازداد حيرة وذهولا: وهمتم يا سادتي، لأن اسم ثوري

هـذا «داسـو» وليـس «أبيـس».

- اخـرس، فـما أنـت إلا حـشرة حقـيرة! أفـلا تـرى عـلى جبهتـه صـورة القمـر؟ فهـذا إذن ابـن الشـمس.

- كلا أيهـا السـادة، بـل هـو مولـود كـما يولـد كل عجـل مـن جنسـه، وأبـوه مـن ثـيران قريتنـا وهـو لا يـزال حيـا يعرفـه الجميـع.

فاستشـاط الكهـان غضبـا وصاحـوا بالفتـى قائلـين: وهـل بلغـتْ منـك الوقاحـة، وأنـت دودة خبيثـة، أن تعـارض سَـدَنَة الإلـه في أقوالهـم؟ إن هـذا الثـور لم يبـقَ لـك بعـد الآن. هكـذا قضـت شرائـع ممفيـس.

- ولكنـه سـبب معيشـتي أيهـا السـادة، وهـو حيـوان بسـيط كسـائر الحيوانـات. فكيـف تؤلّهونـه؟

- لا يجديـك هـذا الـكلام نفعـا، لأن ثـورك هـو ضالتنُـا التـي ننشـدها منـذ أيـام، فيجـب أن تسـكت ولا تذكـر بعـد الآن شـيئا عـن نسـبه لئـلا تحـلَّ بـك المصائـب مـن حيـث لا تـدري.

قالـوا ذلـك وسـاقوا الثـور أمامهـم وسـاروا في طريقهـم، والفتـى واقـف ينظـر آسـفا حزينـا، وقـد شـعر بضعفـه عـن الدفـاع عـن حقـه المغتصـب.

***

أصبـح النـاس في اليـوم التـالي، وهيـكل «الالـه أبيـس» في أحسـن زينـة، وقـد أشرقـت عليـه شـمس الصبـاح فزادتـه بهـاء. وكان سـدنة الهيـكل قـد شرعـوا

في خدمة الثيران والعجول، يقدمون إليها الطعام والشراب ويعتنون بتنظيفها وخدمتها، والثور «داسو» واقف بينها ينظر ذات اليمين وذات الشمال، كأنه يتأمل في حالته الجديدة، ثم يعود إلى المعلف فيأكل. وقد دنا منه أحد السَدَنَة يحمل قصعة من اللبن، فشرب الثور حتى ارتوى.

فقال السَّادن: تبا لهذا الثور ما أشرهه! إنه قد عبَّ اللبن كله ولم يبقِ على شيءٍ من العلف.

فأجابه أحد الرفاق ضاحكا: لا عجب في ذلك، لأنه لا يزال قويا نشيطا، قضى حياته خارج هذا السجن يسرح في الغياض والرياض.

فقال آخر: ولكنه أصبح إلاها، تعبده الأمة كلها.

وقال غيره وهو يهز رأسه: ما أضلّ الأمة التي تجوز عليها أمثال هذه الخزعبلات.

- لا تقل هذا القول يا أخي، لئلا يشيع وتتناقله الألسنة فتكون عاقبته وبالا علينا.

- ولكن أليس حراما علينا أن نمثل هذه الشعوذة ونموّه على الأمة بمثل هذه الأكاذيب؟

- خلّ عنك ولا تعلق على الأمر هذا الاهتمام كله، فستفيق الأمة يوما ويرتفع حجاب الضلال عن أبصارها.

- إنها أخذت تبصر وتدرك. وقد سمعتُ أقوالا تدل على تزعزع عقيدة قائليها ووقوفهم على بعض السرّ.

- وهنا الطامة الكبرى والبلاء الأعظم. لأن الأمة إذا استنارت بنور المعرفة ومزقّت عن أبصارها حُجُب الأوهام والأضاليل ينقطع رزقنا ونصبح كالسوقة لا يفصلنا عنهم شيء.

- إننا الآن قوة عظيمة ولنا سلطان حتى على الملوك، وفي أيدينا ثلث أرض مصر، فيجب أن نسعى جهدنا لتظل الأمة في دَرَكات ضلالها، ونظل نحن في أوج مجدنا وصولتنا.

- لا أظن ذلك يطول، بل يُخيَّل إليَّ أن رئيس كهَّاننا نفسه قد سُمَّت أفكاره ببعض الآراء العصرية، فلم يبق كعادته من حيث التديّن والتعبد للثيران وعنايته بها.

- إذا كان الأمر كما تقول فلا أسهل علينا من أن نستبدل به غيرهُ من ذوي الدهاء والفطنة، أو أن نمزقه إربا إربا ليكون عبرة للآخرين.

- غدا عيد الإله أبيس، فيجب أن يكون المهرجان عظيما جدا، لتشتد العزائمُ الخائرة وتتجدَّد القوى الضعيفة.

***

واحتفل الكهَّان في اليوم التالي بعيد «الإله أبيس»، فزينوا «الثور سادو» بطاقات الأزهار والرياحين وألقوا عليه الأردية الثمينة من أنفس المنسوجات الحريرية، وخرجوا به من الهيكل يطوفون شوارع المدينة،

وهـم يقرعـون الطبـول والصنـوج ويعزفـون بالمزامـير ويتراطنـون بكلـمات وصلـوات لم يفهمهـا أحـد، وقـد احتشـدت حولهـم خلائـق لا يحصيهـا العـد، وكان الـسرور عامـا والهنـاء شـاملا.

واتفـق أن الفتـى الفـلاح صاحـب الثـور «سـادو» كان وقتئـذٍ في الطريـق يسـوق بقـرة لـه جـاء يبيعهـا ليدفـع مـا عليـه مـن الضرائـب ويسـتعين بالباقـي مـن الثمـن عـلى معيشـته. فلـما رأى الموكـب وقـف خاشـع الطـرف، حـاسرَ الـرأس. وحـدث أن الثـور رأى رفيقـة حياتـه البقـرة فحـن إليهـا وسـار إلى جهتهـا دون أن يقـوى سـائقه عـلى كبـح جماحـه. فلـما أبـصره الفتـى هـشَّ لـه وبـشَّ وقـال: مـا أتعـس حظـك يـا «سـادو»! إنهـم اختطفـوك منـي ليجعلـوك إلاهـا، ولكنـك لا تـزال تحبنـي وتؤثـر أن تعـود إليَّ، إلى حياتـك الطبيعيـة، عـلى أن تمثـل دورا لا يليـق بـك ولا تحتملـه نفسـك.

ومـا كاد الكهَّـان يسـمعون هـذا الـكلام حتـى صاحـوا بأعـلى الأصـوات – ان هـذا الفتـى يسـتحق المـوت لأنـه جـدف عـلى الآلهـة.

فهجـم عليـه بعضهـم يريـدون تمزيقـه، ولـو لم يـسرع رجـال الشرطـة وينتشـلوه مـن بينهـم. وقـد حملـوه أخـيرا الى دار القضـاء لمحاكمتـه وهـو لا يعنـي شـيئا مـن كـثرة مـا نـزف منـه مـن الـدم. فعالجـوه بالمنبهـات حتـى عـاد الى رشـده ووقـف للمحاكمـة.

فقـال لـه القـاضي: إنهـم يـتهمونك بالزندقـة، أهنـت الثـور المقـدس ودعوتـه (سادو).

-وأي زندقة في هذا يا سيدي؟ ان الثور ثوري، واسمه سادو، وقد اختطفوه مني بالأمس.

- إنك لا تزال على ضلالك.

- ولكنها الحقيقة يا سيدي.

- ليس كل ما يعلم يقال.

- إذن يجب أن أكذب.

- لا تكذب .. بل احترم آراء الآخرين وعقائدهم.

ومن هم هؤلاء الآخرون الذين يجب أن أحترم آراءهم؟

- هم أبناء جيلك، الناس كلهم.

- أو لست أنا أيضا من هؤلاء الناس؟

- بلى.

- اذا ردَّ علي ثوري وأطلق سبيلي.

- اذا قلنا «الناس» و«آراء الناس» فنحن إنما نعني، أيها الأحمق، طبقة معلومة من الناس، لا الناس كلهم. ولست أنت من تلك الطبقة. وسيحكم الكهان عليك بما شاؤوا لأنك اجترأت على مقاومتهم.

***

أُخِـذَ الفتـى إلى الهيـكل يحرسـه نفـر مـن الشرطـة. ولمـا مثـل بـين يـدي الكاهـن الأعظـم، وسـمع هـذا بعـض كلامـه، قـال لـه: اعلـم يـا بنـي أنـك مخطـئ كل الخطـأ لأنـك لا تريـد أن تسـكت وتعتقـد مـا يعتقـده الآخـرون.

- أي أن أكـذب على نفـسي أيضا وأكون أعمى البصر والبصيرة؟

- لا هـذا ولا ذاك أيهـا الفتـى، فأنـت عـلى حـق فيـما تقـول. إن الحيـاة كلهـا ألغـاز وأوهـام ومغالطـات وأضاليـل، وقـد ألـف النـاس ذلـك كلـه منـذ آلاف مـن السـنين، وسـتظل هـذه حالتهـم أدهـارا أخـرى، والويـل لمـن يتصـدى لتمزيـق براقـع هـذه الأوهـام وكشـف هـذه الأضاليـل والتمويهـات. أقـول ذلـك لأني سـئمتُ هـذه الحيـاة وصرتُ أكـره هـذه المظاهـر الكاذبـة وأريـد أن أبرئـك وأنقـذك مـما أُعـدَّ لـك.

- فدهـش الفتـى وقـال: ولكنـي أخـشى عليـك يـا سـيدي. فدعنـي وحـدي أتحمـل عاقبـة جـرأتي.

- لم يبـقَ في إمـكاني أن أتحمـل هـذه الأكاذيـب أكـثر مـما تحملـت، فقـد ضـاق صـدري وصرتُ أشـتهي المـوت لأنجـو مـما أنـا فيـه مـن توبيـخ الضمـير.

قـال هـذا ودخـل الهيـكل وكان غاصـا بالجماهـير مـن جميـع الطبقـات وقـد سـجدوا كلهـم للثـور يصلـون ويبتهلـون.

فوقـف كبـير الكهـان عـلى دكـة هنـاك وقـد خلـع حلتـه الرسـمية وخاطـب النـاس قلائـلا: قـد حـان الوقـت يـا أولادي لأكاشـفكم بمـا في صـدري مـن

الأسرار، فلا تخافوا ولا تجزعوا. إنكم تحتفلون اليوم بعبادة ثور مقدس، رمز الشمس المتجسدة.

قال هذا والتفت إلى الكهنة قائلا: ارفعوا الأستار!.

وكانت هذه الأستار تحجب الثيران عن أبصار الشعب فلم يكن أحد يبصر شيئا مما وراءها. فلما أزيحت رأى الناس اسطبلا فيه المعالف ووقفت إليها الثيران وبينها «سادو» يأكل بشراهة لا مزيد عليها.

وتابع كبير الكهان كلامه مخاطبا الناس، وكانوا في أشد حالات الاستغراب والذهول، فقال: هذا هو الثور المقدس الذي كان بالأمس كغيره من الحيوانات، وأصبح اليوم معبودا نتقرَّب إليه ونسجد له ..

وما كاد الكاهن ينطق بهذا الكلام على مسامعهم حتى اهتزَّ المكان بضجيج الغيظ والحنق فانقضّوا عليه ومزقوه بأيديهم، ثم طرحوه خارجا. وكادوا يفعلون مثل ذلك بالفتى الفلاح لو لم يختف عن الأنظار ويلُذْ بالفرار.

وقد أرخيت الأستار وعادت «الآلهة» فحُجِبت عن الأبصار، ونسي الجميع هذه الحادثة أو تناسوها. وظلوا في عقائدهم وعبادتهم التي ألفوها، يطرّس الخَلَفُ على أثار السَّلَف، وينشأُ الأبناء على آسال الآباء قرونا كثيرة، وهم كلما مات ثور وجدوا آخر، يتخذونه معبودا، يسجدون له ويصلون.

الفيلسوف

التقى في فندق كبير في إحدى العواصم الكبرى شابان في مقتبل العمر. وقد قدماها ليُتما فيها دروسهما. وكان أحدهما طالب فلسفة والآخر مصوّرا. ولما كانا من وطن واحد وبلد واحد، رأيا أن يعيشا معا. فنزلا في ذلك الفندق في غرفة واحدة. وكانت رابطة الصداقة والوطنية تزداد على الأيام توثقا بينهما، حتى باتا لا يطيق أحدهما فراق الآخر إلا بضع ساعات كل يوم يقضيها كلٌ منهما في الجامعة التي انضم اليها.

وكان طالب الفلسفة نحيف الجسم لطيف العشرة حلو الحديث واسمه فيليب، وكان المصور بدينا مفتول العضل واسمه لبيب.

قال فيليب: جلسنا في أحد أيام الربيع الجميلة في حديقة الفندق وكان بين يديَّ كتاب ابن رشد الفيلسوف المشهور، ولكني لم أشعر بميل إلى الدرس والمطالعة فأمعنتُ في الخيال. وكان كل شيء في الطبيعة جميلا، وقد عبقت الحديقة بشذا الأزهار الطيبة الرائحة فزاد جمال الكون بهاء وزادني ارتياحا إلى التأمل في الجمال والحب.

وكنتُ قد تعرَفت اتفاقا بغادة ذات جمال رائع وحسن باهر، واسمها أنيسة. وقد كلفتُ بها وشعرتُ بميلها إليَّ. ولكني أخفيتُ ذلك عن لبيب لأنه كان مذياعا لا يكتم سرا.

قضينا ساعة ونحن جالسان في ظل أشجار الحديقة وكلٌ منا لاهٍ بأفكاره وتأملاته وقد طال السكوت. ولم يكن من عادة صديقي أن يطيق

الصمت إلى هذا الحد، فالتفت إليَّ وقال: أراك اليوم قليل الاكتراث لابن رشد وارسطو وغيرهما من الفلاسفة، فماذا جرى؟

قلت: لم يجر شيء، ولكني مسرور جدا الآن بهذه المشاهد الطبيعية الفتَّانة.

قال: وأظنك لا تلبث أن تهجر هذه الكتب المملَّة.

قلت: ولِمَ ذاك؟

قال: لأن أنيسة هنا، في هذه الفندق، وهي أجمل من الأزهار وغيرها من المشاهد التي تُمتّع عينيك برؤيتها.

سمعتُ هذا الكلام ودهشت، لأني لم أكن أعلم أن لبيبا مطلع على علاقتي بأنيسة، أما وقد عرف ذلك فلم للكتمان من سبيل، فتبسمتُ وقلت: نعم إنها في الفندق وقد نزلت مع عمتها في الغرفة الحادية عشرة.

فقهقه لبيب وقال: ولكن الحب شيء والفلسفة شيء آخر يا فيليب، ولا يمكن أن يجتمعا. فإما أن تهجر ابن رشد وأمثاله وتحرق كتبهم وتتفرَّغ للحب والغرام، أو تهجر أنيسة وتدعني وحدي هنا.

فنظرتُ إليه نظرة توبيخ ولم أفه ببنت شفة.

ثم عاد لبيب إلى الحديث فقال: وقد علمت أن أنيسة وصيفة احدى الأميرات، ولكنها لا تقضي عندها إلا ساعات النهار، لأن منزل الأميرة

صغير، فتأتي أنيسة إلى هنا للمبيت مع عمتها.

فقلت: أراك مهتما بأمرها كثيرا حتى تكاد تعلم عنها أكثر مما أعلم أنا.

قال: وهل من حرج عليَّ في ذلك؟ إن أنيسة فتاة جميلة لطيفة وهي كالشمس المشرقة، أفلا يحقُّ لي أن أتمتع بشعاع من أشعتها المنيرة؟ وما رأي صاحبك ابن رشد في ذلك؟

قلت، وأنا لا أملك نفسي من الضحك: وما شأن ابن رشد فيما نحن فيه؟ انه لا يبحث في هذه المواضيع، فدعه وشأنه وهات أخبرني هل رأيت أنيسة أو كلمتها؟

قال: لقيتُها مرة على درج الفندق، فحيَّيتُها وعرضتُ لها على أمل أن تجاذبني الحديث، فنفرت مني وراحت تعدو كالظبي وقد أصابه سهم الصياد.

قلت: إنك غليظ لا تحسن مقابلة الحسان، أفلا تعلم أن أنيسة مثال اللطف والرَّقة وعنوان العفة والطهارة، وأنها بهذه الصفات كأحسن الفتيات وأخفهنَّ روحا وأكثرهنَّ حياء؟ نعم يا لبيب إن أنيسة هي أبهى من الفجر وأنقى من الزئبق وألطف من نسيم الصباح.

***

وفي مساء ذلك النهار لقيتُ أنيسة في بعض دهاليز الفندق وكانت قد وثقت بي وعادت لا تتجنبني، ورأيت أنها تريد الخروج للنزهة في

الحديقة، فسرتُ إلى جانبها أقصّ عليها بعض النوادر وأسمع حديثها العذب، وأنا لا أرى بين جميع الأزهار والرياحين التي مررتُ بها سوى انيسة. ثم دعوتها إلى زيارتي في غرفتي فقالت: يستحيل عليَّ ذلك ما دمتُ أنتَ ورفيقك المصور في غرفة واحدة.

قلتُ: وما الذي تخشينه منه؟

فمسحت دمعة انحدرت على وجنتها وقالت: أخشى من كل شيء. فهو فظٌ ثقيل غليظ، وقد أهانني مرة.

قلت: ولكنه صالح القلب وغير شرير.

قالت: وقد يكون ذلك. لكني أخشى كل حركة من حركاته وأرهب كل كلمة من كلامه، فهو إذا تكلم فكأن الرعد يقصف، وإذا مشى فكأن الفندق كله يهتز ويميد تحت قدميه.

وشعرتُ لأول مرة في حياتي بالارتياح الشديد إلى سماع انتقاد صديقي على هذا الوجه، فقلت: وإذا كنتُ وحدي في غرفتي فهل يمكنني أن أعلّل النفس بزيارتك؟

قالت: لا أحبّ إليَّ من ذلك، فانتظرني غدا الساعة التاسعة صباحا، لأني غير مقيَّدة بعمل في منزل الأميرة نهار غدٍ كلَّه.

ولما كان اليوم التالي أخذتُ أحاول اقناع لبيب بأن يبرح الفندق ويخرج إلى المدينة فقال: ولِمَ كل هذا الالحاح الغريب؟

قلت: قرأتُ في جرائد أمس أن أحد زعماء الاشتراكيين سيخطب اليوم في النادي الاشتراكي العام في أحوال العمال وسيكون الحفل عظيما.

قال: ولماذا لا تبادر أنت أيضا إلى حضور الاجتماع وسماع هذه الخطبة المهمة ؟

قلت: لأني.. لأن عليَّ ..

فضحك وقال: لأنك هجرتَ ابن رشد أمس، فأحببتَ أن تخلو بنفسك اليوم لتعوّض ما فات.

قلت: ولكن ...

قال: دعنا من كل هذا وقل لي لماذا بكرت اليوم في نهوضك واجتهدت في ترتيب سريرك ومكتبتك خلافا لعادتك، وارتديت أحسن ملابسك؟ ..لا، لا تقل شيئا، فأنا منصرف عنك الآن، فافعل ما أنت فاعل.

قال هذا وخرج وهو يضحك ويكثر من الإشارات. أما أنا فشعرتُ بسرور لا يوصف وجلست انتظر قدوم الحبيبة.

ولم يطل انتظاري. فإنها جاءت مع عمتها. وكانت هذه كهلة مسنة درداء نحيفة الجسم قبيحة المنظر. وقد أثرت فيَّ تأثيرا سيئا.

ولمتُ في نفسي أنيسة لأنها اصطحبت عمتها. ولكن لم ألبث أن استصوبت رأيها وأثنيت على أدبها وحشمتها. ولعلها كانت تخشى أن تلقى لبيبا في الغرفة فجاءت بعمتها لتدافع عنها. ومهما يكن الباعث

عـلى اصطحـاب العمـة فقـد كان ذلـك غايـة الصـواب.

وبعـد تبـادل التحيـة والتعـارف جلسـنا إلى مائـدة صففـت عليهـا كل مـا كان عنـدي مـن أنـواع الـشراب وأخذنـا في الحديـث والـشرب، وكنـتُ مضطـرا إلى مفاكهـة عمـة أنيسـة ومباسـطتها قيامـا بواجـب الضيافـة واسـتجلابا لارتياحهـا إليَّ ورضاهـا عنـي، وقـد نجحـتُ في مهمتـي لأنهـا سُرَّت كثـيرا وشربـت كثـيرا حتـى برقـت عيناهـا ودبـت الحيـاة فيهـما.

وعرضـتُ عـلى أنيسـة في أثنـاء الحديـث أن أريهـا شـيئا مـن الصـور الجميلـة التـي رسـمها رفيقـي فيليـب، فذعـرت كمـن لدغتـه عقـرب وقالـت: لا، لا، لا أريـد لأني أكـره هـذا الرجـل وأخشـاه وأخـشى صـوره أيضـا.

فقالـت العمـة: الحـق معهـا لأن لبيبـا لا يُحتمـل، وقـد أهانهـا فـلا تريـد أن تـراه أو تسـمع بـه.

وقالـت أنيسـة: وتـراني بـكل شـوق أسـمع مـا تريـد أن تحدثنـي بـه أنـت عـن نفسـك وأعمالـك، وهـات أخـبرني أولا عـن الفلسـفة التـي قدمـتّ إلى الجامعـة لتحصيلهـا.

ومـا كادت تفـرغ مـن كلامهـا حتـى فُتـح البـاب بعنـفٍ ووثـب منـه لبيـب داخـل الغرفـة فجـأة كأنـه الزوبعـة في سرعتهـا وهولهـا، وقـد وقـف أمـام أنيسـة وقـال لهـا: الفلسـفة يـا سـيدتي هـي أن يتجـرد الإنسـان عـن هـذا العـالم الجميـل الـذي يزينـه أمثالـك ويتوغـل في تيـه الأسـفار الضخمـة التـي وضعهـا ابـن رشـد وأرسـطو وأفلاطـون وسـقراط وابيـلار وباكـون وسـبينوزا

وكَنْت وشوبنهارو و.. و.. وغيرهم من أصحاب هذه الأسماء الغريبة التي يُرهبُ ذكرها كلَّ نفس تحب أن تتمتع بلذات الحياة.

سمعنا كلام لبيب ونحن في حالة الذهول الشديد. ونظرتُ إلى أنيسة فرأيتها ترتجف وقد امتقع لونها. فقلتُ للبيب: ولكنك ذهبت لحضور اجتماع الاشتراكيين، فلماذا عدتُ بهذه السرعة؟

قال: عدتُ لأخبرك بأن تلاميذ أفلاطون ونبتون وكنتون .. وسائر رفاقك في درس فلسفة ابن رشد وسقراط وأسطو وأمثالهم قد عزموا أن يذهبوا كلهم لحضور اجتماع الاشتراكيين، وهم في انتظارك ... فجئت لأنوب عنك في استقبال ضيفتينا العزيزتين.

وكانت أنيسة وعمتها قد نهضتا تريدان الانصراف، وهما ترتعدان وتوجسان شرا. فأخذت أقنعهما بالبقاء، وساعدني لبيب وهو يعتذر إلى أنيسة عما مضى ويعدُها أن يظهر أمامها في المستقبل بمظهر ألطف عضو من أعضاء البرلمان ... أما إذا أصرّت على الخروج فإنه يلقي بنفسه في الحال من نافذة الغرفة.

قال هذا وأسرع إلى إحدى نوافذ الغرفة يريد أن يفتحها.

فصاحت أنيسة: لا، لا، لا تفعل بنفسك هذا كله.

وعادت فجلست، وجلست عمتها. ولم يمض إلا وقت قصير حتى خضنا كلنا عباب الحديث. وقد جلس لبيب إلى جانب أنيسة وأخذ يقص عليها نوادر غريبة مضحكة لم تكترث لها في بدء الأمر ولكنها لم تلبث

أن ارتاحت إليها وطفقت تضحك بملء فيها.

وكانت عمتها قد جلست إلى جانبي تحدثني وتسألني وقد ضايقتني بحديثها، وأنا أظهر لها اللطف والاهتمام بمرضاتها، وهي تزداد اقبالا عليَّ، حتى عيل صبري وضاق صدري ولعنتُ الساعة التي جاءت فيها لزيارتي. مما زادني كمدا أن هذه الغولة قد توهمت أنها أعجبتني بقدها واعتدالها، فأخذت تغازلني، وهي تظهر ولهها بي، وهيامها بي، ولا ترفع نظرها عني.

وكان لبيب لا شك أسعد حالا مني. وقد بدا لي من إقبال أنيسة عليه أنه لم يبق في نظرها فظا وقبيحا. فأذهلني منها هذه الانقلاب ولم أصدق عينيّ.

ولما تناصف النهار قامت أنيسة وعمتها فودعتانا ودعتانا لزيارتهما مساء، وقد ضغطت العمة على يدي حين ودعتني ضغطة شديدة كدتُ أصيح منها ألما، وشعرت بعد انصرافهما بكراهيتي للبيب ورغبتي في اعتزاله وحل عري الصداقة التي بيننا. وهذه كانت المرة الأولى التي شعرت فيها مثل ذلك، بعد أن عشتُ ولبيبا مدة طويلة متلازمين لا يصبر أحدنا على فراق الآخر. ولعل لبيبا أيضا شعر بمثل ما شعرت أنا، فخرج وتركني في حيرة لا أدري ماذا أفعل.

وكانت كتب الفلسفة مركومة أمامي بعضها فوق بعض، فشعرت بانقباض شديد لدى وقوع نظري عليها، وخيل إلي أن أنيسة إنما أصبحت ترهبني وتؤثر لبيبا بكل سماجته وغلاظته عليَّ.

لبثتُ في هذه الحالة بضع ساعات وقد ضاق صدري. فخرجتُ إلى الحديقة لعلّي أسرّي بعض ما بي. وخطر لي أن أمرَّ بغرفة أنيسة، وكانت الغرفة موصدة، ولكني سمعتُ حديثا فيها، فأصغيتُ قليلا سهوا على غير تعمد، فسمعتُ صوت لبيب، وكان يتكلم ويضحك وأنيسة وعمتها تقهقهان طربا وابتهاجا. فطار صوابي ولم أشأ أن أدخل، لأن نار الغيرة كانت تنهش صدري، وواصلتُ سيري وأنا على غير هدى، وقد خرجتُ من الفندق ولم أدخل الحديقة كما كنتُ عازما، وسرت في شوارع المدينة وأنا كالمأخوذ لا أعلم إلى أين تقودني قدماي. ولم أعد إلى الفندق إلا الساعة الحادية عشرة ليلا، فدخلتُ غرفتي وكانت خالية، واستلقيتُ على سريري والنار تستعر في صدري، لأني أيقنتُ أن لبيبا لا يزال في غرفة أنيسة وعمتها، ولعلهم لم يسألوا عني.

وبقيتُ أتقلب في فراشي إلى ما بعد منتصف الليل، وقد عاد لبيب وهو يتهادى في مشيه، فرقد في سريره ولم يبال بي، ولم أسأله أنا شيئا. ولبثتُ أرقِبا كأني على فراش من قتاد، أسمع غطيط لبيب وأشعر بأحلامه اللذيذة إلى الصباح.

***

وعلمتُ في اليوم التالي أن لبيبا قد أصبح خطيبا لأنيسة، فرزمتُ كتبي وأوراقي وخرجتُ إلى فندق آخر، وأنا أردّد كلام أنيسة لي في وصف غلاظة لبيب وسماجته وخوفها منه، ولا أسطيع أن أتصوَّر تحولها مني إليه ... فعزمتُ على أن أقضي حياتي كلها عزبا، أقفها على درس فلسفة الحب وغرائب الطبائع في بعض بنات حواء، وأضع في ذلك كتابا أضمِّنه ما غفل عنه الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون.

آلهة الجمال

في أحد أيام الصيف وقد اشتد الحر وجف الهواء ولجأت الأطيار إلى وكناتها والناس إلى منازلهم فرارا من وقدة القيظ - رنَّ في المسامع صوت عزف مطرب وغناء رحيم من الغابة.

وكان في وسط تلك الغابة شجرة سنديان كبيرة وقد جلس على أحد فروعها إله الحقول وأخذ نايه (شبابته) وجعل يوقع عليه ألحانه المطربة.

وظلَّ يعزف ويغني وهو يزداد حماسة ويزداد صوته جلاء، إلى أن سمع حفيفا، فتوقف بغته عن الغناء، وأرهف أذنيه ليعلم من القادم. وقد ظن أول وهلة أن ذلك الحفيف إنما هو صوت مشي نعجة من النعاج السارحة في الغابة، أو دبيب حية بين الهشيم. غير أنه لم يلبث أن رأى أمامه إلاهة الجمال، فذهل وجحظت عيناه وأخذت منه الحيرة كل مأخذ.

وانتصبت أمامه الإلهة عارية الجسم، وقد سدلت شعرها الذهبي الطويل على كتفيها، وغطت وجهها بيديها، ثم وقفت مطرقة بلا حراك.

فنظر إليها نظرة المعجب بجمالها، ولكنه ذُعر لأنه رآها حزينة، فما أبطأ أن وثب ورفع يديها عن وجهها، فراعه جمالها الباهر، وشاهد الدموع تنهل من عينيها المحمرتين من شدة البكاء فهاج بلباله وصاح

بأعلى صوته: أقسم بالآله زفس أنكِ كنتِ تبكين! فما هذا أيتها الإلهة الجميلة، وهل يليق البكاء بالآلهة؟، فاتركي الدموع للناس ولا تبكي.

فتنهدت الإلهة وقالت: سمعتُ صوت غنائك عن بعد فجئتُ لأشنّف أذنيّ بسماع ما يبدد سحب الحزن من سماء فؤادي.

وكان الإله يسمع صوتها العذب ويرشف سلسال كلامها الرخيم، وقد أحس بقشعريرة سرت في كل بدنه، فتنهد وهو شاخصٌ في ذلك الجمال الفتّان، ثم قال: أُقسم بجوبيتر أنك كاسفة البال، ولا بد أن يكون قد أحزنك إله الحب أو أساءت إليك إلهة الصيد ... قولي لي أيتها المفداة لأني مستعد أن أعمل ما يسرّكِ ويستأصل شأفه الحزن من نفسك.

ثم طوق خصرها وأجلسها على جذع شجرة كانت مطروحة على الأرض وجلس عند قدميها.

فقالت: لم يُسيء إليَّ أحدٌ من الآلهة ... وأرادت أن تواصل حديثها فخنقتها العبرات.

فصاح الإله: كفكفي دموعك يا سيدة الجمال، واذكري لي اسم الذي اجترأ على تكدير صفاء عيشكِ حتى أصعقه برعود السماء وأصب عليه قذائف الجحيم.

فتنهدت الإلهة ولم تُحِر جوابا.

فقال وقد بلغ الغيظ منه كل مبلغ: إذا كانت الآلهة لم تحزنك ولم تُثر شجونك، فلم يبق إلا الإنسان. فإذا صح ذلك، فكيف استطاع هذا

المخلـوق الـترابي أن يرفـع نظـره إليـكِ ويجعـل للحـزن سـبيلا إلى قلبـك؟

فقالـت وهـي تتنهـد: إسـمع فأحـكي لـك. خرجـتُ في يـوم شـديد الهجـير كهـذا اليـوم إلى الغابـة ألتمـس جـدولا أغتسـل فيـه تخفيفـا لوطـأة الحـر. وفيـما أنـا سـائرة رأيـتُ فتـى نائمـا عـلى الـكلأ الأخـضر الناعـم. فدنـوتُ منـه أتأمـل فيـه، فـإذا هـو في ريعـان الشـباب ومنتهـى الجـمال، فشـعرتُ بارتيـاح إلى الوقـوف بإزائـه والتمتـع بمشـاهدة محيـاه الوسـيم. ثـم حانـت منـي التفاتـة إلى مـا حولـه، فرأيـتُ إلى جانبـه علبـة صغـيرة وحقيبـة مـن الجلـد لحفـظ الأوراق. وفيـما أنـا مشـغولة بالتأمـل فيـه، فتـح عينيـه ونظـر إليَّ. فاختلـج جسـمي وخفـق قلبـي، وقبـل أن أملـك روعـي جلـس وقـال لي بصـوت لم أسـمع أرق منـه: «أيتهـا الإلهـة الجميلـة! إني قـد ضللـت السـبيل في هـذه الغابـة الكثيفـة، وأنـا أبحـث عـن الجـمال، إلى أن كـدتُ أمـوت جوعـا وعطشـا، فأشـفقي عـليَّ واغيثينـي بقليـل مـن المـاء أنضـح بـه جـوفي الملتهـب..».

وكان بالقـرب منـي غديـر مـاء، فأسرعـتُ إليـه ولم ألبـث أن عـدت إلى الشـاب وسـقيته بيـدي، ولمـا ارتـوى ذهبـتُ فقطفـتُ لـه بعـض الأثمـار الطيبـة، فأكلهـا وهـو يرنـو إليَّ بعـين المحـب الولهـان. ثـم خاطبنـي قائـلا: «أسـألك يـا إلهتـي الجميلـة أن توليني نعمـة واحـدة، ولا أظنـك تضنـيّن عـليَّ بهـا».

وكنـتُ حالمـا وقـع بـصري عليـه قـد تعلقـتُ بهـواه، فأجبتـه: قـل مـا بـدا لـك، فأفعـل لـك مـا تريـد.

قال: اسمحي لي أن أتملى مشاهدة جمالكِ الفتان ساعة أو بعض الساعة كل يوم. واعلمي يا سيدتي أني من طلاب الجمال والمجد، وقد جُبتُ الأمصار وطفتُ في الأقطار ناشدا ضالَّتي إلى أن رأيتك، فإن أنتِ سمحتِ لي بهذه النعمة كنتُ أسعد رجل على وجه الأرض.

فلم أفهم كلامه، ولكني أجبته إلى ما طلب، وقد شعرتُ أني قد أُخذتُ بباهر جماله وأصبحتُ رهينة أمره.

فقال: قفي الآن قليلا يا سيدتي على شاطئ هذا الغدير القريب ودعيني أنظر إليكِ وأتأمل في جمال قدّكِ ورائع حسنكِ.

ثم رأيته قد أخرج ورقا من حقيبته وأخذ ينظر إليَّ من قمة رأسي إلى أخمص قدميَّ ويرسم على الورق، وأنا لا أعلم ما بُغيتُهُ من كل ذلك.

ولما فرغ من عمله قام فجمع أوراقه ودنا مني فرسم على يدي قبله حارة وانصرف لشأنه على أن يعود في اليوم التالي.

وفي الوقت المضروب كنتُ واقفة في الغابة أنتظر قدومه وقد هاجني الشوق إليه. ولم ألبث أن رأيتهُ قادما وعلى وجهه ابتسامة الحب والسعادة. فتلقيتهُ بمزيد من السرور ورجوت أن يجلس إليَّ فيطارحني حديث الغرام. غير أنه سألني أن أقف مرة أخرى على شاطئ الغدير، ففعلتُ. وأخذ هو أوراقه وأقلامه وجلس يرسم وينظر إليَّ، وأنا أشعر لدى كل نظرة بنار الحب تزيد ضراما في صدري ... ولما فرغ من عمله دعاني وقال: انظري إلى هذا الرسم يا ربة الجمال. فنظرتُ وإذا صورتي

بعينها وقد رسمها هذا الفتى بمهارة لا مزيد عليها. فدهشت لبراعته وعظم شأنه في عينيَّ ووددتُ أن لا أفارقه طرفة عين. أما هو قال: إن هذا الرسم سيفتح لي طريق الشهرة والمجد، وسأكون أشهر رسام على وجه البسيطة. ثم غادرني فغاب، ولم أره من ذلك الحين، وكنتُ أجيء كل يوم إلى الغابة فأقضي الساعات الطوال في انتظاره وأنا آمل أن تعود عليَّ الأيام بما أتمنى، إلى أن عيل صبري وسئمت الحياة.

فقال إله الحقول: الآن علمتُ أن الناس يقدرون أن يقضوا الحياة مرتين وأنهم بذلك يفوقوننا.

فتنهدت الإلهة وقالت: واعلم أيها الصديق أن هذا الحادث قد أثر في نفسي تأثيرا شديدا، لأني تائقة إلى هذا الحبيب بكل جوارحي، وإني أفضل أن اجتمع به وأنا لستُ إلهة على أن أكون إلهة بدونه، لأن حبه قد شعل قلبي وأخذ بمجامع حواسّي ونغَّص حياتي وكدَّر صفاء راحتي، فأصبحتُ ضعيفة هزيلة، لا يلذُّ لي إلا الحزن والبكاء، وعدتُ لا أيق صبرا على هذه الحال. ولما سمعتُ إنشادك الشجي أسرعتُ إليك على رجاء أن أسرّي شيئا من همومي واسكن اضطراب قلبي، فزادتني الذكرى ألما على ألم.

فصاح إله الحقول: أيها الناس! إنكم حمقى وجهلاء! لأنكم تطلبون الجمال في الصناعة، فلن تدركوا السعادة لأنها والصناعة على طرفي نقيض. فلو التمستم الجمال الحقيقي المجرَّد من كل فنّ وصناعة لأدركتم السعادة الحقيقية، ولكنكم جُهَّال وحمقى.

ولبـث إلـه الحقـول يـزدري النـاس وينعتهـم بمثـل هـذه النعـوت ويحمـل عليهـم بهـذا العنـف، وهـو ينظـر إلى وجـه الإلهـة فـيراه حزينـا مقطبـا. ولمـا فـرغ مـن كلامـه دنـا إليهـا فطوّقهـا بذراعـه وقـال: كفـى الآن! خـلّي عنـك الاهتـمام بهـذا الإنسـان الصعلـوك، ولا تذكريـه بعـد. ثـم أخذهـا وأوغـل بهـا في الغابـة.

الرَّسائل

كان وليم شابا كثير التأنق في ملابسه لا يعرف حدا للتبذير والإسراف. ولم يكن أحد من أصدقائه ومعارفه يعلم الطرق التي كان يسلكها لكسب المال، لأنه لم يكن ذا حرفة يتعاطاها ولا صاحب ثروة يعتمد عليها. وكان يقطن منزلا فخما وله مركبة يجرها فرسان من جياد الخيل وعنده نفر من الخدم. وكان ينفق من سعةٍ ويظهر بين الناس بمظهر أهل النعيم الوافر والجاه العريض. وقد حاول كثيرون من أصدقائه أن يطلعوا على سر ثروته ومورد رزقه، فلم يفوزوا بطائل، وظلت حياته لغزا من الألغاز. إلى أن كان ذات يوم جالسا في منزله يطالع ما جاءه به البريد من الجرائد والرسائل، وإذا به قد امتقع وانتفض انتفاضا شديدا، لأنه قرأ في إحدى تلك الرسائل الكلام التالي: «بعد غدٍ ينتهي أجل دين عليك قدره ألف جنيه ولا بد من دفعه على الفور لئلا تقام عليك الدعوى من صاحب الدين. وليس لك سبيل إلى التأجيل ...».

ألف جنيه! مبلغ كبير باهظ! وليس في حوزته الآن شيء منه!، ولكنه مضطر أن يدفعه لئلا تناله يد القضاء ويفتضح أمره ..

جلس وليم وأخذ يضرب أخماسا لأسداس، وقد أمعن في التأملات والأفكار، لعله يهتدي إلى طريقة يتخلص بها من هذا المأزق. وقد عرضت له فيما مضى من السنين حوادث كثيرة من هذا النوع، ولكن السعد خدمه فتلاقاها كلها وخرج منتصرا على خصومه ومداينيه. أما الآن فلم يوفقه الحظ ولم يفتح عليه بشيء من تلك الرسائل.

وكان يتوقع ورود هذا الطلب منذ أيام، ولكنه كان يتناسى أمره ويترك الحكم فيه إلى حينه، وها قد جاءه الإنذار الآن فأسقط في يده ولم يبق له ما يتسلح به لدفع هذه الغائلة.

وإنه في هذه الأفكار إذ دخل عليه خادمه فقال: في الباب سيدة تروم مواجهتك يا سيدي لأمر ذي بال. فارتعش وليم كمن أفاق من حلم وقال لخادمه: سيدة تروم مواجهتي؟ فمن هي، وما اسمها؟ قال: لا أعلم، لأنها مقنعة وقد أبت أن تذكر اسمها أو تعطيني بطاقتها. قال: دعها تدخل.

وما كادت السيدة تجتاز باب الغرفة وترفع النقاب عن وجهها حتى صاح وليم مسرورا: ماري؟ ماذا جرى؟ وكيف ذكرتِنا بعد كل هذه السنين الطوال؟

وكانت الزائرة فتاة ممشوقة القد بارعة الحسن يتدفق ماء الجمال من وجهها الوسيم. فلما سمعت كلام وليم نظرت إليه بلطف وقالت برزانة: هكذا قضت الأحوال.

وكان وليم يتفرس فيها من رأسها إلى أخمص قدميها فقال: أهلا وسهلا بك .. ويعلم الله أني كدت أوقن أنكِ نسيتني إلى الأبد .. فعسى قدومك أن يكون الآن لخير.

قالت: هو لخير إن شاء الله.

ثم نزعت قفازيها من يديها، فرأى وليم في احدى أصابعها خاتما جميلا،

فلم يشك في أنها مخطوبة، فأبرقت أسرته وقال: ولقد ذكرتك منذ يومين ولم يكن لدي ما أسلو به عنك إلا رسائلكِ اللطيفة، فراجعتها وكررت تلاوتها بما لا مزيد عليه من الارتياح والغبطة.

قالت: وأنا لأجل هذه الرسائل إنما جئت إليك الآن وأرجو أن لا أعود خائبة.

فازداد وليم استبشارا وقال وهو يتنهد تنهد المتيم الولهان: إنها بالحقيقة درر يتيمة، وأنا أوثر أن أفقد حياتي على أن أفقد واحدة منها، لأنها موضوع تسليتي وذكرى سعادتي.

قالت: ولكنها كتبت منذ سبع سنوات.

قال: ومع هذا فهي عزيزة جدا لدي وأنا أفتخر بها وبكِ على جميع أقراني، لأنها السحر الحلال، كما أنكِ زينة ربات الجمال وملكات الحسن والجمال.

فانقبضت ماري من هذا الكلام وقالت: ولكني كتبتها وأنا صغيرة السن طائشة الحلم، وليست تلك الأوقات في نظري إلا حلما عبر.

قال: لتكن كذلك في نظركِ، أما أنا فلا أحسبها إلا أحسن أيام حياتي.

قالت: ولكني الآن ...

قال: لعلك تريدين أن تقولي إنك مخطوبة.

قالت: نعم.

قال: فأنا أهنئك وأرجو أن تكوني سعيدة.

قالت: نعم، فأنا سعيدة بخطيبي.

قال: وأنا أحسده وأسالك أن تعرفيني باسمه.

قالت: إنك ستعرفه .. ولكني أرجو الآن أن تعيد إلي رسائلي.

وكان وليم يتوقع أن يسمع هذه الكلمات، فتبسم وقال: وأنا أرجو أن تذكري لي اسم خطيبك العزيز.

قالت: رسائلي! أرجو أن ترد إلي رسائلي.

قال: اسم خطيبك! أريد أن أعرف من هو.

فتنهدت ماري وجالت دمعة في مآقيها، فمسحتها بطرف منديلها وقالت: إني أسألك باسم المروءة أن تعطيني رسائلي.

قال: عجبا يا ماري! وكيف لم أراك هذه المدة كلها؟ فأين كنت؟

قالت: كنت في سياحة مع عمتي في بعض جهات سويسرا ولم أعد إلا أمس.

قال: فأنا سعيد إذا لأنك زرتني قبل كل معارفك.

قالت: وهمت يا سيدي، فقد زرت غيرك قبلك .. ولكن ما لنا ولهذا، أعطني رسائلي.

قال: عفوا يا سيدتي، فليس لك حق في طلبها لأنها الآن لي وليست لك.

قالت: حسن .. ولكن لا تنس أني كتبتها وأنا بنت صغيرة حمقاء .. فأية فائدة لك منها الآن.

فقهقه وليم ضاحكا وقال: إن فائدتي منها أكبر جدا مما تتصورين.

قالت: فإذن أنت تأبى أن تعيد إلي رسائلي!.

قال: وأنت إذن لا تريدين أن تذكري لي اسم خطيبك.

قالت: إن اسمه لا يفيدك شيئا.

قال: بل يفيدني كثيرا.

قالت: ولكني لا أدري ماذا تريد من ذلك.

قال: إنك تطلبين رسائل غرامية كتبتها إلي لأنك مخطوبة الآن، وتخشين أن يطلع عليها، فيتكدر صفاء عيشكما، وربما آل الأمر إلى فسخ عقد الخطبة بينكما. ولذلك جئت تطلبين الرسائل بما لا مزيد عليه من الالحاح لتتخلصي مما يمكن أن يصيبك من المحن بسببها، وقد قلت إنك كتبتها في عهد الحداثة .. وأما أنا فأقول لك إنها وإن كانت كذلك فثمنها غالٍ جدا.

قالت: أنت إذن تطلب مالا!.

قال: نعم، وهي مهنتي التي أعيش منها، ولولاها لكنت الآن في أحط

دركات المذلـة والفقـر.

قالـت: وكم تطلب ثمنها؟

قال: ألفا وخمسـمئة جنيه فقط.

فأجفلـت ماري وقالت: إنه ثمن باهظ جدا.

قال: ولكنك لا تثمنين مسـتقبلك السـعيد بأقل منه.

قالـت: وإذا لم يكـن في طاقتـي أن أدفـع إليـك مثـل هـذا المبلـغ، فـماذا يكـون حينئـذٍ؟

قال: حينئذٍ تسـلم هذه الرسـائل إلى خطيبك.

قالـت: ولكنك لا تعلم من هو.

قـال: لا يصعب علي أن أعرفه.

قالـت: ولكنـي لا أصـدق أنـك تقـدم عـلى مثـل هـذه الدنـاءة، فأنـا أذكـر لـك اسـم خطيبـي ولا أرتـاب في كـمال أدابـك وحسـن خلالـك فاسـمه «الاخطـل الصغـير».

قـال: إني أشـكر لـك يـا سـيدتي ثقتـك بي، وآسـف عـلى أنهـا لم تصـادف محلهـا، وكذلـك أشـكرك لأنـك بذكـرك اسـم خطيبـك قـد مهـدت أمامـي السـبيل إليـه دون تحمـل أقـل عنـاء أو نفقـة، وأهنئـك لأن خطيبـك مـن الكتبـة المشـهورين في البـلاد، إذ مـا مـن أحـد يجهـل اسـم «الاخطـل

الصغير» وقد سارت بذكره الركبان، وأصبح موضوع الاعجاب عند قرآء الصحف والروايات، وبما أنه في هذه الدرجة الرفيعة من الشهرة، فهو إذن من الأغنياء الكبار .. لأن كاتبا مثله له هذه الشهرة المستطيرة في الفن الأدبي الروائي يتدفق عليه المال كالسيل من أرباب الصحف وأصحاب المطابع والمكاتب .. فإذا لم يكن في وسعك أنت أن تدفعي المبلغ المطلوب فهو يدفعه بطيبة خاطر.

فاضطربت ماري وصعد الدم إلى وجهها وقالت: ولكني أعود فأسألك باسم المروءة أن لا تعكر كأس صفائي، ولا تلقي بي إلى مثل هذه التهلكة .. خلِ عنك المزح وأعطني رسائلي.

قال: لست مازحا في شيء، وهذا المبلغ أقل ما ينتظر من مثل الاخطل الصغير.

قالت: يا لك من دنئ سافل ولئيم محتال!!.

قال: قد أكون كذلك إذا لم أعرف كيف أنتفع من مثل هذه الفرصة السانحة.

قالت: ولكنك تجرد سلاحك على فتاة ضعيفة لا حول لها على الوقوف في وجهك.

قال: ولكنها تستطيع أن تكم فمي بألف وخمسمئة جنيه، وهي لا تذكر إذا قوبلت بالسعادة التي تنتظرها متى صارت إلى الاخطل الصغير.

قالـت: وكيـف تريـد أن أنقـذك مثـل هـذا المبلـغ وليـس في حـوزة يـدي شيء منـه.

قـال: هـذا لا يعنينـي .. ولا شيء يحولني عن عزمي إلا إذا نلت المطلوب.

قـال هـذا وضغـط زرا كهربائيـا فأقبـل الخـادم فقـال لـه: سـل بالتليفـون عـن اسـم المكتبـة الـذي طبـع آخـر روايـات الاخطـل الصغـير.

ولمـا خـرج الخـادم عمـد وليـم إلى مائـدة ففتـح درجـا وأخـرج منـه رزمـة ملفوفـة مكتوبـا عليهـا اسـم مـاري .. فأراهـا إياهـا مـن بعيـد. وقـال: هـذه رسـائلك. ففـي هـذه الرزمـة احـدى وأربعـون رسـالة .. ولعلهـا تكـون موضوعـا مهـما لروايـة جديـدة يؤلفهـا خطيبـك الكريـم.

فاتقـدت عينـا مـاري بنـار الغضـب وقالـت: إفعـل مـا أنـت فاعـل أيهـا النـذل، فلـم تبـق لي رغبـة في السـعادة إذا كانـت الأرض تحمـل أمثالـك.

ثـم نهضـت تريـد الخـروج، فقـال لهـا وليـم: رويـدك يـا سـيدتي فانتظـري ريثـما يعـود خادمـي مـن مهمتـه .. إنـك لا تسـتطيعين أن تخرجـي مـن هنـا قبـل نصـف سـاعة لئـلا تهدمـي مـا بنيـت، وقـد أشرت إلى الخـادم أن يقفـل البـاب بالمفتـاح، فـلا تخـشي سـوءا.

فزفـرت مـاري زفـرة حـارة وجلسـت وقـد أطرقـت إلى الأرض. ولم يلبـث الخـادم أن عـاد وبيـده العنـوان المطلـوب فأخـذه وليـم، ثـم لـف رزمـة الرسـائل وعنونهـا باسـم صاحـب المكتبـة، وكتـب عليهـا أنهـا «أوراق مهمـة جـدا ويجـب أن تسـلم حـالا إلى الاخطـل الصغـير يـدا بيـد»، وأمـر الخـادم

أن يأخذهـا إلى ادارة البريـد.

وفعـل الخـادم مـا أمـره سـيده. وكانـت مـاري لا تزال جالسـة مـشردة الأفكار منقبضـة النفـس .. ولمـا انقضـت نصـف سـاعة قـام وليـم ففتـح البـاب وقـال لهـا: تسـتطيعين الآن أن تذهبـي بالسـلامة أيتهـا الآنسـة اللطيفـة، فقـد قـضي الأمـر ولا لـوم عـلي ولا تثريـب.

فقالـت: أنـا لا ألـوم أمثالـك ولكنـي نادمـة عـلى التعـرف بـك أيهـا الوغـد السـاقط، وحقـا إنـك لسـت مـن البـشر بـل مـن العقـارب والافاعـي.

ثـم خرجـت لا تلـوي عـلى شيء .. ولمـا فصلـت عـن المنـزل تنفسـت كمـن سرى عنـه، وسـارت في طريقهـا إلى فنـدق مشـهور كانـت تختلـف عليـه، وفي طريقهـا ولجـت ادارة التليفـون، ولم تلبـث أن خرجـت والـسرور يطفـح عـلى محياهـا.

***

كان في ردهـة الجلـوس في الفنـدق الـذي قصدتـه مـاري جمهـور مـن الرجـال والسـيدات مـن أسر مختلفـة وأماكـن شـتى وأكثرهـم مـن أهـل اليسـار والوجاهـة والأدب، ومـا كادت تظهـر في بـاب الردهـة حتـى اشرأبـت الأعنـاق، وقـام مـن بـين الجمـع شـاب جميـل الوجـه عليـه سـيماء الـثروة والنبـل، فدنـا منهـا وقبـل يدهـا، وعـاد فدخـل بهـا بـين الجمهـور.

فقـال أحـد الجلـوس لسـيدة كانـت إلى جانبـه: هـذا هـو «الاخطـل الصغـير» الكاتـب الاجتماعـي الشـهير.

فأجابت السيدة: كلا بل هو الكونت راعول.

فقال الرجل: نعم إن الشاب هو الكونت راعول .. ولكني أريد بكلامي رفيقته أو خطيبته ماري التي قبل يدها، فهي كاتبة من الطبقة الأولى ولكنها مشهورة باسم «الاخطل الصغير» ولا تكتب إلا متنكرة بهذا الاسم المستعار.

فدهشت السيدة وقالت: لقد قرأت كثيرا من كتابات هذه الفتاة البارعة فهل هي «الاخطل الصغير» نفسه؟

قال: هي هي بعينها، وبعد أسبوعين موعد زفافها إلى الكونت راعول .. وهي كاتبة بارعة لا يشق لها غبار، فيحق للنساء أن يفتخرن بها على الرجال.

قالت: وأنا أعرف خطيبها جيدا، فهو من الأسر العريقة في الحسب والغنية بالمال، وهو إذن يليق بها كما أنها تليق به.

***

وبعد أسبوعين زفت ماري إلى الكونت راعول .. في احتفال شائق، وقضيا معا حياة سعيدة لم يشب صفاءها كدر.

الصَّدى

حدث ما يأتي في سيراقوسه، وكانت سيراقوسه عاصمة جزيرة صقلية (سيسيليا) وهي مدينة قديمة مصرها أناس وحلوا إليها من كورنثوس سنة ٧٣٤ ق.م. وعند وقوع الحادثة التالية كان على الجزيرة ملك يقال له ديونيسيوس، وهو طاغية شديد الوطأة سفاك للدماء لم تاخذه في أحد رحمة ولا شفقة، وفي أيامه نشبت حرب بين السيراقوسيين والأثنين، وحاصر الأثينيون مدينة سيراقوسه سنة كاملة، وفي آخر الأمر قتل قائدهم، ففشلوا وتضعضعت قوامهم ولاذوا بالفرار. فتتبعهم السيراقوسيون وقتلو منهم خلقا كثيرا وأسروا سبعة آلاف جندي، عادوا بهم وهتافهم يملأ الفضآء وأقاموا في المدينة معالم الزينة وقضوا أياما بعد ذلك في الملاهي والمسرات.

وكان الملك ديونيسيوس أكثر الناس افتخارا واستبشارا بهذا الانتصار، وقد اشتدَ ساعده وقويت شوكته وزادت هيبته في قلوب رعيته. ولبث مدة يقيم لأكابر دولته الولائم والملاهي والألعاب حتى أنساهم جوره وعسفه، وأطلق ألسنتهم بالدعاء له والثناء عليه.

أما الأسرى فأحبَ ديونيسيوس ارواء لغليل انتقامه أن ينزل بهم عقابا لم يسمع بهم أحد منذ تكوين العالم. وكان في سيراقوسه دايامیس هائلة تحت الأرض على عمق مئة وخمسين قدما، تحدق بها من كل جهة صخور شاهقة منيعة. فطرحوا جميع أسرى اليونان في هذه الدياميس ليموتوا فيها بعد ما يعانون أشد أنواع العذاب جوعا وياسا وجنونا.

ثـم أمـر الملـك فسـدت منافـذ الديناميـس بالحجـارة الضخمـة وبـات الأسرى في الظـلام دامـس وقـد دفنـوا أحيـاء في بطـن الأرض ولا أمـل لأحـد منهـم بالنجـاة أو الحيـاة.

وكان ديونيسـيوس قـد اكتشـف في سـطح بعـض الصخـور الهائلـة شـقا يـؤدي إلى أعمـق حفـرة في الديناميـس، فـكان يـأتي كل يـوم فيجلـس قـرب هـذا الشـق ويمتـع سـمعه بصـدى أنـين الأسرى وأصـوات عويلهـم ونجيبهـم، ويعـود بعـد ذلـك إلى قـصره وقلبـه طافـح بالمـسرة والهنـاء.

وفي أحـد الأيـام أولم هـذا الطاغيـة وليمـة فاخـرة في قـصره لرجـال مملكتـه، وجلـس بينهـم يشـاركهم في الـشراب واللهـو، وقامـت الراقصـات والعازفـات بـآلات الموسـيقى والمغنيـات يطربـن الحضـور بالرقـص الفتـان وأطايـب الأنغـام والألحـان. وفيـما الملـك جالـس يمتـع نفسـه بهـذه اللـذات راى دسونيسـيوس فتـاة رائعـة الجـمال كانـت ترقـص فتحـير الأبصـار، وتنفـخ في النـاي فتخلـب الألبـاب، فاسـتدعاها ونظـر إليهـا باشـا وقـال: مـن أنـتِ، ومـا اسـمكِ أيتهـا الفتانـة؟

فأطرقـت الفتـاة وقـد صبـغ الاحمـرار وجنتيهـا وقالـت بصـوت يرتعـش: اسـمي مليتـا أيهـا الملـك.

قـال: ومـن علمـكِ أن تنفخـي في النـاي بمثـل هـذه المهـارة العجيبـة، وتنشـدي هـذه الأنغـام السـاحرة؟

قالت: النجوم ... النجوم يا سـيدي قد علمتني ذلك.

فبهت ديونيسيوس وقال: النجوم؟ وكيف ذلك أيتها الجميلة بين العذارى؟

فقالت وقد انتعشت نفسها وزال اضطرابها: اعتدتُ يا سيدي الملك أن أخرج كل مساء إلى الحقول والرياض لأشاهد توقدُ النجوم الزهر في القبة الزرقاء، فأمتع بصري برؤيتها ونفسي بمناجاتها. وما زلتُ كذلك إلى أن أوحت إلي بأسرارها وكشفتني بأنغامها وألحانها. فما تسمعه مني الآن من الأغاني الشجية والألحان المطربة إنما هو صدى ما أفضت به إلي تلك النجوم اللوامع.

فدهش الملك وزاد اعجابا بالفتاة وارتياحا إليها، ثم قال: انكِ قد نلت حظوة في عيني، فتعلمي أيتها المليحة ما شئتِ من علوم النجوم وانغامها، وإذا كنت في حاجة إلي في شيء فاعلمي أن ديونيسيوس مستعد أن ينيلكِ ما تبغين.

فعادت الفتاة إلى رفيقاتها وهي تختال طربا وامتلأ المكان في الحال بضجيج الاستحسان والهتاف، واستؤنف الرقص والعزف إلى الصباح.

***

وبعد أيام خرجت مليتا من منزلها تطوف على عادتها في الحقول والرياض، وكانت الليلة قمراء وقد سطع البدر وتلألأت النجوم في القبة الزرقاء، فوقفت على ضفاف نهر أنابوس الجميل تسمع خرير مائه في سكون ذلك الليل، وقد هب على وجهها النسيم اللطيف

فأنعش نفسها وجدد قواها، فطاب لها التطواف فسارت في طريق الملهى البلدي، ولم تشعر إلا وقد قادتها قدماها إلى الصخور الهائلة القائمة عند مدخل الديماميس، فاتخذت لها مجلسا على صخر هناك، وأخذت نايها وجعلت تنفخ فيه وتنشد أنغاما شجية تتصاعد إلى الجو وتنتشر في الأفق فتملأه عذوبة.

وإنها لكذلك إذا بها قد استوقفها سماع صوت ضعيف صادر من بين تلك الصخور يقول: شفقة ورحمة ايها النافخ في الناي!

فذعرت مليتا وقد اعترتها الدهشة، فتركت الغناء وأخذت تجيل بصرها في ما حولها لتعلم جهة الصوت، وإذا به قد عاد إلى الاستغاثة ثانية، وهو يقول: أشفق عليَ أيها الجالس عند مدخل الديماميس وأرثِ لحالي فإني أكاد أموت ألما في جوف هذه الأرض.

فعلمت مليتا أن الصوت الذي تسمعه خارج من أحد تلك الديماميس وحارت في أمرها وشعرت بأشد عواطف الشفقة تدفعها إلى البحث عن مصدر الصوت بين تلك الصخور الضخمة، ولم تلبث أن اهتدت إلى شقٍ هناك استجلت منه كلام المستغيث، فوقفت عند حافتهِ وقالت: من أنتَ يا هذا وما الذي تريده مني؟

فقال صاحب الصوت: أنا أثينوي، واسمي افتيل، ولا أزال في زهرة شبابي لأني في الربيع الثامن عشر من عمري، فأريد الحياة، أريد أن أخرج من جوف هذه الأرض لأعود فأرى نور الشمس.. وقد قضيتُ في هذا المدفن خمسة أيام بلياليها أقتات بالأعشاب والجذوع حتى خارت

قـواي وأصبـح المـوت يتهـددني في كل ثانيـة... فأشـفق عـلي. إن الآلهـة قـد حبتـك الكـمال في الفـن وهـي لا تمنـح مواهبهـا إلا ذوي النفـوس الشريفـة والقلـوب الرقيقـة .. قـل لي مـن أنـتَ، وهـل في اسـتطاعتك أن تغيثنـي؟

فقالـت مليتـا: أنا فتاة ضعيفة فكيـف يمكنني أن أنقذك مما انت فيه؟

قال: حبلا، أيتها الحسـناء!

قالـت: حبـلا؟ ومـن أيـن لي الحبـل في هـذا القفـر! وهبنـي وجدتـهُ، فكيـف أسـتطيع أن انتشـلك مـن هـذه الهـوة العميقـة؟

فزفـر الشـاب زفـرة اليـأس وقـال بصـوت يذيـب الجهـاد: اذا قـد قُـضي الأمـر وأنـا هالـك لا محالـة! .. وهـذا الصـوت الجميـل الـذي سـمعته وأحيـا فيّ الرجـاء سـيكون آخـر صـوت حـي أسـمعه، بـل هـو صـوت الرثـاء الـذي تندبنـي بـه الحيـاة وتختـم بـه قـبري.

فشـعرت مليتـا بحـزنٍ يمـزق صدرهـا عندمـا سـمعت هـذا الـكلام، وعـلى الفـور خطـر لهـا خاطـر أشرق لـه وجههـا فقالـت: لا تستسـلم لليـأس أيهـا الاثينـوي الغريـب، فـإني سـأنقذك مـما أنـت فيـه .. وستسـمع غـدا صـوتي ثانيـة فتعـود إلى الحيـاة.

قال ـــ لتكن الآلهة عونا لكِ أيها الحسـناء!

***

وفي صبـاح اليـوم التـالي جـاءت مليتـا فمثلـت أمـام ديونيسـيوس، فُـسر

لقدومها عليه وسألها حاجتها. فقالت: جئتُ يا مولاي أنشدك ما تعلمتهُ أمس من النجوم. ثم أخذت نايها وجعلت تنشد بصوتها الرائق ألحانا أسالت دموع الملك تأثرا. فقال لها: وعدتك أن أقضي لك كل ما أنت راغبة فيه، فهل في نفسكِ حاجة ترومين قضاءَها؟

قالت: نعم يا سيدي.

قال: وما هي؟

فارتمت على قدمي الملك وقالت: أسألك يا مولاي الرحمة والشفقة!. أسألك أن تهب الحياة لمن لا يزال حيا في الدياميس من أسرى اليونان، ولا أظنك إلا ملبيا سؤلي!

فبهت الملك وقال: وهل هذا كل ما أنتِ راغبة فيه أيتها الحسناء؟، كنتُ أظن أنك ستطلبين ما تتوق إليه نفس أمثالكِ من الجواهر الكريمة والحلل الفاخرة ونفائس الزينة الجميلة!

قالت: حسبي إذا أنت قضيت لي هذه الحاجة، فهي عندي أجمل زينة تزدان بها نفسي.

قال: بورك فيك أيتها الحسناء الشريفة، لأنكِ استطعت بعذوبة صوتك ورقة نفسك أن تستولي على قيادي وتتصرفي فيّ كما تشائين ... فأنا أهب لك كل من لا يزال حيا من أولئك الأسرى، ليعلم جميع السكان الأرض مقام الفنون الجميلة في سيراقوسه.

وفي الحال أمر فدحرجت الصخور عن مدخل الدياميس، وانتشل مئة

رجل أثينوي كانوا لا يزالون أحياء، وقد جثوا كلهم أمام مليتا يشكرون لها فضلها ومعروفها بكلمات تخنقها العبارات الحارة. ولم يلبثوا أن تركوا سيراقوسه وعادوا إلى أوطانهم يذيعون فضل من أحسنت اليهم بالحياة.

ولم يبق منهم في سيراقوسه إلا افتيل، وكان من أجمل شبان عصره وأرغبهم في الفنون الجميلة، وقد تعلم منذ حداثة سنة الصناعة النقش والنحت، فأقام في منزل مليتا واقفا حياته على خدمتها وعبادتها. ولم يلبث أن أصبح أمهر نحات في سيراقوسه، وكانت التماثيل التي يصنعها موضوع اعجاب الأهلين عموما. وكان أكثرها اتقانا وجمالا تمثال من المرمر النقي مثل به مليتا الجميلة جالسة على صخر عند مدخل الدياميس والناي في يدها.

وكانت مليتا لا تجد سرورا ولا هنا إلا بجانب افتيل، وقد شغفها حبه. ثم اشتد هيام كل من الحبيبين بالأخر، فاقترنا وعاشا في رغد ورفاء وسرور وصفاء.

الحديث ذو شجون

تناول السيد شمس الدين النحاس طعام الغذاء في فندق فخم في المدينة، وركب القطار قاصدا مدينة أخرى لبعض الشؤون. ولم يكن في مركبة الدرجة الأولى التي دخل إليها إلا رجل واحد تدل هيئته على أنه في الخامسة والخمسين من العمر. فحياه النحاس، وجلس تجاهه. ثم أخذ لفافة فأشعلها وراح ينفخ الدخان من فيه وهو ينظر تارة إلى الرجل وطورا إلى المحطة التي كان القطار يبعد عنها شيئا فشيئا.

ثم عاد فالتفت إلى جليسه وقال: اعتاد المرحوم والدي أن يستلقي على ظهره كل يوم بعد طعام الظهر، فتأتي احدى جواريه فتحك له قدميه. وقد اقتبست أنا هذه العادة عنه ولكني لا أحك قدمي بل لساني ودماغي ... ولما كانت المسافة أمامنا طويلة، وقد امتلأت معدتي كما امتلأت معدتك من الطعام على أنواعه، وربما شربت شيئا من الخمور المعتقة كما فعلت أنا، فأرجو أن لا يكون جهل كل منا للأخر حائلا دون خوض عباب الحديث، فأحملك وتحملني، ونقطع هذه المسافة بلا سآمة وبلا ضجر. فهل من جهتك ما يمنع ذلك؟

فابتسم الرجل وقال: وهذا لسان حالي لأن في الحديث تفكه للألباب وتسلية للخواطر.

قال: ولا أكتمك أن للطعام الجيد أفضل منبه لدماغي ولساني، وأحسن تأثير في مخيلتي. فإذا رأيت شيئا أو حركة أو سمعت صوتا أو نغما فلا تلبث أفكاري أن تطوف به تدرس دقائقه وتستجلي حقائقه وتعلق

عليه ما شاءت المخيلة ... وقد رأيت الآن، كما رأيت أنت، فتيين من فتيان العصر وقد بادر أحدهما إلى الآخر يهنئه بالشهرة التي أصابها وبالنجاح الذي أدركه، ولا شك أنهما من رجال التمثيل أو من الأدباء المبتدئين .. غير أن النكتة ليست هنا، ولا هذا الذي شغلني من أمرهما، وإنما الذي همني وكان موضوع تأملي هو هذه الشهرة التي يسعى وراءها البشر بكل ما أوتوا من العزم والقوة، ويبذلون في سبيلها الأرواح والمهج، وأنت لو سألت كلا منهم أن يعطيك تعريفا للشهرة كما يفهمها هو لسمعت تعريفات وحدودا كثيرة متباينة كل التباين، وقد تضحك من كلامهم وهذرهم ضحكا عاليا. ويحضرني الآن ما قاله في تعريف الشهرة أحد أدبائنا الكبار، فقد قال: «ما الشهرة إلا رقعة زاهية في ثوب عتيق»، وقال غيره غير ذلك من التعريفات التي لا ينطبق شيء منها على الحقيقة.

قال: ولكن ماذا يهمك أنت من كل هذا؟

قال: إن ذلك يهمني ويهمك ويهم كل إنسان، لأننا متى عرفنا ما هي الشهرة، اجتهدنا أن نبحث عن السبل التي تؤدي إليها. وقد كنت من طلاب هذه الشهرة فيما مضى من حياتي، يوم كنت في شرخ الشباب وقد شغفت بها وكنت لا أعمل شيئا إلا لأجلها، ولم أتعلم إلا رغبة فيها، وطالما أحييت الليالي سهرا وحرمت نفسي الأكل والراحة في سبيلها. وكانت الأسباب متوافرة لدي ولكني لم أنل ما كنت أصبو إليه .. ولا أكتمك أني مهندس، وقد بنيت عشرات من البيوت الجميلة، وعشرات من الجسور المشهورة في هذه البلاد وفي غيرها، وكتبت عدة

مقـالات وكتـب صغـيرة في الهندسـة، وكنـت ميـالا إلى الكيميـاء ولي فيهـا بعـض اكتشـافات جديـرة بالاهتـمام، ودخلـت في خدمـة الحكومـة وأصبـت حظـوى في عيـون كبـار الحـكام ونلـت الأوسـمة والرتـب، إلى أن طعنـت في السـن وأصبحـت أيامـي الباقيـة معـدودة، والشـهرة التـي كنـت أجـد في أثرهـا لم أصـب منهـا إلا قـدر مـا أصابـه ذلـك الكلـب الأسـود الـذي نـراه مـن هـذه النافـذة يجـري أمامنـا بجانـب الطريـق.

قال: ولكن كيف عرفت أنك لم تنل شـهرة بكل ذلك؟

قـال: لا أسـهل مـن امتحـان الأمـر .. فهـل عرفـت رجـلا يدعـى شـمس الديـن النحـاس؟

فأطرق الرجل هنيهة ثم قال: لا، لم أسـمع بهذا الاسـم.

قـال: هـو اسـمي .. إنـك يـا سـيدي مـن أهـل الطبقـة الراقيـة مـن الأمـة، وقـد خـط الشـيب رأسـك، ومـع ذلـك لم تسـمع باسـمي. فالظاهـر أني في سـعيي وراء الشـهرة لم أسـلك السـبل الحقيقيـة التـي تـؤدي إليهـا.

قال: وما هي هذه السـبل في نظرك الآن؟

قـال: لا أدري واللـه مـا أقـول .. وقـد يخطـر في بالـك أنهـا الموهبـة، والعقـل، والـذكاء، والبراعـة، واغتنـام الفـرص، واللطـف في المعـاشرة، وذلاقـة اللسـان، وحسـن الهنـدام، وارتيـاد أماكـن اللهـو، والنـزول في أفخـم الفنـادق .. لا هـذا ولا ذاك، ولا شيء مـن كل ذلـك .. وقـد اشـتغل معـي كثـيرون مـن الرصفـاء ولم يكونـوا ذوي حنكـة وذكاء وعلـم .. اشـتغلوا قليـلا وسـاروا

بطيئـا ولم يطلبـوا شـيئا مـن الشـهرة ولم يمتـازوا بـشيء مـن المواهـب.

ولكنـي لم ألبـث أن رأيتهـم قـد أدركـوا شـأوا بعيـدا مـن الشـهرة، وبلـغ بعضهـم قمـة المجـد، ونـشرت الصحـف أسـماءهم ورسـومهم وتراجمهـم، وعـزت إليهـم الأعـمال المجيـدة، ولقبتهـم بالألقـاب الضخمـة، وأصبحـوا موضـوع الحديـث والاعجـاب في المجالـس والأنديـة.

واسـمع أحدثـك عـلى سـبيل المثـال بـشيء جـرى لي فعـلا. فقـد بنيـت مـن بضـع سـنوات جـسرا كبـيرا في المدينـة التـي تـراني مسـافرا إليهـا الآن، وقـد تـولاني في أثنـاء العمـل ضجـر شـديد كـدت أفقـد معـه عقـلي لـولا النسـاء وورق اللعـب، إلى أن تعرفـت أخـيرا بغانيـة كانـت مغنيـة في بعـض المسـارح وليـس لهـا مـن المواهـب إلا رخامـة الصـوت والتفنـن في الرقـص المبتـذل، وكانـت جاهلـة حمقـاء شـديدة الطمـع إلى مـا لا حـد لـه، فكانـت تـأكل كأربعـة وتـشرب كسـتة وتنـام النهـار كلـه، ولكـن النـاس قـد أحبوهـا لجـمال وجههـا وعذوبـة غنائهـا وأثوابهـا القصـيرة الشـفافة وحـركات يديهـا ورجليهـا في الرقـص، وهـي في تلـك الأثـواب .. وقـد دعاهـا النـاس ممثلـة، ونعتوهـا بالأديبـة ونسـبوا إليهـا الفـن، وهـي ليسـت عـلى شيء مـن كل هـذا. تعرفـت بهـذه الغانيـة، ثـم توثقـت العلاقـة بينـي وبينهـا إلى أن أصبحـت رفيقتـي وخليلتـي وهـي لا تـزال تذهـب كل مسـاء إلى المـسرح للرقـص والغنـاء .. ولمـا فرغـت مـن بنـاء الجـسر أعلنـت الحكومـة عزمهـا عـلى الاحتفـال بـه، وأقامـت لذلـك حفلـة شـائقة دعـت إليهـا عظـماء البـلاد وأعيانهـا، فتليـت الخطـب وأنشـدت القصائـد وتبودلـت رسـائل التهنئـة بالـبرق، وكنـت أنـا واقفـا بـين الجمهـور مطرقـا خجـلا واسـتحياء، لأني ظننـت أن النـاس كلهـم

ينظرون إلي ويشيرون بأيديهم ويذكرون اسمي بالإطراء والتعظيم .. غير أن الأمر لم يكن كما توهمت، ولم يكن يعرفني في تلك الحفلة إلا بعض رجال الحكومة، فلم ينتبه إلي أحد من الحضور، بل كانوا كلهم ينظرون إلى الجسر ويعجبون بجماله ومتانته دون أن يخطر ببال أحد منهم أن يعرف اسم المهندس الذي شاده أو يبحث عنه بين ذلك الجمهور. وكان الحنق قد أخذ مني كل مأخذ ولكني كظمت الغيظ ولبثت في مكاني وقد كرهت الفن، وأبغضت الناس، ووددت لو أتيح لي أن أهجر المدن وأقضي بقية حياتي في القفار. وبينا أنا لاه بمثل ذلك شعرت بحركة في الجمهور، فنظرت وإذا جميع الواقفين قد تحولت أبصارهم إلى جهة واحدة والسرور يهزهم هزا، فنظرت أنا أيضا فرأيت رفيقتي المغنية جاءت تخترق الجماهير وفي أثرها شرذمة من الفتيان المولعين بها، وما كنت تسمع وقتئذٍ إلا اسمها على الأفواه وإلا الثناء عليها من كل فج، وقد سمعت بأذني رجلا يهمس في أذن رفيق له كان إلى جانبه وقد أشار إلي «يقولون أن هذا الرجل هو رفيقها، وأنه ينفق عليها بلا حساب». ثم دنا مني رجل آخر وقال «هل تدري من هذه الحسناء؟ إنها شمس المسارح وجمال الفن». فقلت له: وأنت هل تدري من بنى هذا الجسر»، فهز كتفيه وقال: «لا أدري ولعله أحد المهندسين». قلت: «ومن بنى في مدينتكم مستشفاها المشهور، ومدرستها العالية، ومعبدها الفخم؟». قال: «لا أدري». قلت: «وهل تعرف أفضل الأساتذة والمهذبين .. وأشهر العلماء والكتاب؟». قال: «لا أدري». قلت: «وهل تعرف اسم الرجل الذي تعيش معه هذه المغنية؟». قال: «سمعت أنها تعيش مع رجل يقال له شمس الدين النحاس ..».

فلما سمعت هذا أصابني شبه نوبة عصبية، فارتجفت شديدا واكفهر لوني، وما لبثت أن تركت الحفلة وأربابها وعدت إلى منزلي وأنا في هم وغم. ولما ثاب إلي روعي أخذت أعلل نفسي بأن هذه الحادثة لن تمر من غير أن يذكر اسمي بالإطراء والثناء، فأنال الشهرة التي أستحقها، وأصبح من رجال الوطن المعدودين.

ولما كان صباح اليوم التالي خرجت إلى السوق فابتعت نسخة من كل جريدة من جرائد أمس، وعدت إلى منزلي وأخذت أتصفح تلك الجرائد واحدة واحدة، فرأيت في أكثرها وصفا للحفلة وذكر أسماء طائفة كبيرة من الحكام والعظماء الذين شهدوها، وذكر المعنية الحسناء التي حضرت فجأة فكسفت شمس النهار بضيائها، وسبت العقول بجمال طلعتها وسنائها .. وكانت مرتدية .. ألخ، ألخ».

نشرت الجرائد ذلك كله وطوت كشحا عن ذكري، ولم تهتم بمعرفة الرجل الذي بنى ذلك الجسر، وهو أعجوبة الزمان وغاية الفن. ملأت هذه الجرائد عمودا وعمودين من أعمدتها بما لا فائدة منه، ولم تجر لعملي - وهو موضوع تلك الحفلة - ذكرا .. نعم يا سيدي هذه هي حالة جرائدنا أيضا تهتم بالتافه من الأخبار وتكتم الحقائق أو لا تعنى بها، وذلك فضلا عن اختلاق الأخبار المكذوبة وتمويه الحقائق وتبديل صور الواقع، وغير ذلك مما لا يسعني بيانه.

وقد قلت في نفسي: لا بأس، فأمامي وسيلة أخرى للشهرة لا بد أن يكون فيها النجاح، وذلك أن المجلس البلدي في العاصمة قد طلب من

المهندسين رسوما لبناء كبير كان المجلس عازما على تشييده، ووعد أن يكافئ المجيد منهم أحسن مكافأة، وقد أرسلت أنا برسم لهذا البناء، كما أرسل غيري، وكنت واثقا بأن المجلس سيحكم لي بالجائزة فأنال الشهرة التي أنشدها. ولما حل موعد النظر في هذه الرسوم ركبت القطار وسافرت إلى العاصمة ومعي المغنية «الشهيرة» ولم يكن لنا من عمل في الطريق إلا الأكل وشرب الشمبانيا، إلى أن بلغنا العاصمة، فنزلنا في أحسن فنادقها.

وفي اليوم التالي اجتمع المجلس البلدي وحكم للرسم الذي قدمته بالجائزة الأولى كما كنت أتوقع، فطرت فرحا وأخذت انتظر بفارغ الصبر صدور الجرائد في اليوم التالي لأقرأ الخبر، وكنت لا أشك في الانتصار وإدراك أسمي مراتب الفخر والشهرة.

وأخذت الجرائد في اليوم التالي وخلوت بها في غرفتي في الفندق، وشرعت في مطالعتها شيئا فشيئا، فقرأت في الأولى منها: «وصلت إلى العاصمة أمس بقطار المساء الممثلة الشهيرة (وذكرت اسمها) فنرحب بها ونتمنى أن تقضي عندنا في العاصمة مدة طويلة ليتمكن الجمهور من اغتنام أحسن الفرص لحضور أرقى مشاهد التمثيل وسماع أطرب أنغام الغناء ..»، وقرأت في الثانية والثالثة والرابعة ما يشبه ذلك، غير أن هذه استرسلت في وصف جمال الممثلة الفتان والفن الذي أدركته بمواهبها وذكائها. ولم أر اسمي إلا في جريدة واحدة في هذا الخبر المقتضب: حكم المجلس البلدي بالجائزة الأولى(لفلان) .. ولكنها بدلا من أن تكتب «شمس الدين النحاس» كتبت «قمر الدين النقاش».

فرغت من مطالعة تلك الجريدة وأنا كشبح بلا روح .. ولكني نهضت في الحال إلى زجاجة الشمبانيا وكانت أمامي على المائدة فوضعتها على فمي واحتسيتها كلها، ثم أسرعت فاستلقيت على سريري ونمت نوما ثقيلا.

ولما عدنا من العاصمة كتبت الجرائد فصولا كثيرة في سفر الممثلة .. وأسفت كل الأسف لفراقها، وتمنت لها سفرا سعيدا وعيشا رغيدا وعمرا طويلا مديدا ليظل «الفن» بوجودها في تقدم مستمر ونجاح مطرد.

ودعيت بعد شهر من عودتنا من العاصمة إلى احدى المدن الكبرى في البلاد للنظر في بعض متاحفها، وقد قمت بعملي أحسن قيام، وألقيت عدة خطب في الموضوع، وكانت الجرائد هناك تكتب على عادتها أخبار الزواج والوفيات والولادة والحرائق والغناء، وتذكر اسم كل مطرب ودجال ومشعوذ ولص وسفاك وراقصة ومفلس وسكير، ولم تذكر شيئا عني وعن خطبي واصلاحي للمتاحف. وركبت مرة الترام وكانت المركبة مزدحمة بالركاب بين رجال ونساء وطلاب علم وتجار، فقلت لرجل منهم كان إلى جانبي، بصوت سمعه كثيرون غيره: سمعت بأن المجلس البلدي هنا استدعى مهندسا لإصلاح بعض المتاحف فهل عرفت اسمه؟ فقال: لا. وقرأت مثل ذلك على وجوه الباقين. قلت: وقد سمعت أنه هذا المهندس يلقي كل يوم خطبا مفيدة جدا في بعض المتاحف!، فهز الجميع أكتافهم ولم يحيروا جوابا.

فأخلدت أنا أيضا إلى السكوت، وإذا بالرجل الذي كان إلى جانبي يدفعني بيده ويقول: انظر إلى ذلك الرجل الذي استوقف تلك المركبة يريد أن يركبها، فهل تعرفه؟، قلت: لا. قال: كيف لا؟، وهو أبو القاسم المصارع المشهور! .. وما قال هذا حتى تطالت الأعناق وشخصت الأبصار لترى كلها المصارع، وما عدت تسمع في الترام إلا حديث المصارعين.

ولولا خوفي أن تستولي عليك السآمة لسردت لك أمثلة كثيرة من هذا النوع، وكلها تؤيد جهل الأمة بالشهرة الحقيقية وأربابها، وانصرافها إلى استسمان كل ذي ورم. فكم من مشاهير العلم والأدب والفنون على أنواعها يعيشون ويموتون ولا يعرف أحد عنهم شيئا، بينما نرى بعض صغار الأحلام إذا كتب أحدهم شيئا، ولو تافها، أو قام بعمل ولو صغيرا ضئيلا، قامت قيامة الجرائد تقرظه وتكيل له المديح والثناء بلا حساب.

وبينما كان السيد شمس الدين النحاس يتكلم، وقف القطار في احدى المحطات وخرج الناس يتراكضون من المركبات ووقف جمهور كبير منهم في النوافذ وقد شخصت الأبصار إلى رجل كان واقفا في المحطة والخفراء من حوله. فسأل شمس الدين عنه رجلا كان بقربه فقال: ألا تعرف أبا الفرج المارديني، اللص الشهير، الذي سرق منذ بضعة أسابيع مصرف العاصمة؟، فهذا هو .. .

فهز شمس الدين كتفيه وعاد إلى جليسه فقال: إنهم يعرفون أسماء جميع اللصوص والقتلة والمغنيات والراقصات .. ولكن هل يعرفون

أسماء نوابغ الأمة وعلماءها وأدباءها؟؟، هذا هو الجهل المطبق يا سيدي، ولا حيلة لنا إلى دفعه.

فابتسم الرجل وقال: لقد سمعت كل حديثك بتمام الإصغاء واللذة. فاسمح لي أن أسألك الآن، هل سمعت أنت باسم علي ابن العباس؟

قال: لا.

قال: هو اسمي، وقد أقمت خمسا وثلاثين سنة أستاذا للعلوم الطبيعية في أعلى جامعات بلادنا، وعضوا في بعض المجامع العلمية في البلاد الأخرى.

فعض شمس الدين شفتيه وتململ، ثم أطرق هنيهة وعاد فنظر إلى جليسه، ونظر هذا إليه. ثم أخذا يضحكان ويقهقهان.

اللِّص

روى أحدهم عن نفسه الحديث التالي. قال: كنت منذ ثلاث سنوات مديرا لمالية احدى الإدارات العامة. ولم يكن لي من العمر أكثر من خمس وعشرين سنة. وكان لي منزل صغير أقيم فيه وحدي. وكان من واجباتي أن أطوف من وقت إلى آخر في القرى المجاورة للمحاسبة. فكنت أعود منها ولدي مقادير غير قليلة من المال أبقيها في منزلي إلى الصباح.

وكنت في أول عهدي بهذا المنصب كثير الحذر كثير القلق، أخشى أن يدهمني طارق فيسلبني ما لدي، فلا أصدق أن يبدو الصباح حتى أبادر إلى محل الإدارة بما أكون قد جمعته.

غير أن ذلك القلق لم يلبث مع الأيام أن أصبح بلا معنى، فعدت لا أحاذر شيئا ولا أخشى عاقبة، وصار المال يبقى في منزلي يوما ويومين وأحيانا أكثر من ذلك دون أن أحسب حسابا لأحد.

وبلغت مني الجرأة أني صرت أغادر المنزل في كثير من الليالي لقضاء السهرات وحضور المآدب في بيوت بعض الأسر ولا أعود منها قبل منتصف الليل فأدخل منزلي خلي البال غير مكترث لشيء.

ولم يكن لدي من وسائل الدفاع إلا مسدس صغير ولم يكن في أول الأمر يفارقني دقيقة، فكنت أحمله وأنا خارج المنزل في جيبي، وأضعه على مائدة صغيرة بإزاء سريري عندما أعود غير أني لم ألبث بعد مدة أن

هجرت المسدس أيضا وعدت لا أبالي بوجوده، وكان يبقى على المائدة أياما ولا أعبأ به.

وحدث أني بصرت في احدى المآدب بحسناء يقال لها حواء، سلبت رشدي وكانت ذات بعل، ولكنها كانت من نساء العصر اللاتي يحببن المخالطة والظهور، مسوقة إليه على الخصوص بجمالها الرائع وحسنها الفتان.

وشعرت حواء بميلي اليها ثم بحبي لها وافتتاني بها، فكانت تظهر لي عطفها ولا تبخل علي ببضع دقائق أجلس فيها إلى جانبها أطارحها الحديث وأمتع النفس بكلماتها الساحرة.

واتصل بي الأمر أن صرت أزورها في منزلها، وأحضر أكثر المآدب ولياليالطرب التي كانت تحييها لمعارفها.

واتفق أن عدت في احدى الليالي إلى منزلي متأخرا بعد أن قضيت النهار بطوله في احدى القرى، وكنت أحمل مقدارا كبيرا من المال، فما بلغت منزلي حتى طرحت المال جانبا على سريري وأنا في أشد حالات التعب والاعياء، وكدت أطبق عيني وأستسلم لسلطان الكرى، ولكن بدت لمخيلتي صورة حواء، فتنبه فكري وأمعنت في عالم الخيال.

وأدركت أنني لم أقفل باب غرفتي حينما دخلت فلم أعبأ بذلك، لأني لم أشأ أن غير مجرى أفكاري.

ومضت الساعات علي وأنا في تلك الحالة، وكانت الغرفة مظلمة لأني

لم أوقد مصباحا، لذا لم تكن لي حاجة إليه، وكنت أوثر الظلمة لأنها أدعى إلى التأمل والخيال.

وبينا أنا كذلك إذ فتح الباب قليلا، وانسل منه إلى الغرفة شبح لم أتبينه لشدة الظلام، فمددت يدي إلى المسدس وكان لا يزال في مكانه بإزاء سريري، فتناولته وجمدت في مكاني انتظر ما سيكون.

والظاهرة أن الشبح لم يشك في خلو الغرفة، فأخذ من جيبه فانوسا وأشعله، فانبعث منه نور ضئيل أبصرت عليه رجلا ضخم الجثة هرم الهيئة، فصوبت المسدس إلى صدره وقلت بثبات جأش: مكانك أيها الرجل! وإياك أن تخالف أمري أو تحاول الفرار، ولم يكن الرجل يتوقع مثل هذه المفاجأة، فوقف في مكانه مذعورا وهو ينظر الى المسدس ولا يدري ماذا يفعل؟

وكان بإزائي مائدة صغيرة عليها شمعتان، فأشعلتهما حالا بإحدى يدي وأنا مسدد المسدس باليد الأخرى إلى صدره، وما كدت أتفرس في جهة بعد أن انتشر النور في الغرفة حتى عرفته. لم يكن هذا الرجل إلا متسولا معروفا في المدينة باسم النعسان، وقد عرفته منذ حين كنت أرثي لحاله وأرتاح إلى مساعدته، وقد أهرمته الحوادث فحنت ظهره وأشعلت رأسه شيبا وكادت تذهب بصره.

وكنت أنا قد استويت في سريري وعدت إلى سكينتي، فقلت للرجل: لم أكن أتوقع أن أراك تتعاطى هذه المهنة يا عماه!، فهل قل موردك من التسول حتى آثرت استبدال اللصوصية به، وأنت في هذه السن

مـن الحيـاة؟

فزفـر النعسـان زفـرة حـارة ونظـر إلى مـا حولـه فـرأى كرسـيا فجلـس عليـه، وقـال وهـو غـير مبـالٍ بالمسـدس الـذي كان لا يـزال مصوبـا إلى صـدره: وأي غرابـة في ذلـك؟ فقـد سـئمت التسـول، وليـس في اسـتطاعتي أن أشـتغل لأواصـل هـذه الحيـاة التعسـة إلى النهايـة، وليـس لي مـن يعولنـي.

قلـت: أفـلا تخـشى أن أنبـئ رجـال الشرطـة بأمـرك ليسـوقوك إلى حيـث ينالـك العقـاب عـلى هـذه الجريمـة؟

فهـز رأسـه وقـال: أنـا لا أخـشى منـك ذلـك ولـو قبضـت عـلي وأنـا متلبـس بهـذه الجريمـة .. أنـت تدعـو عمـلي جريمـة، وهـو كذلـك في نظـر القانـون والعـادة، ولكنـك لـو نظـرت إليـه بعـين الحقيقـة، وقابلتـه بغـيره مـن أعـمال الخلـق لمـا دعوتـه كذلـك. سـهل أن تدعـوني سـارقا وتدعـو عمـلي لصوصيـة، ولكـن باللـه قـل لي مـن النـاس في هـذا العـصر لا يـسرق ولا يتعاطـى اللصوصيـة؟ أأنـت وقـد أحببـت زوجـة قريبـك؟ أم التاجـر الـذي يغـش في تجارتـه وسـلعه ويخـادع عمـلاءه؟ أم الحاكـم الـذي يتظاهـر بصيانـة العـدل وهـو يختلـس ثقـة الرعيـة وينتهـز كل فرصـة للإيقـاع بهـا؟ أم القائـد الـذي يـسرق أبنـاء النـاس ليـزج بهـم في أتـون الحـرب المضطـرم بدعـوى الـذود عـن حيـاض الوطـن أو الجهـاد في سـبيل الأمـة، وأمثـال ذلـك مـن الـكلام المـزوق الـذي لا يـراد بـه في الحقيقـة إلا خـداع الأمـة والتمويـه عليهـا؟ إن العـالم أيهـا الصديـق طافـح باللصوصيـة، ولكـن البراعـة هـي أن يكـون الانسـان لصـا ماهـرا لا يشـعر بـه أحـد .. إني مطلـع عـلى سرك وأعلـم

أنـك تحـب السـيدة حـواء ولكنهـا تحـب غـيرك، وزوجهـا يحـب سـواها، فأنـت لـص، وهـي لصـة، وزوجهـا لـص أيضـا، وأمثالكـم جماهـير لا تحـصى مـن الخلائـق، هـذا في حلقـة الحـب فقـط. فانظـر الآن إلى كل حلقـة مـن حلقـات الحيـاة وفي كل مظهـر مـن مظاهرهـا.

سـمعت هـذا الـكلام فبهـت ووضعـت المسـدس عـلى المائـدة في مكانـه، وكان النعسـان يراقـب تحـركاتي فضحـك وقـال: أراك قـد ركنـت إلي وعـدت لا تخـشى بأسـا مـن جهتـي، لأني أظهـرت لـك الحقيقـة ولم تكـن تنتظـر أن يقولهـا مثـلي وأنـا في هـذه الاطـمار الباليـة. ولعلـك تظـن أني مـن زمـرة المتسـولين الذيـن قضـوا دهرهـم في هـذه المهنـة! لا، لم أكـن متسـولا، وإنمـا اضطـررت إلى ذلـك اضطـرارا في هـذه الأيـام السـود. فقـد كنـت في أحـد المعامـل أحصـل قـوتي بكـد يمينـي، وكان لي زوجـة وابنـان شـابان وابنـة صبيـة، فلـما شـهرت الدولـة الحـرب وجـاء جـمال باشـا عـلى رأس الجيـش أخـذ ولـدي فأرسـل أحدهـما إلى الترعـة في جملـة الجيـش، وعـين الآخـر في فرقـة السـواق، ثـم عـين البنـت ممرضـة في أحـد المستشـفيات، ووعـدني، كـما وعـد غـيري مـن الآبـاء العاجزيـن بمرتـب شـهري أتقاضـاه مـا دام أولادي في الخدمـة. غـير أن ذلـك لم يكـن إلا وعـدا، أو أمـرا لم يكـن مـن سـبيل إلى تحقيقـه، لأني لم آخـذ شـيئا، وقـد بعـت كل مـا في منـزلي مـن الحطـام، حتـى خشـب الأبـواب والنوافـذ بعتـه واسـتعنت بثمنـه عـلى معيشـتي وأنـا أنتظـر الفـرج، وقـد طـال انتظـاري وفـرغ صـبري ولم يبـق مـا أقتـات بـه. وكانـت زوجتـي قـد مرضـت وليـس في يـدي مـا أعالجهـا بـه وأدفـع عنهـا المكـروه، فقضـت نحبهـا بعـد أيـام مـن مرضهـا وهـي تتحـرق حزنـا عـلى أولادهـا،

ويا ليتني مت معها لأنجو مما وقعت فيه. فقد صرع كبير أولادي في حومة الوغى في معارك غزة، وتبعه الثاني فمات بعد أيام قليلة من شدة ما عاناه من الحر والبرد والمشاق الكثيرة وهو يسوق الجمال في الصحراء، وماتت البنت من العدوى بالتيفوس في المستشفى، وبقيت وحدي في هذه الدنيا أقارع الخطوب وأندب الأحبة. وطفقت أجول من مكان إلى آخر أقرع الأبواب وأتسول، ونفسي مرة وقلبي متصدع. فسولت لي نفسي أن ألج منزلك لعلي أظفر فيه بشيء يساعدني على قضاء الأيام الباقية من حياتي، ولو نجحت في عملي لما عددت ذلك اختلاسا لمالك الخاص بل لمال الدولة، وهو كما تعلم مال الأمة التي أنا أحد أبنائها والتي جدت عليها بأولادي الثلاثة وهم سبب حياتي وأعضادي في هذه الدنيا.

وكان لكلام النعسان أعظم تأثير في نفسي، فكنت أصغي إليه وأنا أود أن لا يفرغ، وقد نسيت أنه دخل علي بتلك الحالة وفي هذا الهزيع من الليل، فنهضت وأخرجت من جيبي قبضة من المال ناولته إياها وقلت له: استعن بها على معيشتك وعد إلي في كل وقت تحرجك فيه الحالة تجدني مستعدا لإغاثتك.

فشكرني وخرج، وعدت بعد خروجه إلى عالم التأمل والخيال، وقد غابت من مخيلتي صورة حواء، وتجلت مكانها صورة أخرى، صورة المصائب الفادحة التي نزلت بالبلاد والعباد بسبب هذه الحرب الشعواء التي أضرمت الدول نارها فكانت لها أكلا .

القناع

كانت الساعة السادسة صباحا، وكان راعول لا يزال مستغرقا في النوم، لأنه لم يرقد هذه الليلة إلا الساعة الثانية عشرة. فقد دعي إلى مأدبة أعدها بعض أصدقائه، فلم يعد إلى منزله إلا في منتصف الليل.

وكانت زوجته «سوسنة» قد أفاقت باكرا، فنهضت من سريرها وعمدت إلى ثياب زوجها تبحث في جيوبه، وكان هذا البحث من أحب الأمور إليها، فكانت كلما انتهزت فرصة اشتغال زوجها أو نومه تأخذ في التحري والتفتيش في جيوبه بما لا مزيد عليه من المهارة والحذر. وقد تمكنت منها هذه العادة حتى أصبحت شغلها الشاغل وموضوع تسليتها وسرورها. ولم يكن راعول يضع شيئا في جيوبه من الرسائل أو الأوراق إلا وتقرأه سوسنة وتطلع على كل علاقة لزوجها بمراسليه.

وبينا كانت تبحث وتفتش هذه المرة وهي تقلب الجيوب، أخرجت من جيب المعطف قناعا طويلا من الحرير الأسود، فوقفت مبهوتة، وقد ارتاعت وتصبب العرق من جبينها.

وكان زوجها قد تنبه من نومه، فرأى زوجته واقفة أمام ثيابه والاضطراب آخذ منها كل مأخذ، وكان القناع لا يزال في يدها وهي تتأمل فيه وتهز رأسها، فقال: ماذا تفعلين؟ وما هذا الذي في يدك؟

فنظرت سوسنة إليه وقالت وأعصابها ترتعش غضبا: هذا قناع عثرت عليه في جيوبك ... وهو بلا شك لعشيقة لك لم أدر بها حتى الآن.

ففـرك راعـول عينيـه وقـال وهـو يتثـاءب: أنـت واهمـة يـا سـيدتي، فـلا قنـاع في جيـوبي ولا عشـيقة لي.

قالـت: ولكنـي وجدتـه في جيوبـك كـما تـرى، فـلا سـبيل لـك إلى الانـكار، وهـو، كـما يجـب أن يكـون، لغانيـة تهـواك وتهواهـا .. فهـل يليـق بـك مثـل ذلـك وأنـت في هـذه السـن؟

فضحـك راعـول وقـال: لكـن ليـس لي مـن العمـر أكـثر مـن خمـس وأربعـين سـنة وثلاثـة أشـهر ... .

قالـت: فأنـت إذا تظـن أنـك لا تـزال في شرخ الشـباب .. ولعلـك نسـيت أن لـك زوجـة أمينـة أقسـمت لهـا عـلى الأمانـة كـما أقسـمت هـي لـك، فهـل مـن الأمانـة أن تخونهـا إلى هـذا الحـد وتكافيهـا عـلى حبهـا واخلاصهـا بمثـل هـذا الغـدر الشـنيع؟

قال: ولكني لم أفقه شـيئا مما تقولين إذ لا علاقة لي بسـواك.

قالـت: وهـذا القنـاع؟ فهـل تنكـر وجـوده في جيوبـك؟ أم تظـن أني أنـا دسسـته لأحمـل عليـك هـذه الحملـة العنيفـة؟

قـال: لا، فمعاذ اللـه أن أعزو إليك ما أنت بريئة منه.

قالـت: وهـو ليـس لي، لأني لم أره إلا الآن ولم أسـتعمل مثلـه في حيـاتي، فأنـا إن خرجـت مـن منـزلي أخـرج سـافرة الوجـه غـير متخفيـة ولا متسـترة .. فهـو إذا لغـيري مـن النسـاء المتهتـكات الـلاتي تكلفـون بحبهـن أنتـم معـشر الرجـال وتدوسـون لأجلهـن كل حقـوق الزوجيـة المقدسـة.

قال: مهلا يا سوسنة، فأين وجدت هذا القناع؟

قالت: هنا .. في جيب معطفك أيها الظالم؟

قال: ولكن انظري جيدا، فهل هذا المعطف لي؟

فانتبهت سوسنة كمن حلم ونظرت إلى المعطف قليلا ثم قالت: حقا إن المعطف ليس لك .. فأين معطفك إذا، ولمن هذا؟

قال: أظنه لصديقي فيليب .. وقد كنت وإياه الليلة الفائتة في المأدبة، فالظاهر أن كلا منا قد أخذ معطف رفيقه ونحن خارجان منها دون أن ينتبه.

قالت: فهو إذا لصديقك فيليب الذي يزورنا من وقت إلى آخر وندعوه أحيانا إلى الطعام؟

قال: هو بعينه.

قالت: إذا كان الأمر كما تقول ففيليب إذا من أولئك الرجال الذين يهيمون في كل واد ولا يزعهم شيء عن اتباع أهوائهم.

قال: ما لنا وله، فهو عزب وغير مرتبط بزوجة أو أهل.

وكانت سوسنة واقفة تسمع والشرر يتطاير من عينيها. وكان القناع لا يزال في يدها فمزقته إربا إربا وهي لا تدري ماذا تفعل أو تقول؟

فقال لها راعول: ماذا تفعلين؟ إن هذا القناع ليس لنا، وسيأتي صاحبه

اليـوم في طلبـه.

فقالـت وهـي تـزداد حنقـا وغيظـا: ليـأت متـى شـاء، فقـد فعلـت مـا يجـب أن أفعـل لتعليمـه وتأديبـه واظهـار ازدرائي لـه.

ثـم خرجـت مـن الغرفـة وهـي تقـول في نفسـها: سـيأتي فيليـب اليـوم إلى هنـا فأنتقـم منـه شر انتقـام.

وبقـي راعـول وحـده متأمـلا، وقـد أكـبر عمـل زوجتـه، وأثنـى عـلى غيرتهـا عليـه واخلاصهـا لـه.

***

ومـا كاد راعـول يخـرج إلى شـغله في ذلـك النهـار حتـى جـاء فيليـب صاحـب المعطـف، سوسـنة تنتظـر قدومـه وصدرهـا ملتهـب بالنـار. ومـا رأتـه حتـى قطبـت وعبسـت ولم ترحـب بـه عـلى عادتهـا.

فقـال لهـا: مـا بالـك ايتهـا الحبيبـة؟ إني أراكِ كاسـفة البـال وقـد احمـرت عينـاك مـن شـدة البـكاء، فـما الـذي جـرى؟

قالت: لا تسـألني شـيئا .. لأني علمت كل شيء.

قـال: ومـا عـسى أن يكـون ذلـك؟ إني لا أفهـم شـيئا مـن هـذه المعميـات، فقـولي بربـك مـاذا جـرى؟

قالـت: لم يجـري شيء، ولكنـي أريـد أن أقطـع كل علاقـة لي بـك، فأخـرج مـن هنـا ولا تحـاول أن تـراني أو تجتمـع بي بعـد الآن.

قال: رحماكِ يا سوسنة .. فماذا فعلت حتى استحق منك مثل هذا؟

فأشارت سوسنة إلى معطفه، وكان معلقا، وقالت: لمن هذا؟

قال: هذا معطفي، وقد أخذه زوجك أمس خطأ كما أخذت أنا معطفه، وجئت الآن أرد إليه معطفه واسترد معطفي.

فنظرت سوسنة إليه شزرا، ثم أخذت قطع القناع وقالت: وهذا لمن؟

قال: هذا لك يا سيدتي .. وأنت صاحبته.

فبهتت سوسنة وقالت: أنا صاحبته؟ ومتى كان ذلك؟

قال: كان ذلك منذ خمس سنوات، وقد جئت لزيارتي في أحد الأيام وكنت مقنعة بهذا القناع اخفاء لنفسك عن الرقباء .. وقد نسيته عندي فبقي أثرا جميلا لك منذ ذلك الحين حتى الآن.

قالت: نعم، نعم .. وقد ذكرت ذلك الآن، فسامحني على سوء ظني بك أيها الحبيب.

قالت ذلك وقبلته ... وكانا من أسعد المحبين حالا ... .

وعاد راعول إلى منزله في المساء ومعه فيليب وكان قد دعاه للعشاء والسهرة. وقد قال له في أثناء الحديث: أنصح لك أن تنتبه مرة أخرى لجيوبك .. نعم إنك لا تزال عزبا .. ولكنك لا تعرف أيها الصديق شدة غيرة النساء ولا سيما المتزوجات منهن!!

مؤتمر الحيوانات

عقدت الحيوانات مرة مؤتمرا عاما تبحث فيه عن غاية حياتها على الأرض، وفي أي شيء تنحصر السعادة، فاحتشد إليه جميع المخلوقات غير العاقلة، من وحوش وطيور وأسماك وزحافات وهوام. فكان المؤتمر على هذه الصورة مؤلفا من كل ما يدب على الأرض، ويسبح في الماء، ويطير في الهواء، ولما استقر كل في مكانه، وسكنت الحركة، شرع في العمل، فانتخب الدب رئيسا للمؤتمر، والأوز كاتبا، والهر والكلب لحفظ النظام.

فقام الدب وأجال نظره في الحشد وقال بصوت جهوري: إن الغابة التي لأجلها اجتمعنا أيها الاخوان هي لكي نعرف ما هي غاية الحياة، وفي أي شيء تكون السعادة، فليبد كل منكم رأيه في هذا الأمر، وليكن الكلام محصورا في الموضوع، فلا يجوز لأحدٍ أن يتعداه، وليوجز كل واحد في مقالته بقدر الامكان لئلا يطول بنا الاجتماع على غير جدوى، فخير الكلام ما قل ودل. ولما سكت الدب، أطرقت الحيوانات غائصة في أفكارها وتأملاتها.

وبعد قليل قام الحمار ونهق قائلا: إن غاية الحياة هي التعب والصبر. فسأله الدب: وما هي السعادة؟ فأجاب: هي أن يعرف كل واحد عن نفسه أنه أكثر احتمالا من الجميع. فكتب الأوز رأي الحمار.

ثم قام الخنزير وقبع قائلا: غاية الحياة اللذة، والسعادة هي أن لا تعرف شيئا سوى اللذة.

وتلتـه الدجاجـة فقرقـت: غايـة الحيـاة التوليـد والتربيـة، والسـعادة هـي خيـلاء الأم بأولادهـا.

فقاطعهـا الـزرزور هازئـا: تبـا لهـذا الـرأي. أمـا الخيـلاء فهـي عيـب كبـير يـا سـيدتي، وعـار عليـك أن تجهـلي ذلـك، وأمـا التربيـة فهـي أيضـا مـن أوهامـك الخاصـة، لأنهـا لا تليـق بأهـل هـذا العـصر المتمـدن.

فابتـدره الببغـاء فقـال: وأنـت مالـك ولهـا أيهـا الأحمـق، فهـي قـد أفصحـت عـن رأيهـا، فلـماذا قمـت تناقضهـا، وتهـرف بمـا لا تعـرف؟

وكاد يحتـدم الجـدال بـين الـزرزور والببغـاء، إلا أن الـدب أمرهـما بالصمـت، فصمتـا.

ثـم نهـض الذئـب فقـال: إن غايـة الحيـاة هـي الحريـة، والسـعادة هـي أن لا تمـوت جوعـا.

وتـلاه القـرد فقـال: غايـة الحيـاة هـي الترقـي في الكـمال، والسـعادة صيانـة الحيـاة وعـدم التفريـط فيهـا لئـلا تنقـضي سـدى.

وعقبـه الجدجـد فقـال: غايـة الحيـاة الفنـون والصنائـع، إذ ليـس مـن الأعـمال مـا يفوقهـا، وأمـا السـعادة فهـي أن تتيقـن أن الصناعـة أبديـة وكل مـا سـواها فسـاد وقتـام. قـال هـذا وهـو يتيـه عجرفـة وتفاخـرا.

فتبسـم الـدب لكلامـه وقـال: هـو صغـير ولكنـه شـجاع. فحنـى الجدجـد رأسـه علامـة الشـكر.

ثم قالت الدودة: غاية الحياة التخريب، والسعادة هي أن تحيا لنفسك منقطعا عن العالم، ونحن جماعة الديدان قد خلق كل شيء لنا، كما هو مشهور عند الجميع.

وقالت الضفدعة: غاية الحياة التضحية بالنفس، والسعادة القيام بالدعوة، فيكون الواحد للجميع.

فابتدرها الصرصران بقوله: ما هذا الرأي السخيف؟، وأين اللذة في أن تكوني طعاما للغير؟، فقبحت من مختلة .. فأسكته الدب، وحرمه ابداء رأيه عقابا له على هذه القحة.

ولما استتب السكون قام الحصان فقال: الحياة بلا غاية، والسعادة وهم لأنها غير موجودة.

وتلته الذبابة فقالت: غاية الحياة محبة الجميع. فسألها الدب: وما هي السعادة؟ قالت: وكيف يمكنني أن أعرف السعادة وأنا لا أرى إلا الشقاء! فالجميع أشقياء وليس أحد سعيدا، ترى أحد الناس أسعد الخلائق حالا ولا يلبث أن يصير أشقاهم، فيسقط من حالق في أسرع من طرفة عين. فهز الدب رأسه وصمت.

وبعد ذلك قام الثعلب فقال: إن غاية الحياة الرأفة بالضعيف.

فضحك الجميع لأنهم يعرفون الثعلب وروغانه. أما هو فخجل وانزوى في مكانه ولم يرد أن يتم حديثه.

ثم قام كلب سلاقي فقال: غاية الحياة مساعدة الغير، والسعادة

الإذعـان والطاعـة والقيـام بـكل مـا يأمـر بـه السـيد.

فابتـدره الخفـاش قائـلا: بـشرط أن يكـون ذلـك مجـردا عـن الطمـع، خاليـا مـن تلـك الحساسـية التـي تسـعى إليهـا أنـت. فزجـره الـدب وأمـر بعقابـه.

ثـم قـال الشـحرور: غايـة الحيـاة إدّخـار المعـارف والسـعي في تحصيـل مـا لا يعرفـه الآخـرون، وأمـا السـعادة فهـي الحيـاة في الخفـاء هـذا هـو رأيـي وقـد عرضتـه بمـلء الحريـة.

وتلتـه البقيـة فقالـت: لا أحـد يقـدر أن يعـرف غايـة الحيـاة. فعـش وأكـثر وامـلأ الأرض بالطـول والعـرض، وكـن خـليَّ البـال غـير مهتـم لـشيء. وأمـا السـعادة فهـي أن تعمّـر طويـلا.

ثـم وقـف الـصرصر ولمـا فتـح فـاه للـكلام لم يقـدر أن ينطـق بـشيء. فقهقـه العنكبـوت سـاخرا بـه. فانتهـزه الـدب وأمـر بجلـده. وعـاد الـصرصر إلى مكانـه دون أن يبـدي رأيـا.

وتلتـه العلقـة فقالـت: غايـة الحيـاة أن تخفّـف آلام الغـير. وأمـا السـعادة فهـي أن تشـعر بأنـك تفيـد الآخريـن بمبرّاتـك ومآثـرك.

وعقبهـا الباشـق فقـال: كل نفـس فهـي للـه، وعـلى المـرء أن يقـضي حياتـه حسـب شرائـع اللـه ونواميسـه. وأمـا السـعادة فهـي أن يعمـل كل مـا هـو أهـل لـه.

فابتـدره الصقـر بقولـه: وهـل أنـت تعيـش للـه؟ فكـم فروجـا اختطفـت، وكـم عينـا فقـأت؟ فيـا لـك مـن قديـس كبـير! وأراد الصقـر متابعـة حديثـه

فزجره الدب وأمر بعقابه.

وعلى أثره قام السرطان فقال: غاية الحياة أن تفعل المحرمات ثم تتوب. وأما السعادة فهي في الخلاص والحياة الأبدية.

وتلاه الجرذ فقال: غاية الحياة أن تعدل في كل شيء، والسعادة أن لا يقلق راحتك أحد.

وعقيب ذلك وقف الدب فقال: أرى من الواجب أن أبين لكم يا معاشر المخلوقات أن العدل كغيره من الفضائل، لا يمكن أن يكون غاية للحياة، فعلى كل مخلوق أن يكون عادلا وشفيقا، يتوجع لمصائب الغير. أما إذا جرد العدل من الشفقة والحنو فقد بطلت فضيلته وفائدته. أقول ذلك لأن كثير منكم ذكروا العدل ولم يذكروا الشفقة معه.

وما كاد الدب يفرغ من كلامه حتى دخل القنفذ إلى ردهة المؤتمر، وقد كان منفذا من قبل الحيوانات إلى الأسد ليدعوه إلى الاجتماع. فحياه الجميع ثم تقدم إلى الدب وناوله كتابا من الأسد، فأخذه الدب وقرأ ما يأتي بصوت سمعه جميع الحضور: غاية الحياة السلطة، وأما السعادة فهي القوة والشجاعة والمجد.

فقال الوبر : حقا إن كلام الملوك ملوك الكلام.

فتبسم الدب. والتفت الحمار إلى القنفذ وسأله قائلا: وأين وجدت الأسد أيها القنفذ، ولماذا لم يشرفنا بحضوره؟ فأجاب: وجدته في قفص في احدى حدائق الحيوانات بعد أن طفت البراري والقفار وبحثت عنه

كثـيرا.

فتنهـد الـدب وقـال: سـنكون كلنـا في مثـل هـذه الاقفـاص .. ثـم التفـت إلى الحيوانـات وقـال: هـل بقـي منكـم مـن لم يـصرح برأيـه في موضـوع بحثنـا؟ أجابـوا: بقـي كثـيرون مثـل الجـرادة والخلـد وغيرهـما.

فسـأل الـدب الجـرادة عـن رأيهـا فأجابـت: غايـة الحيـاة هـي أن لا تبقـي ولا تـذر، وأمـا السـعادة فهـي أن لا يحفـل المـرء بـشيء مـن الهمـوم والأفـكار.

فضحـك الـدب وسـأل الخلـد عـن رأيـه فأجـاب: إن غايـة الحيـاة هـي البحـث عـن الحقيقـة. فدهـش الـدب لهـذا الجـواب وقـال: حسـنا قلـت، ولكـن كيـف تبحـث عـن الحقيقـة وأنـت أعمـى؟

قـال: ولكنـي كنـت مبـصرا، ومـا زلـت أبحـث عـن الحقيقـة حتـى عميـت، ومـع هـذا لم أنقطـع عـن سـعيي بـل تـراني أتطلـب الحقيقـة تلمسـا.

فسـأله الـدب: ومـا هـي السـعادة؟ أجـاب: هـي أن تعتقـد أنـك سـاع وراء الحقيقـة، وتعلـل نفسـك بالحصـول عليهـا يومـا مـا.

وبعـد أن كتبـوا رأي الخلـد، سـأل الـدب: مـن يريـد أيضـا أن يبـدي رأيـه في هـذا الشـأن؟

فقال القرد: أقترح عليك يا سـيدي أن تبعث فتسـأل الإنسـان عن رأيه.

فقال الدب: صدقت، فلا بد من سـؤاله والوقوف على رأيه.

فاستحسـن الجميـع ذلـك، غـير أن الشـحرور اعـترض بقولـه: ولكـن الإنسـان

ليس من عالمنا الحيواني.

فأجاب الدب: ليس هذا باعتراض، لأنه مخلوق مثلنا، وكلنا من عالم واحد.

ثم استدعى الكلب والقنفذ والجرذ وأمرهم (المعذرة من أهل اللغة) بأن ينطلقوا إلى أقرب مدينة، ويسألوا من يرونه أولا من أهلها، ويعودوا في الحال. فامتثل الثلاثة أمر الرئيس وخرجوا من ردهة الاجتماع وساروا يقصدون المدينة، ولم يصلوها إلا عند فجر اليوم التالي، فوقفوا في أحد شوارعها يتلفتون إلى كل جهة فلم يجدوا أحدا، وإنهم لكذلك إذ سمعوا غناء، ولم يلبثوا أن شاهدوا امرأة بقبعة حمراء، وشعر متشعث، وثياب قذرة، وكانت تتهادى في سيرها، وتغني بملء صوتها. فهمس الكلب لصاحبيه: إنها سكرى وقد تنشفت منها رائحة الخمر.

فقال الجرذ: وماذا يهمنا من ذلك؟ فقد أمرنا أن نسأل أول من نلقاه من أهل المدينة، وهذه أول من لقينا، فلنسألها.

فبادر الكلب إليها وقال: أرجو يا سيدتي أن تتفضلي بالجواب عن هذين السؤالين: ما غاية الحياة؟ وما هي السعادة؟

فلما سمعت المرأة هذا الكلام انقطعت عن الغناء ونظرت إلى الكلب وصاحبيه وقالت: إن غاية الحياة هي خدمة المجتمع، وأما السعادة فهي الراحة من الخدمة .. ثم بكت.

فشكر لها الكلب تلطفها بالجواب، وانصرف مع صاحبيه عدوا، ولما

وصلـوا إلى المؤتمـر أخـبروا الحيوانـات بـرأي المـرأة وحالتهـا.

ومـا كاد الأوز يكتـب رأيهـا حتـى انتصـب الديـك وقـال: لا يصـح لنـا أن نعـول عـلى رأي مثـل هـذه المـرأة السـكيرة.

وقال الثعلب: نعم، فيجب أن نسـأل غيرها.

وقـال الحـمار للكلب ورفيقيه: اذهبوا إذن مرة أخرى.

فأجابه الكلب: أسـألك يا سـيدي الحمار أن تذهب أنت لأننا تعبنا.

وفيـما هـم يتحـاورون قـال الشـحرور: إني أرى انسـانا في طـرف الغابـة .. فالتفـت الجميـع فـرأوا فلاحـا يحـرث عـلى ثـور، فتسـارعوا كلهـم إليـه ليقفـوا عـلى رأيـه، ولمـا اقتربـوا منـه تقـدم الـدب وقـال: قـل لنـا أيهـا الإنسـان، مـا هـي غايـة الحيـاة؟، ومـا هـي السـعادة؟

فوقـف الفـلاح، ووقـف الثـور عـن الحـرث، ثـم ضحـك وعـرك جبينـه وقـال: أمـا غايـة الحيـاة فهـي التعـب والصـبر.

فتبـادل الحيوانـات بعـض الكلـمات همسـا وقالـوا للفـلاح: إن هـذا رأي الحـمار.

فذهـل الفـلاح وقـال: إننـا نحيـا بحسـب شرائعـه ونواميسـه عـز وجـل، ويعمـل كل بمـا دعـي إليـه.

فابتـدره الثعلـب بقولـه: وهـذا أيضـا رأي واحـد منـا، فقـد قالـه الباشـق القديـس، فكلاكـما إذن متفقـان عـلى هـذه القداسـة وهـذا الاصـلاح.

وقال الدب: نحن خليقة غير عاقلة وأنت إنسان عاقل، فكيف تجعل نفسك في رتبة واحدة مع الحمار والباشق؟، وإذا كان لكل نوع من الخلائق غاية على الأرض، فما هي غايتكم أنتم معشر الناس؟

فحار الفلاح في أمره وقال للحيوانات: اجلسوا هنا على هذا العشب الاخضر، وتمهلوا علي ريثما أجمع أفكاري.

فجلس الجميع يتنظرون. فقال الأوز: وماذا يجدينا الانتظار؟ إننا لن نستفيد من هذا الفلاح شيئا، فأرى أن ننصرف عنه لنرى غيره.

فقال الدب: لا بأس من الانتظار، فدعه يجهد فكرته لنرى ما ينبثق منها، وزد على ذلك فهي فرصة نغتنمها لإراحة الثور من عنائه، فهو أخونا ويتعين علينا مواساته.

وبعد أن فكر الفلاح طويلا، رفع نظره وقال بملء الافتخار: غاية الحياة ...، وأما السعادة ... فهي ....، ماذا كان جواب الفلاح.

هند الصَّغيرة

كانت هند طفلة جميلة الصورة رشيقة الحركة خفيفة الروح كأنها ملك كريم. وكانت والدتها أنيسة في شرخ الصبا وقد فجعت بفقد زوجها وأصبحت أرملة وهي لم تتجاوز الثانية والعشرين وطفلتها الشهر الأول من العمر. ولم يترك لها زوجها شيئا لقلة ذات يده. فضاقت بأنيسة الحال، واضطرت أن تحترف الخياطة. ولكنها لم تكن تكسب منها ما يكاد يسد الرمق. ولولا ابنتها لخدمت احدى الأسر المثرية وكفت نفسها شظف العيش ومرارة الحياة، ولذلك تولدت في نفسها كراهة شديدة لابنتها وصارت تعاملها بمنتهى الجفاء والغلظة، وكانت تتمنى موتها لتتخلص من هذا العبء الثقيل.

أما هند فعلى رغم ما كانت والدتها تظهره لها من الكراهة والبغض كانت تنمو ويزداد خداها توردا وحديثها طلاوة ووجهها جمالا واشراقا.

وتفشى بالبلدة الذي كانت فيه أنيسة أمراض معدية كثيرة وفتكت بمئات من الأطفال، ولكن هندا لم يصبها مكروه مع أنها كانت في أشد حالات الفقر والعري والجوع، فضلا عما كان ينالها من اضطهاد والدتها لها وقسوتها عليها وعدم عنايتها بها.

وكانت الوالدة والطفلة تقطنان غرفة صغيرة في الطبقة السادسة من أحد المنازل الكبيرة. وكانت انيسة تخرج في أكثر الأيام من هذه الغرفة لتسعى وراء رزقها. فتغادر ابنتها في الغرفة وحدها دون أن تقفل عليها الباب أو النوافذ على أمل أن تطل الابنة من احدى النوافذ على

الشارع فتسقط وتتحطم، أو تهوي عن درج المنزل فتموت، أو تموت من الجوع. وكان كثيرون من الأولاد الصغار قد قضوا نحبهم في مثل ذلك. غير أن هندا لم تتعرض لخطر ولم تمت جوعا، وكان الجيران يشفقون عليها في غياب والدتها فيستدعونها لتلعب وتأكل مع أولادهم، وكان ميلهم إليها يشتد بما لها من الجاذب القوي. وكانت والدتها كلما عادت من شغلها ووجدتها مسرورة معافاة تتنهد وتقول: تبا لها فإنها لا تزال حية!

وفي ذات يوم أخذت أنيسة ابنتها، وكانت في سن الخامسة من العمر، وانطلقت بها إلى حديقة البلدية وهناك جلست على احدى المقاعد وهند بجانبها، وهي كلما لفظت كلمة أو أبدت حركة تتوعدها والدتها بطرحها في بركة الحديقة، فتسكت المسكينة خائفة مذعورة، ولعل والدتها جاءت في ذلك النهار إلى الحديقة لتغتنم فرصة خلو المكان من الأقدام فتلقي ابنتها في البركة وتعود وحدها قريرة العين ناعمة البال.

واتفق أن رجلا من المنتزهين تبدو عليه أمائر النعمة والغنى أبصر أنيسة وطفلتها، فجاء وجلس إلى أطراف المقعد حيث كانتا جالستين وأخذ يتفرس في هند ويبتسم لها، وكانت الصغيرة قد استأنست به فدنت منه، وجعل الرجل يبش في وجهها ويطايبها بالكلام، وأرادت والدتها أن تزجرها عن ذلك، بيد أن الرجل التمس منها أن لا تفعل، ثم أخذ يحادثها وهو يظهر كل حشمة وأدب فلم تنفر أنيسة منه وقد رأت في حديثه وهيئته ما يدعو إلى الاطمئنان، ولم تشك في أن

السبب الذي جعل هذا الغريب يقترب إليها ويكلمها إنما هو ابنتها هند.

وكان لأنيسة رواء جمالٍ لم يغيره الشقاء والفقر والتعب، وكانت تميل إلى حضور المجتمعات على أمل التعرف برجل يتخذها زوجة له. ولما جاء هذا الرجل وآنست منه ذلك اللطف والأدب، شعرت بدافع يدافعها إلى مكالمته، وقد علمت منه أنه تاجر وأن اسمه بطرس.

وبعد حديث قال بطرس: قد كان لي زوجة وابنة في عمر ابنتكِ وكانت تشبهها كل الشبه، لكن الله شاء فنقالهما إلى جواره.

قالت: وهل ماتتا في يوم واحد، وكيف كان ذلك؟

فتنهد بطرس وقال: نعم وآسفاه ماتتا في يوم واحد، وذلك أن النار علقت بأذيال البنت فالتهبت فأسرعت والدتها إطفاء النار فالتهمتها النار وقضت الاثنان بعد ذلك بزمن يسير. ولو لم أدفن الابنة بيدي لاعتقدت أن طفلتكِ هي ابنتي بعينها. وقد أصابني من جراء هذه الصدمة حزن شديد فخرجتُ من بلدي وجعلت أطوف من مكان إلى آخر طمعا في تسرية همومي وتفريج كربتي، وأنا لا يطيب لي مقام ولا يهنأ لي عيش، وثقي بأني لشدة حزني وفرط لوعتي وددت لو يقتلني أحد ويريحني من هذه الحياة المحفوفة بالشدائد والمصائب، ولكن الموت ظالم لا يأخذ من يحن إليه بكل جوارحه، بل يختار من تنصدع القلوب لفراقه وتذوب النفوس حزنا عليه.

فابتسمت أنيسة وقالت: أصبت ولا يستطيع أحد أن يدرك سر هذه الحكمة. فإن طفلتي هذه عبٌ ثقيل علي، وتراني راغبة كل الرغبة في موتها والخلاص منها، ولكنها كلما ازددت رغبة في موتها ازدادت هي نموا وحياة.

فبهت بطرس وقد أخذ منه العجب كل مأخذ وقال: وكيف تستطيعين أن تكوني قاسية إلى هذا الحد؟

قالت: لأن الحاجة تضطرني إلى ذلك.

فأعجب بطرس بصراحتها. وكانت هند قد جلست بإزائه وشخصت إليه ببصرها، فقبلها في جبينها ثم عاد فقال لأنيسة: وهل تودين من صميم القلب أن تتخلصي من هذه الطفلة الجميلة؟

قالت: نعم، وبكل سرور.

قال: إني مستعد أن آخذها إلى منزلي فأعتني بها اعتنائي بأعز شخص لدي، وتكون عندي بمنزلة ولدي وأعز من روحي، وهكذا تتخلصين أنت من هذا العبء الثقيل وتشتغلين بما شئتِ.

فنظرت إليه أنيسة طويلا وقالت: وكيف ذلك؟

قال: الأمر بسيط. فقد فقدت ابنتي، وهذه تشبهها كل الشبه فأضمها إلى نفسي وتكون سلوتي الوحيدة في هذه الحياة.

وكانت أنيسة تود أن تنفصل عن ابنتها وطالما تمنت موتها. بيد أنها

الآن سمعت كلام بطرس وعرفت أنه من الأغنياء طمعت في شيء من ماله ثمنا لابنتها، ولكنها خجلت أن تصرح له بضميرها فنظرت اليه وقد صبغ وجهها بلون القرمز. وقالت: إذا كنت مصمما على ذلك فأرجو أن نجتمع مرة أخرى هنا أو في منزلي فنتمم الحديث.

قال: لا أحب إلي من ذلك، فسأزورك في منزلك اذا اذنتِ لي.

فدلته أنيسة على المنزل الذي تقطنه، ثم نهضت فودعته وحمرة الخجل تصبغ وجنتيها، ولما دنت هند لتودعه أخذها بين ذراعيه وقبلها بلهفة زائدة.

وعادت بعد ذلك أنيسة إلى منزلها وهي طلقة المحيا، باسمة الثغر، وابنتها تطفر وراءها فرحة مسرورة.

وباتت أنيسة تلك الليلة تعلل نفسها بالآمال، فتمثل لها أن هذا التاجر سيأتي في طلب ابنتها، وربما كان ذلك وسيلة لتمكن علائق الوداد بينهما فيؤول الأمر أخيرا إلى اقترانه بها. ومضى يومان بعد ذلك وخاطر أنيسة مشغول ببطرس ليلا ونهارا، وكانت معاملتها لابنتها في هذين اليومين بغاية اللطف والرقة والمحبة.

وفي اليوم الثالث جاء بطرس وجرى بينه وبين أنيسة حديث هند، وقد كان قد أحضر معه للطفلة بعض الحلويات والاثمار فازدادت تعلقا به وتوددا اليه، وكانت والدتها تروم أن تكاشفهُ بما في ضميرها ولكن منعها الحياء والأدب، فقالت له بعد كلام: أنت تريد أن تأخذ

الطفلة اليك ولكن من سيعتني بشؤونها؟

وكان بطرس قد ادرك ما يجول في خاطرها وشعر من نفسه بارتياح اليها اكراما للطفلة التي أحبها من تصميم قلبه، فعزم أن يصطفيها حليلة له، وقال بلهجة لم تخف على أنيسة أبقيها الآن عندك ريثما نفرغ من أخذ الأهبة لذلك ... ثم قام وانصرف على أن يعود في اليوم الثاني.

وأخذ بطرس من ذلك الوقت يتردد إلى أنيسة ويعطيها ما تحتاج إليه من نفقة، وكان لا يجد سلوة ولا عزاء إلا إذا جاء إلى غرفة أنيسة واحتضن هندا الصغيرة، وكانت الألفة تصل أسبابها بينه وبين والدتها.

وبعد أسبوعين وكان قد اختبر أخلاق أنيسة وآنس منها كل أدب وحشمة، باح لها برغبته في اتخاذها زوجة له. ثم ودعها وودع الطفلة وسافر الى بلده ليدبر شؤونه ويعود بعد ذلك فيقترن بها وقد اعطاها قبل سفره مبلغا من المال لتنفق منه على نفسها وعلى الطفلة في مدة غيابه.

فسرت أنيسة بما تم لها أخيرا من هذا النصيب السعيد وتنبهت في قلبها عواطف الحنو الوالدي لابنتها، لأنها كانت سبب سعادتها، فكلفت بحبها وصارت تعتني بها أشد اعتناء، وقد ابتاعت لها الملابس الجميلة وكانت تغذيها بأحسن الاطعمة.

وبعد بضعة أيام من سفر بطرس ورد أنيسة منه مبلغ من المال

وكتاب قال فيه إنه مضطر بسبب المثبطات إلى التغيب عنها ثلاث أسابيع أخرى، فسيقضي هذه المدة بفروغ صبر لأنه مشتاق أشد الشوق إلى هند وإليها، وأنه واثق بأن أنيسة ستضاعف عنايتها بها ليراها بعد هذه المدة في أحسن حال من العافية والجمال.

فعظم سرور أنيسة وازدادت اهتماما بالطفلة وبكل ما يضمن سرورها وصيانتها.

غير أن هندا مع كل عناية والدتها بها، أخذت صحتها تضعف وجسمها ينحف، ثم أخذت قوتها في الانحطاط ولزمت الفراش، فاستدعت أنيسة طبيبا لمعالجتها، ففحصها ورأى أنها مصابة بالتهاب الرئتين وجزم بأن ذلك مسبب عن البرد.

فذعرت أنيسة لدى سماعها هذا الكلام ودهشت أشد الدهش لاعتلال ابنتها بعد تلك العناية والوقاية، وأخذت تبذل كل ما في وسعها لشفائها، وكانت لا تفارق سريرها ليلا ولا نهارا. غير أن كل ذلك لم يجد نفعا، بل كانت حالة الطفلة تزداد سوءا من يوم إلى آخر، وانتهى الأمر أخيرا بوفاتها.

وكان هذا المصاب أكبر مما تستطيع أنيسة احتماله، وقد لبثت بضعة أيام وهي تعول وتصيح والزفرات تمزق صدرها والعبرات تحرق وجنتيها.

وجاء بطرس بعد ذلك يحمل الهدايا والتحف لأنيسة وهند، وما كاد

يدخل الغرفة ويرى أنيسة في تلك الحالة حتى تراجع مذعورا، فلما أبصرته أنيسة تساقطت دموعها كالمطر واحتبس لسانها عن الكلام وكادت تفقد شعورها.

فادرك بطرس الحقيقة الهائلة، ووقف لا يدري ما يقول وقد شعر بانصداع قلبه ثانية، فأن أنينا محرقا ولم يلبث أن خرج من الغرفة وعلائم اليأس والأسف بادية على وجهه المكفهر.

فصاحت أنيسة إذ رأته على تلك الحال: وأنا؟ هل نسيتني؟ وماذا يحل بي؟

فلم يلتفت إليها ولم يجبها بكلمة.

ولما أطلت من النافذة لتراه، وقد أصبح في الشارع وأخذ يسير فيه سيرا حثيثا وهو مطرق حزنا وبأسا، القت بنفسها من الطبقة السادسة ... وكان ذلك آخر العهد بها.

الأب

حدث في إحدى مدن الساحل الصغيرة القريبة من مدينة «نانت» في فرنسا، أن نبيلا من نبلاء الفرنسيس، يقال له الكونت دي بوفي، قدم تلك المدينة سنة ١٧٩٤، بعد غياب خمس سنوات قضاها في السياحة في جهات أميركا، وهو كهل في السن الثالثة والأربعين، ومن أسرة كثيرة الثروة بعيدة الشهرة، وكان جميل الخلقة شديد البأس. وقد أرمل وهو ابن عشرين، بعد أن ولد له ابن وحيد سماه جلبرت، فأقبل عليه بعد وفاة زوجته يربيه أحسن تربية، فنشأ الولد على خطته وشب وهو على صورة أبيه، لا يختلف عنه في شيء من السجايا والصفات والقامة والوجه.

ولما بلغ الكونت المدينة المشار إليها ونزل من السفينة إلى البر، ذهب توا إلى فندق فيها معروف باسم فندق «النوتي الشجاع» لينفض عنه غبار السفر ويأخذ نصيبا من الراحة قبل أن يواصل سيره إلى قصره، ولما قابل قيم الفندق دعاه باسمه وطلب منه ما أراد.

فذهل «بيير فارغو» قيم الفندق، وقال: ومن أين تعرفني يا سيدي، وأنا لم أرك قبل الآن؟

فضحك الكونت وقال: لا بل أعرفك وتعرفني يا فارغو إذا تفرست في جيدا.

فنظر إليه القيم حائرا، ثم تبسم وقال: نعم نعم، الكونت دي بوفي ..

لا لا، بـل المسـيو دي بـوفي.

قـال: بل الكونت يا فارغو .. فلا تنس.

قـال: ولكـن الألقـاب قـد ألغيـت الآن يـا سـيدي، وأصبـح كل النـاس أحـرارا ومتسـاوين في المنزلـة والحقـوق المدنيـة، ولا مزيـة في الألقـاب للواحـد عـلى الآخر.

فاتسـعت حدقتا الكونـت وقال: وكيف ألغيت؟ ومن ألغاها؟

قال: ألغيت بسـقوط الملكية وقيـام الجمهورية على أنقاضها.

قـال: وأية جمهورية تعني؟

قال: الجمهورية الفرنسـوية، أفلم تسمع بها؟

قـال: إني لم أسـمع شـيئا مـن هـذا القبيـل، لأني قضيـت خمـس سـنوات سـائحا في أمـيركا الجنوبيـة، وقـد أسرت في أثنـاء ذلـك. فقـل لي الآن مـاذا جـرى في مـدة غيـابي؟

قـال: يخيل إلي أنـه لم يبلغك شيء من حوادث ثورتنا الكبرى.

قـال: بلغنـي شيء عنهـا منـذ سـنة ولم أسـمع شـيئا بعـد ذلـك .. أنـت تقـول أن فرنسـا قـد أصبحـت جمهوريـة، فـماذا جـرى للملـك لويـس السـادس عـشر؟

قـال: أتهـم بالخيانـة وحكـم عليـه بالمـوت، ثـم لحقـت بـه زوجتـه مـاري

أنطوانيت، وأصبحت السلطة في يد الأمة، وتألفت لذلك جمعية «الكونفانسيون ناسيونال» أي جمعية اتفاق الأمة، فهي تدير شؤون البلاد وتضطهد الكبراء والعظماء الذين لم يرقهم هذا الانقلاب الكبير. وقد أماتت كثيرين منهم واستصفت أموالهم وأملاكهم. ولا بد أنك تسر كثيرا يا مسيو دي بوفي بما آلت إليه الأحوال لأنك من أشد أنصار الحرية وطالما ساعدت الاميركيين على نيلها.

فأطرق الكونت عندما سمع ذلك وامتقع وظهر القلق على وجهه، ثم قال: وماذا جرى لابني؟ فهل هو الآن في قيد الحياة؟

قال: نعم إن المسيو جلبرت في أحسن حال ولم يتعرض له أحد بأذى لأنه ابن صديق الحرية الحميم، وهو الآن في مقتبل العمر ورونق الشباب.

قال: وهل كانت كتبي تصل إليه في خلال هذه المدة؟

قال: نعم، وقد سمعت أنه بانتظارك، ولكنه لم يعلم متى يكون قدومك.

قال: وفيفيل؟ هل سمعت عنه شيئا؟ وأين هو الآن؟

قال: إنه مع ابنته لوسي الجميلة لا يزالان في منزلهما القريب من قصرك.

قال: فلوسي إذا لم تتزوج بعد؟

قال: كلا يا سيدي، ولكنها ستتزوج قريبا وتستبدل اسم «دي بوفي» باسم «فيفيل».

فتنهد الكونت تنهد من كان في ضيق وأفرج عنه ثم قال: لعلك مصيب يا فارغو.

ونهض بعد ذلك فألقى رداءه على كتفيه ونظر في المرآة قليلا وهم بالخروج، فاستوقفه فارغو قائلا: لعلك ذاهب لزيارة رجال الحكومة الجديدة يا سيدي لتهنئهم بالانقلاب السياسي الذي تم.

قال: كلا، فقد أزورهم مساء بعد أن أقابل ابني وابنة فيفيل.

ولما قال هذا خرج وسار في طريق قصره وهو لا يعلم ما خبأه له الغيب.

***

كانت الكونت دي بوفي يحب لوسي فيفيل، وهي ابنة شيخ أفنى العمر في تربيتها والعناية بها، فشبت في مهد الدلال والرفاهية، وسكنت مع والدها بالقرب من أملاك الكونت في منزل جميل تحيط به حديقة غناء، فيها من كل فاكهة زوجان. ولما أبصرها الكونت دي بوفي وهي في الرابعة عشرة من عمرها، وقعت من قلبه أجل موقع، ورأى في حسنها ما قيد بصره وملك حواسه، فهام بها شديدا ولم يكن قلبه قد انفتح لحب سواها. نعم إنه كان مقترنا بوالدة جلبرت، غير أن اقترانه بها كان امتثالا لمشيئة والديه، وأما لوسي فقد أشرب قلبه محبتها مدفوعا

بعواملـه الخاصـة، وقـد صمـم عـلى الاقـتران بهـا عـلى الرغـم مـن حداثـة سـنها.

ولمـا عـاد الآن مـن سـياحته وعلـم بـأن لـوسي لا تـزال عزبـة تحقـق أنهـا لا تـزال مخلصـة لـه الـود، مقيمـة عـلى العهـد، وأنهـا سـتملأ حياتـه سـعادة وتكـون بهجـة أيامـه.

وظـل الكونـت سـائرا في طريـق قـصره إلى أن رأى عـن بعـد منـزل لـوسي، فنازعتـه نفسـه إلى لقائهـا أولا، وسـار وقـد اشـتد خفقـان قلبـه حتـى بلـغ المنـزل، ولم يكـن بابـه مقفـلا فدفعـه بيـده فانفتـح ودخـل مجتـازا بالحديقـة، ولكنـه لم يـسر بضـع خطـوات حتـى أجفـل وجمـد الـدم في عروقـه ووقـف كمـن أصيـب بصاعقـة.

وذلـك أنـه رأى حبيبتـه لـوسي وقـد أفـرغ الشـباب عليهـا مـن حللـه جـمالا يبهـر الأبصـار ويحـير الأفـكار، جالسـة إلى فتـى في مقتبـل العمـر لم يلبـث الكونـت أن عـرف أنـه ابنـه جلـبرت، وكانـا جالسـين في ظـل شـجرة كبـيرة يتطارحـان أحاديـث الحـب ويتعانقـان، وهـما في منتهـى الغبطـة والـسرور.

ولمـا شـعر الحبيبـان بوجـود الكونـت وعرفـاه تراكضـا إليـه وعـلى ثغريهـما ابتسـامات لطيفـة تـدل عـلى طيبـة القلـب وطهـارة السريـرة، ولكنهـما لم يلبثـا أن رأيـا وجومـه وانقـلاب سـحنته، فأسـقط في أيديهـما ووقفـا لا ينبسـان ببنـت شـفة.

وكان الكونـت عندمـا رآهـما مسرعـين إليـه قـد تنبـه مـن ذهولـه، فنظـر

إليهما بعين الحزن وقال: أهذا ما كنت أتوقعه من أقرب الناس إلي؟

وكأن هذه الكلمات حلت عقدة لسان جلبرت، فدنا من أبيه وقال: اسمح لي يا والدي أن أطلعك على الحقيقة ثم أحكم بما شئت.

ولم يكن الكونت يحتاج إلى أكثر من هذا الوضوح فقال: ما لي وللحقيقة التي تريد أن تطلعني عليها، فهي واضحة كالشمس، وهي أنك خدعتني وخنتني ونغصت حياتي وسلبتني أعز شيء لدي في هذا العالم.

قال: لا أكتمك يا أبت أني قد أحببت لوسي منذ زمان، وتعلقت كل آمالي وعواطفي بها، ولما علمت بحبك إياها أردت أن أرحل من هنا، بيد أن ذلك كان فوق طاقتي لأنني تحققت أنها هي أيضا تحبني وقد وهبت قلبها كله لي.

ولما فرغ جلبرت من كلامه دنت لوسي من الكونت دي بوفي وقالت: نعم، وقد حاولت أنا مرارا أن أقصي جلبرت من هنا فلم أستطع إلى ذلك سبيلا، لأن حبه قد ملك قلبي واستعبد جوارحي، وليس لي من أمنية في هذا الكون إلا أن أحيا له ويحيا لي.

فأن الكونت أنة محرقة وقال: إذا لم يبق لي محل هنا، فيجب أن أنصرف عنكما.

فألقت لوسي يدها على كتفه وصاحت: اصفح لجلبرت، فإنه لم يتعمد الاساءة إليك .. اصفح لي وله يا أبي!

ولـو أن خنجـرا اخـترق أحشـاء دي بـوفي لـكان أسـهل عليـه مـن سـماع كلمـة (يـا أبي) مـن فـم لـوسي، فذعـر واضطـرب شـديدا، وقـال لهـا: كان يجـب أن تعفينـي مـن سـماع هـذه الكلمـة يـا لـوسي، فإنهـا مـما ترتعـد لـه فرائـصي جزعـا وألمـا. ثـم تحـول عنهـما ورجـع عـلى أعقابـه يتنازعـه عامـلا الحـزن والغضـب.

***

وعـاد الكونـت إلى الفنـدق «النـوتي الشـجاع» فوجـد في انتظـاره بضعـة رجال مـن أعضـاء المحكمـة الوطنيـة كانـوا قـد سـمعوا بقدومـه، فأقبلـوا يهنئونـه بعودتـه مـن سـياحته البعيـدة، وكان بعضهـم مـن معارفـه وأصدقائـه، فلـما دخـل عليهـم نهضـوا يرحبـون بـه وقـال كبيرهـم وكان اسـمه ليسـوار: أهـلا بـك مسـيو دي بـوفي فقـد كنـا نترقـب عودتـك لنبـشرك بهـذا الانقـلاب العظيـم الـذي سـيفعم بـلا شـك نفسـك سرورا لأنـك مـن دعـاة الحريـة وأشـد أنصـار الوطنيـة.

وكان دي بـوفي كالغائـب عـن الرشـد يـكاد لا يفهـم شـيئا مـما يقولـون، وكان يشـعر بنفـوره مـن العـالم أجمـع بعـد الـذي رآه مـن ابنـه ومحبوبتـه. فلـما فـرغ ليسـوار مـن الـكلام نظـر إليـه وقـال بلهجـة الحـزن: يـا ليتنـي لم أعـد إلى هنـا، فقـد عـدت ونفـسي مفعمـة بالآمـال أن أرى ابنـي الوحيـد عـلى مـا أشـتهي، فوجدتـه، وأسـفاه، خائنـا دنيئـا أخجـل بـه ولا أريـد أن ينتسـب إلي.

فلـما سـمع الحضـور هـذا الـكلام بهتـوا، لأن كلمـة «خائـن» في ذلـك العـصر كانـت رهيبـة، وكانـت لا تـؤدي إلا معنـى واحـدا هـو لخيانـة الوطنيـة.

وكانت الأمة الفرنسوية بأسرها تثور على كل خائن فتمزقه تمزيقا، وكانت المجالس الوطنية إذا سمعت باسم واحد من الخونة، لا تلبث أن تصدر حكمها المبرم عليه بدون محاكمة، وكثيرا ما كانت هذه الأحكام الظالمة تنفذ في أبرياء لا ذنب لهم سوى ما كان يلصقه بهم أعداؤهم أو يقدمونه عليهم من الوشايات الكاذبة، وقد غصت السجون بأمثال هؤلاء، فكانوا يساقون إلى العذاب والموت، وليس من يسمع شكواهم أو يرثي لحالهم.

سمع أعضاء المحكمة الوطنية كلام دي بوفي فلم يشك أحد منهم في خيانة ابنه، وقد أكبروا الامر وحكم كل منهم في نفسه على جلبرت المسكين بالموت العاجل.

وكان دي بوفي لاهيا عما أمامه بأفكار أخرى أنسته كل شيء، فلم ينتبه إلى ما تهامس به أعضاء المحكمة وما استقر رأيهم عليه، وكان التأثر والغضب يتفاقمان في نفسه، فعاد لا يستطيع البقاء بين القوم، فنهض ودخل الغرفة المعدة له في الفندق وانطرح على سرير هناك وفي قلبه هيجان «يزوف».

***

وفي اليوم التالي استيقظ دي بوفي من رقاده، وكان قد هدأ خاطره وهمدت شعلة غضبه، فخجل من نفسه لما صدر منه بحق ابنه، وندم على ما فعل، وجعل يلوم نفسه على تسرعه واسترساله في الغضب، ثم ارتدى ثيابه ونظر في المرآة فرأى نفسه أكبر منه بالأمس فقال:

لا عجب إذا انقلبت محبة لوسي إلى ابني، فهو أحق بها مني لأنه في مقتبل العمر ونضارة الحياة، ومن العار أن أزاحمه على فتاة هي في عمره وما أنا إلا بمقام أبيها .. نعم إني أحببت لوسي بكل عواطفي لأني لم أحب قبلها أحدا من النساء، ولكن الأن يجب أن أخمد نيران هذا الحب في قلبي، فقد مضى أوانه، ويجب أن أصفح عن ابني وأباركه.

ولما قال ذلك خرج من الغرفة فأبصر فارغو، وكان حائرا مضطربا، فقال له: أريد أن أبعث برسول إلى قصري يدعو لي ابني إلى هنا.

فبهت فارغو وقال: ولكن ابنك يا مولاي غير موجود الآن في القصر.

قال: ويحك، ماذا تقول؟ وأين هو إذن؟

قال: إنه في السجن، فقد ألقي عليه القبض هذه الليلة.

فصعق الكونت لهذا النبأ وقال: كيف هذا، وما سبب القبض عليه؟

قال: سببه أنت يا مولاي، أفما شكوته أمس بنفسك؟

قال: إني لا أفهم ما تقول.

قال: عجبا يا مسيو دي بوفي! أفلم تدعه بالأمس خائنا؟ وهذا سبب كافٍ لإيداعه السجن.

وظهرت الحقيقة أمام عيني الكونت فطار رشده، ثم هب كالمذعور وخرج من الفندق وجعل يعدو إلى أن بلغ دار الحكومة، فدخل على أعضاء المحكمة وقال بصوت يرتعش من شدة الاضطراب: إنكم لم

تتفهموا ما قلته لكم بالأمس يا حضرات الحكام! نعم إني دعوت ابني خائنا، ولكنه ليس خائنا لفرنسا، وقد كان حنقي عليه لمسألة أهلية لا دخل للوطنية فيها لأنها لا تخص أحدا سواي، فأسألكم والحالة هذه أن تطلقوا سراحه في الحال لأنه بريء.

فذهل أعضاء المحكمة لهذه اللهجة التي خاطبهم بها دي بوفي وقال له الرئيس: لا عجب أن تدفعك عواطفك الوالدية اليوم إلى نقض ما اتهمت به ابنك من الخيانة بالأمس، وهذا أمر طبيعي لا يستغرب صدوره من أب. غير أن الأمر قد قضي الآن ولم يبق لك إلا أن تتجرع مصابك بالصبر، وتتعزى لأنك لم تفعل إلا ما قضت به الواجبات الوطنية الشريفة، ولو أجبنا طلبك الآن لعادت فرنسا وامتلأت بالخونة كما كانت في العهد السابق.

وكان جميع أعضاء المحكمة متحققين خيانة جلبرت، ولم يحملوا كلام الكونت دي بوفي إلا محمل الحنو الوالدي، وكانت الكونت يحاول اقناعهم بضرورة الافراج عن ابنه، فلم يستفد شيئا.

وأخيرا قال له ليسوار: لم يبق هذا الأمر في سلطتنا، فقد أرسل المجرم إلى مدينة نانت وأصبح أمره في أيدي قضاتها.

قال: إنهم إذا يطلقون سبيله متى تحققوا جلية الأمر.

قال: وهمت يا مسيو دي بوفي لأن جلبرت قد أرسل إلى نانت كخائن لوطنه، ومجلس القضاء هناك لا يدقق فحص قضية من كان نظيره، بل

يزجه في السجن إلى أن يصدر الحكم عليه بالموت. فيجب أن تفتخر الآن لأنك بهذا العمل الشريف قد أشبهت ابرهيم يوم أخذ ابنه اسحق ليقدمه ضحية على مذبح الله، وأما أنت فقدمت ابنك اليوم ضحية على مذبح الوطن.

فأدرك دي بوفي خطر موقفه وأيقن بهلاك ابنه، ولم يلبث أن خرج من دار الحكومة آئسا حزينا وهو يقول في نفسه: الويل لي! فقد قتلت ابني بيدي .. ولكن لا .. يجب أن أسعى لإنقاذه ولو افتديته بنفسي. ثم زفر زفرة محرقة وانطلق يجد السير إلى منزل فيفيل وقد رسم لنفسه خطة للعمل.

وكانت لوسي في حديقة المنزل ولم يكن قد بلغها خبر القبض على حبيبها. فلما رأت دي بوفي مقبلا، ورأت وجهه الممتقع، ذعرت ووقفت حيرى. فدنا منها الكونت وقال: عفوا يا لوسي! فقد قتلت جلبرت بيدي.

ثم أخذ يقص عليها حديثه حتى أتى على آخره، ولوسي تسمع وترتجف وقد تدفقت عبراتها وكادت تسقط مغمى عليها. فسكن روعها دي بوفي روعها وقال: لا تخشي سوءا يا لوسي، لأني سأتدارك الأمر وأظنني لا أعدم وسيلة أنقذ حبيبك بها. فسأنطلق الآن إلى نانت، ولا يلبث جلبرت أن يخرج من السجن ويعود إليك سالما، ولكنه لا يستطيع البقاء في فرنسا بعد الآن، بل يجب أن يبرحها إلى انكلترا، فانتظري عودته مع والدك وكونا على أتم الأهبة لمغادرة هذه البلاد عند

عودتـه، فهـل تقسـمين لي أنـك تفعلـين كـما قلـت لـك؟

قالـت: نعـم أقسـم لـك أن أفعـل بحسـب ارادتـك، ولكـن متـى تعـود أنـت إلينـا؟

فتنهـد دي بـوفي وقـال: أعـود بعـد حـين .. والآن اسـتودعك اللـه يـا لـوسي، وأسـألك أن تناديـني مـرة ثانيـة بالاسـم الـذي أثـار حنقـي بالأمـس.

فقالـت له: الوداع يا أبي!

فتناول دي بـوفي يدها فقبلها وخرج صامتا.

***

وفي المسـاء كان دي بـوفي في نانـت، فبـات في بعـض فنادقهـا، وقـضى النهـار التـالي في السـعي لـدى مجلـس القضـاء مسـتعينا ببعـض أصدقائـه مـن وجهـاء المدينـة وأهـل النفـوذ فيهـا حتـى نـال اذنـا بمقابلـة المدعـو «جلـبرت دي بـوفي» في السـجن. ولمـا كان المسـاء ذهـب إلى السـجن وأطلـع رئيسـه عـلى مـا بيـده مـن الأمـر، وكان رئيـس السـجن لا يعـرف دي بـوفي، فنظـر إلى بعـض الأوراق التـي كانـت أمامـه وقـال: إن الرجـل الـذي تريـد مقابلتـه قـد صـدر الحكـم بموتـه غـدا صباحـا، ولمـا كانـت أبـواب السـجن سـتقفل بعـد عـشر دقائـق فيجـب أن تـسرع في مقابلتـه.

ثـم سـار الكونـت إلى غرفـة في السـجن وقـال لـه: هنـا جلـبرت دي بـوفي، فادخـل إليـه وبعـد عـشر دقائـق أرسـل إليـك أحـد حـراس السـجن ليخـرج بـك.

وكانت الغرفة كبيرة وفيها جمهور غفير من المسجونين، ولم تكن منارة بضوء ضئيل. فأجال الكونت نظره في جوانبها فرأى ابنه واقفا في ناحية منها، فدنا منه وألقى يده على كتفه، فذعر الفتى عندما رأى أباه واستخرط في البكاء، فانصدع قلب الكونت تأثرا وقال له: إن الوقت قصير يا ولدي فلا تضعه بالتردد والاستفهام بل اسمع ما أقول: خذ ردائي هذا فتدثر به واجعل قبعتي على رأسك وخذ بيدك هذا الجواز وأخرج من السجن بقدم ثابتة فلا يعترضك أحد، اغتنم ظلمة الليل وسافر من نانت، ومتى قابلت لوسي تخبرك بما يجب أن تفعل، فقد بلغتها ارادتي وعهدت إليها بإنفاذها، فإياك ومخالفة أمري.

وكان الفتى يعي كلام أبيه وهو في اضطراب شديد فقال: وهل صفحت لنا يا أبي؟

قال: نعم، فأصفحا أنتما أيضا لي.

قال: وأنت؟ متى تخرج من هنا؟

فتجلد الكونت وقال: إن الجواز قد أعطي لواحد وليس لاثنين .. ولكني سأخرج بعد ذلك، وأكون حرا غدا في مثل هذا الوقت.

ثم انحنى على ولده فقبله بقلب يحترق لهفة والدموع تسيل من عينيه، ولم يتمكن جلبرت من النطق بكلمة بعد هذا، لأن الحارس كان قد دخل، فسار جلبرت وراءه وهو في رداء أبيه، وكان قد اشتد حلك الظلام، فخرج من السجن دون أن ينتبه إليه أحد.

وبقي دي بوفي مكانه وقد أشرق وجهه فرحا وقال في نفسه: إن جلبرت قد نجا، وأتممت أنا ما علي، فسأموت غدا مطمئن البال، إذ لم يبق لي مطمع في الحياة.

وفي صباح اليوم التالي دخل السجان وقرأ أسماء المحكوم عليهم بالإعدام في ذلك النهار. وكان كلما سمع أحد المجرمين اسمه ينفصل عن رفاقه، فيتسلمه الجلادون، ولما قرأ اسم «جلبرت دي بوفي» تقدم الكونت دي بوفي برباطة جأش وسلم نفسه للجلادين، فساقوه إلى المقصلة، وكان أمره مقضيا.

وأما جلبرت فغادر فرنسا بحبيبته وأبيها إلى انكلترا، حيث عقد له عليها وأقاما يتمتعان بأهنئ لذات الحب وصفاء العيش، وهما يذكران ذلك الوالد الشريف الذي ضحى بنفسه فداء عن ابنه.

الزَّوج المخدوع

كانت الساعة التاسعة مساء، وكان عزيز واقفا عند باب منزله في حيرة شديدة لا يدري ماذا يصنع، أيفتح الباب بالمفتاح الذي معه أم يعود من حيث أتى. لم يكن منذ بضع دقائق قلقا مضطربا كما هو الآن، فقد عاد من محطة سكة الحديد وهو رابط الجأش قوي الارادة موقن كل الإيقان أن عمله هو الصواب بعينه. ولكنه ما كاد يبلغ المنزل حتى استحوذ عليه القلق وتملكه الاضطراب وشعر بجزع وخوف ارتعش لهما قلبه وتحلب العرق البارد من جبينه.

كان عزيز يحب زوجته سلوى حبا أشبه بالعبادة، وكانت هي من المشهورات بالجمال الرائع واللطف الكثير، وكانا كلاهما في سعة من العيش، وقد مضى على زواجهما ثلاث سنوات تقضت بالهناء والصفاء، وكان عزيز يتعاطى فن المحاماة وقد ذاع صيته وملأت شهرته كل ناد.

وكان حبه لزوجته يزداد مع الأيام، غير أنه شعر في المدة الأخيرة ببعض شكوك دبت إلى نفسه فنغصت هناءه وأورثته عناء شديدا وقلقا لا يحتمل. وما زالت هذه الشكوك في طهارة زوجته واخلاصها له تتجسم في ذهنه حتى أصبح يغار عليها حتى من خطرات النسيم، وبات من ذلك الحين يترصدها ويراقب جميع حركاتها وسكناتها.

ولما عاد هذا المساء إلى منزله، وفي نيته مفاجأة زوجته بحضوره. وقف حائرا خائفا نادما على ما فرط منه لائما نفسه على استسلامها للارتياب والشك، وكاد يعود على أعقابه إلى المحطة لولا أنه خشي أن

تكـون الخادمـة قـد لمحتـه مـن بعـض النوافـذ وأبـصرت في يديـه حقيبـة ثيابـه، فلـم يسـتصوب الرجـوع.

وكان قلبـه يخفـق وأفـكاره تضطـرب وهـو يناجـي نفسـه بهـذا الـكلام: ... ومـاذا أقـول لسـلوى إذا دخلـت ولم أر عندهـا أحـدا، وهـي تظننـي مسـافرا ولا تنتظـر رجوعـي إلا بعـد ثلاثـة أيـام؟، ومـاذا أفعـل إذا رأيـت عشـيقها جالسـا إليهـا يطارحهـا الغـرام؟، كلا، كلا، إن هـذا مـن المحـال، لأن سـلوى مـن ربـات الصيانـة والعفـاف وهـي تترفـع عـن كل حـب سـواي، فـلا أظنهـا تخـون عهدهـا لي وتـدوس واجباتهـا الزوجيـة بقدميهـا .. آه يـا ربي، مـاذا فعلـت، وبـأي كلام أعتـذر إليهـا الآن؟، إنهـا سـتدرك مـن مفاجـأتي هـذه مـا جـال في خاطـري بحقهـا مـن الظنـون والريـب، وسـيكون لذلـك أسـوأ وقـع في قلبهـا .. إنهـا سـتنفر منـي، وسـتذرف الدمـوع السـخية .. آه لـو كان في الامـكان الابتعـاد عـن هـذا المـكان لبقـي أمـري مكتومـا.

ومـا زال يـتردد بـين العـزم عـلى الدخـول والنكـوص عنـه حتـى غلـب عليـه الاقـدام عـلى الأمـر، وكان المفتـاح في يـده، فعالـج بـه البـاب بهـدوء فانفتـح، ودخـل عزيـز وقـد زاده دخولـه اضطرابـا.

وكانـت الخادمـة قـد شـعرت بدخولـه فخرجـت مـن غرفتهـا ولم تلبـث أن تراجعـت إلى الـوراء مذعـورة وهـي في حـيرة ووجـل، فلـم يكلمهـا عزيـز شـيئا وسـار تـوا وحقيبتـه في يـده إلى مخـدع زوجتـه.

***

كانت سلوى وحدها في مخدعها وقد اضطجعت في سريرها وأغمضت عينيها وأمامها على منضدة بجانب السرير كتاب مفتوح كانت بلا شك تطالعه من قبل.

نظر عزيز إلى زوجته وهي في تلك الحال ورأى في وجهها الجميل علائم السرور والدعة وخلو البال، فشعر كأن صاعقة انقضت على رأسه وندم أشد الندم، وأراد أن يخرج من المخدع دون أن تشعر به، ولكنها فتحت عينيها وذعرت عندما رأت زوجها، ولم تلبث أن جلست في فراشها وقالت: من هذا؟ أأنت يا عزيز؟ قل بالله ماذا جرى؟

فأجابها بصوت يرتعش من شدة الاضطراب: لم يجر شيء يا عزيزتي سلوى، فاطمأني.

فقالت، وقد اتسعت حدقتاها: كيف لم يجر شيء؟ قل ولا تخف عني أمرا.

قال: أبطأت عن ادراك القطار، فسار قبل وصولي.

فنظرت إليه شزرا وقالت: لا يمكن أن يكون هذا، فقد أنبأني الخادم الذي شيعك بوصولكما إلى المحطة قبل قيام القطار، وأنه ابتاع لك تذكرة السفر بنفسه، وودعك وأنت في احدى المركبات.

فذعر عزيز وعاودته هواجسه بشدة أعظم وقال: تقولين أن الخادم قد أنبأك بجميع هذه التفاصيل، فالظاهر أنك سألته ذلك.

قالت: نعم وأي حرج علي في سؤالي؟ أليس من واجباتي أن أسأل عن

راحـة زوجـي إذا كان مسـافرا وأنتظـره حينـما يعـود؟ فقـل لي الآن، لمـاذا عدلـت عـن السـفر وجئـت إلي في مثـل هـذا الوقـت ودخلـت المنـزل دخـول اللـص؟

قال: عجبا يا سـلوى، ولماذا أزعجك أمر عودتي؟

قالـت: أجبنـي أولا، لمـاذا لم تسـافر إلى حيـث كنـت قاصـدا؟، فقـد أنبأتنـي بـضرورة سـفرك وعـدم تمكنـك مـن ارجائـه إلى فرصـة أخـرى.

قال: نسـيت هنا بعض أوراق لا بد من أخذها.

قالـت: لا أصـدق ذلـك لأني قـد رتبـت لـك جميـع الأوراق التـي تحتـاج إليهـا في هـذا السـفر ووضعتهـا بنفـسي في الحقيبـة بـين ثيابـك.

قال: أشـكر لك عنايتك.

قالـت: نعـم إني رتبـت لـك كل ذلـك لأتحقـق عـدم رجوعـك إلى البيـت قبـل ثلاثـة أيـام.

قال: ما هذا المزاح يا سـلوى؟

قالـت: ليـس في ذلـك شيء مـن المـزاح، فأنـت لم تمـزح حينـما عـدت في مثـل هـذه السـاعة مـن الليـل لتفاجـئ زوجتـك بحضـورك وتـرى بعينيـك عشـيقها عندهـا.

ثـم احتدمـت غيضـا وقالـت، وقـد تطايـر الـشرر مـن عينيهـا: نعـم يـا عزيـز، لا يكفـي أنـك ظننـت بزوجتـك الأمينـة سـوءا وارتبـت بإخلاصهـا وطهارتهـا

بـل اتهمتهـا بالخيانـة وعـدت في مثـل هـذا الوقـت مـن الليـل وفي رأسـك مـن الهواجـس مـا ترتعـد لـه الفرائـص وتنهلـع لهولـه القلـوب. إن شـيطان الغـيرة قـد خيـل إليـك مـا لا أسـتطيع أن أتصـوره، فظننـت أني سـأغتنم فرصـة غيابـك للاجتـماع بمـن أحـب .. فويـل للرجـال مـا أقـسى قلوبهـم ومـا أشـد استسـلامهم للأوهـام.

فنظـر عزيـز إلى زوجتـه نظـرة ذل وانكسـار وهـو كمجـرم ينظـر إلى القـاضي مسـترحما أن يرفـق بـه في حكمـه، وقـال: مـا هـذا الـكلام يـا سـلوى؟

قالـت: وهـي تـزداد احتداما واضطرابـا: أقـول ذلـك لأني تحققـت غايتـك مـن رجوعـك عـلى هـذه الصـورة، فقـد جئـت لتباغتنـي وتـرى عشـيقي عنـدي.

ولمـا قالـت ذلـك رفعـت منديلهـا إلى عينيهـا فمسـحت منهـما دمعتـين محرقتـين، فشـعر عزيـز كأن سـهما قـد اخـترق فـؤاده وقـال: كفـى باللـه يـا سـلوى ولا تزيـدي في عـذابي.

قالـت: لا، لا أسـكت قبـل أن تبحـث جيـدا عـن هـذا العشـيق في غـرف المنـزل. فقـد كان جالسـا إلي منـذ هنيهـة، ولم شـعر بقدومـك دخـل فاختبـأ في غرفـة الثيـاب التـي يـؤدي إليهـا مخدعـي، فادخـل أيهـا القـاسي الظـالم واقبـض عليـه ثـم عـد واغمـد خنجـرك في صـدري أو اسـحق رأسي بنعليـك .. آه يـا عزيـز، إني لم أحتقـر وأهـن في حيـاتي كـما احتقـرت وأهنـت الآن.

وكان عزيـز عندمـا سـمع هـذا الـكلام قـد تلجلـج وارتجفـت شـفتاه، فنظـر

إلى زوجتـه مسـتعطفا وهـو يؤنـب نفسـه عـلى هـذا الصنيـع ولا يسـتطيع كلامـا.

فصوبـت سـلوى إليـه نظـرة نشـبت فيـه كسـهم، وقالـت لـه بلهجـة الأمـر: مـا بالـك واقفـا؟ أدخـل حـالا إلى غرفـة الثيـاب ثـم إلى ردهـة الاسـتقبال، ثـم ابحـث في جميـع غـرف المنـزل، فإنـك سـتجده لا محالـة.

فتنهـد عزيـز وأمسـك بيـد زوجتـه وصـاح: العفـو يـا حبيبتـي، العفـو يـا زوجتـي الأمينـة! فقـد أسـأت إليـك كثـيرا. ثـم خنقتـه العـبرات ... .

فجذبت سـلوى يدها منه وقالت بغضب: دعني الآن وشـأني.

قال: ألا تعفين عني يا سـلوى؟

قالـت: ربما أعفـو فيما بعد. أما الآن فأخرج ودعني وحدي.

فخـرج عزيـز ودخـل غرفتـه وأقفـل البـاب والدمـع مـلء عينيـه، والحـزن مـلء نفسـه .. .

***

وبعـد قليـل، وقـد سـكنت كل حركـة في المنـزل وأطفئـت الأنـوار، فتحـت سـلوى بـاب غرفـة الثيـاب فخـرج منهـا شـاب جميـل الصـورة بهـي الطلعـة، وقـد طفـح وجهـه سرورا واعجابـا، فمـدت إليـه سـلوى يدهـا فقبلهـا بلهفـة وانسـل إلى مخدعهـا ثـم مـن المنـزل دون أن يـراه أو يشـعر بـه أحـد غـير تلـك «الزوجـة الأمينـة».

محاورة بين الآلهة

التقى الإله أبولون والإله هرمز في أحد الأمساء الجميلة على صخور جبل بنيكس، فوقفا على سفح جبل اثينا وأخذا يجيلان الأبصار في محاسن هذه المدينة الباهرة. وكان الجو صافيا والشمس تمشي الهوينا إلى أن غابت في بحر أيونيا، وعقبها الشفق المسائي فأنار ققم الجبال، وكانت أسراب الطير قد تفرقت وأوى كل إلى عشه، وعاد الناس جموعا ووحدانا إلى المدينة بعد أن قضوا سحابة نهارهم في الحقول والمروج، وكانت قطعان الماشية تتبعهم طافرة يسوقها جماعة الرعيان، وقد طفحت الوجوه غبطة وابتسمت الثغور هناء.

وكانت العين الكبرى في المدينة غاصة بالعذاري اللواتي وردنها بجرارهن ليستقين، وما فيهن إلا كل من تقيد الأبصار بحسنها وتسترق القلوب بجمالها، وقد حمل النسيم اللطيف إلى الإلهين من صدى أحاديثهن ونغماتهن الشجية ما استوقفهما وحبب إليهما التأمل فيما يسمعان ويبصران. وكان أبولون يعتقد أن المرأة ألطف المخلوقات وأرقها، فالتفت إلى هرمز وقال: هل رأيت أجمل من الأثينيات؟

فقال هرمز: لا، لم أر أجمل منهن، ولا أصدق، ولا ألطف، ولا عجب لأنهن في حمى الآلهة «بلادا».

وعاد الإلهان يسمعان صدى الأصوات، وكان الشفق المسائي في أثناء ذلك يتضاءل تدريجيا والحركة في المدينة تقل وأبواب المنازل توصد، وما هي إلا هنيهة حتى خيم السكون وساد الظلام، غير أن البدر لم

يلبث أن ظهر من الارخبيل وراح يسبح في عنان السماء فبدد دياجي الظلمة وأنار الكون بضيائه الفضي.

فقال أبولون: إن الآلهة اثينا قد أحسنت عملا باختطاطها المدينة في هذه البقعة لأنها من أجمل بقاع الأرض وأطيبها.

فأجاب هرمز: ولا غرو، فهي مصدر الحكمة وأم الفلسفة وليس لأحد أن يفوقها أو يجاريها في حسن الذوق والابداع، وهذا ما حمل زفس على الافتتان بها، وقد سماها ابنته الحبيبة، وأحلها المحل الأسمى في العالم السرمدي.

قال: فهي والحالة هذه مثال الصلاح والجمال كأختي «أرتميدا».

قال: بل قل كبناتها الأثينيات.

قال: لعلك تتعمد ذكر الأثينيات لغاية في نفسك لم تخف علي، فكأنك تقصد بذلك إثارة عواطفي.

فتبسم هرمز. واستأنف أبولون كلامه فقال محتدما: وهل تزعم أن من الأثينيات من إذا أحببتها تظهر لي الجفاء والصد؟

قال: نعم، وأنا واثق كل الثقة مما أقول.

قال: ولكن هذا من المحال .. فما من امرأة في الكون إلا وتؤخذ ببديع أشعاري وسحر نشيدي وموسيقاي.

فهز هرمز رأسه وقال: أنت واهم يا سيدي كثيرا، لأن من النساء من

تكـون ثابتـة في محبـة بعلهـا ثبـوت الجبـال أو أشـد، فلـن يتسـنى لأحـد، ولـو إلهـا مثلـك، أن يثنيهـا أو يسـتغويها .. أقـول ذلـك وأنـا مسـتعد أن أراهنـك عـلى ذلـك أي رهـان أردتـه.

فضحـك أبولـون وقـال: لا بـأس، وأنـت الخـاسر لا محالـة .. فـإذا غلبتـك وفـزت بمنـاي فعليـك أن تـؤدي إلي قطيعـا كامـلا مـن الثـيران الطويلـة القـرون.

قـال: أمـا أنـا فأسـمع شرطـي تفصيـلا .. فقـد أرسـلني مـرة والـدي زفـس لقضـاء بعـض الأمـور، وبينـما كنـت محلقـا في الفضـاء أبـصرت «لمباسـيا» الجميلـة تحـرس مـع رفيقـة لهـا قطعانـك، فهِمـت بهـا حتـى كـدت أفقـد رشـدي .. وعليـه فـإذا غلبتـك وفـزت بالـشرط تهـب لي لمباسـيا لأسـعد بهـا.

قـال: رضيـت، ولـو كان في ذلـك مـا يشـق عـلي كثـيرا، لأني أهـوى لمباسـيا كـما تهواهـا أنـت ولا أطيـق فراقهـا.

فتـلألأت عينـا هرمـز فرحـا واستبشـارا وقـال: ومـن شروطـي أيضـا، أن المـرأة التـي تـروم اغواءهـا بحبـك واختبـار قـوة تأثـيرك فيهـا أختارهـا أنـا.

قال: اختر من شـئت، بشرط أن تكون جميلة.

قـال: هذا مما لا ريب فيه.

قـال: فلا تطـل إذا زمن التفكير، فقد عيل صبري.

قال: لقد اخترتها، وإنك سـتثني على حسـن ذوقي.

قال: ومن تكون من النساء؟ أعذراء أم ذات بعل أم أرملة؟

قال: ذات بعل. وأما العذراء أو الأرملة فانك قادر أن تغريهما في كل وقت بالوعود الخلابة.

قال: حسن، فما اسم التي اخترتها؟

قال: أريفيلا، وهي زوجة خباز.

قال: لقد احزنتني بذلك، فمن أين لامرأة الخباز الجمال الفتان.

قال: وماذا يمنع أن تكون امرأة الخباز جميلة؟ فهل تعتقد أن الجمال محصور في طبقة النبلاء؟ .. هذا وهم يا سيدي .. وإنك ستتحقق صدق كلامي متى وقع بصرك على أريفيلا، فهي أجمل صورة وجدت على وجه الأرض .. وهي هذه الليلة وحدها في منزلها، لأن زوجها سافر بالأمس لقضاء بعض أعماله.

قال: إذا كانت كما تقول فهيا بنا.

قال: ولكني أسألك قبل الشروع في العمل أن تعدني أنك لن تتوسل للحصول عليها إلا بالوسائل الشريفة.

قال: كن براحة بال من هذا القبيل.

ولم يكن إلا القليل حتى هبت ريح لطيفة حملت الإلهين من جبل بنيكس إلى ما فوق أحد المنازل في المدينة، فرفع هرمز بقوته سقف البيت، كما ترفع المرأة غطاء القدر في أثناء اصلاح الطعام، وقال

لأبولـون: أنظـر. فنظـر أبولـون وجمـد.

لم تلـد بـلاد اليونـان زهـرة جميلـة كهـذه المـرأة، فقـد زانتهـا الطبيعـة بـكل مـا لديهـا مـن حـلي الجـمال والكـمال. وكانـت سـاعتئذٍ جالسـة إلى مائـدة مـن مرمـر تكتـب بعـض مـا يتعلـق بأعـمال زوجهـا مـن حسـاب الخبـز. بيـد أنهـا كانـت مـن وقـت لآخـر ترفـع رأسـها إلى فـوق كأنهـا تناجـي نفسـها أو تتذكـر مـاذا ينبغـي لهـا أنـت تكتـب، فتبـدو عيناهـا الذابلتـان وقـد انبعـث منهـما نـور يسـحر القلـوب، وحرسـتهما الأهـداب الطويلـة كأنهـا درع مـن الـزرد تمنـع تينـك العينـين عـن إرسـال نبالهـما القاتلـة. أمـا وجههـا فـكان أنقـى مـن بيـاض الثلـج، متـوردا كالفجـر، وكانـت شـفتاها حمراويـن كالأرجـوان، وشـعرها ذهبيـا مسترسـلا عـلى ظهرهـا، وعـلى الجملـة فقـد كانـت هـذه المـرأة كالزهـرة، أو كالنـور، أو كالأنشـودة.

وكان أبولـون ينظـر إليهـا بشـغف وقـد تنبهـت كل حواسـه، وأحـس بـأن هـذه الحسـناء قـد ملكـت لبـه وسـبت فـؤاده، فألقـى رأسـه عـلى كتـف هرمـز وهمـس في أذنـه قائـلا: إنهـا آيـة في الجـمال والبهـاء، وقـد أحببتهـا ولا أريـد سـواها. فتبسـم هرمـز تبسـم الظافـر.

وظلـت أريفيـلا تكتـب، وكانـت تنشـد بـين كل فـترة وأخـرى بعـض الأنغـام بعذوبـة صـوت كان لـه في قلـب أبولـون أشـد تأثـيرا. غـير أن هرمـز لم يدعـه يتمتـع طويـلا بهـذا المنظـر، بـل أعـاد السـقف إلى مـا كان عليـه، فحجبـت تلـك الفتانـة عـن الأبصـار، وعـاد أبولـون لا يراهـا. وبانحجابهـا حجبـت الكواكـب واختفـى القمـر وأظلـم الكـون وأدلهـم .. .

فقـال هرمز: ومتى تريد أن تباشر العمل؟

فأجـاب أبولون: الآن، فهيا بنا.

ثـم نـزلا يتمشـيان حـول ذلـك المنـزل، وقـد سـاد السـكون وانطفـأت المصابيـح في المدينـة. فوقـف أبولـون وراء المنـزل، منـزل أريفيـلا، وهـو يعلـل نفسـه بالفـوز، معتمـدا عـلى قوتـه وتفننـه ومتوقعـا أن لا يجـد صعوبـة في الاسـتيلاء عـلى قلـب هـذه الحسـناء. ومـا عتـم أن أنشـد بصـوت رخيـم أنشـودة مطربـة سـحرية رددهـا الهـواء والفضـاء، وكانـت أريفيـلا قـد رقـدت في سريرهـا، فانتبهـت لـدى سـماعها هـذا الصـوت وقالـت بتضجـر: مـن هـذا الـذي جـاء يعكـر صفـاء النـاس في مثـل هـذا الوقـت؟

فناداهـا أبولـون بعذوبـة سـاحرة: هـذا أنـا أيتهـا الحسـناء، الإلـه أبولـون! وقـد جئتـك مـن أعـلي جبـال الالهـة حيـث كانـت جميـع ألات الموسـيقى تطربنـي بعزفهـا الشـجي، فتركـت كل ذلـك وجئتـك يـا أريفيـلا محبـا والهـا، فقومـي واسـتقبليني أيتهـا الحسـناء، وافتحـي لي قلبـك لأنـال فيـه الراحـة والسـعادة.

فأجابتـه أريفيـلا مـن داخـل: خـف غضـب الآلهـة يـا هـذا، واعلـم أني ذات بعـل لـن أعـدل بـه الدنيـا بأسرهـا ولـو أهرقـت دمـائي. فأغـرب مـن هنـا أيهـا الرجـل ودع النـاس في طمأنينتهـم.

فتقبـض أبولـون لـدى سـماعه هـذا الـكلام الجـافي وأنشـد: اعطفـي عـلي أيتهـا الجميلـة بـين النسـاء، وصدقـي مقـالي، أحبـك إلى الأبـد وتمجـدي أكـثر

من جميع الآلهات المالكات في السماء، إني أهب لك الأبدية يا أريفيلا، وبكلمة واحدة أجعلك أجمل نساء العالم، فيغبطك البشر أكثر من كل ملكة في بلاد اليونان. استقبليني بما فطرت عليه من اللطف والرقة، وأسكنيني في شغاف صدرك، فأختطف من البحر زرقته ومن الفجر أرجوانه وذهبه، ومن النجوم نداها، ومن هذه جميعها أصنع لك أثوابا سحرية فتفوقين كل البشر.

ولما كان إله الشعر ينشد، هدأت جميع الأملاء السماوية والأرضية لتسمع مقاله، وقد سكن هدير البحر وزفير الأمواج، ووقف القمر جامدا .. ولما فرغ الإله من نشيده هبت ريح لطيفة وطافت بهذه الأنشودة في جميع بلاد اليونان، فأصبح كل من سمعها من الأطفال في سريره شاعرا من طفولته.

أما أريفيلا فاحتدمت غيظا وصاحت بأعلى صوتها: يا لك من مجان ثرثار! من أنت يا هذا حتى جئتنا في مثل هذا الهزيع من الليل تتاجر بالندى والكواكب!!، وهل تظن أيها الرجل أن أريفيلا الأمينة لبعلها تنصاع لكلامك وتنقاد لهذيانك فتدنس فضيلة صيانتها وطهارة عفافها؟ إن الموت أقرب إلي من أن أغتر بشيء مما تقول، فارعو عن غيك وعد أدراجك، لأنك لن تنال قلامة ظفري، بل لن أسمح لك بتقبيل الأرض التي أدوسها.

فقال أبولون: وهو يكاد يذوب جوى: آه أيتها القاسية! اسمحي على الأقل أن أفوز بلذة مشاهدتك ونعيم مجالستك .. إرثي لي واشفيني من

عناء ما يشقيني.

فصاحت أريفيلا بصوت يتهدج من شدة الغضب: قلت لك إني لن أنكث عهود الصيانة ولن أجحف بحقوق الزوجية ولو حملت إلي كنوز العالم، وهذا آخر كلامي لك فلن تسمع شيئا بعد.

ولم يكن أبولون يتوقع مثل هذه المقاومة، ولكنه بقي يعلل نفسه ببعض الأمل، فجعل يترضى أريفيلا ويستعطفها ويعدها الوعود الشتى، وهي لا تجيبه بكلمة. فلما رأى أن لا فائدة ترجى من وقوفه استشاط غضبا وعاد عن المنزل وهو كاسف البال يتهادى كالسكران أو كالخارج من موقعة قتال وجهاد.

وكان الإله هرمز بانتظاره على احدى القمم المجاورة، فلما رآه عائدا على تلك الحالة من الفشل والهوان ضحك حتى استلقى، ثم قام لاستقباله، وقال له متهكما: إنه يسوءني جدا يا سيدي أن تغلب، وأن تقهرك امرأة!

فقال أبولون وهو يتنهد: يا سوء ما جنيته علي يا هرمز بإيقاعي في شرك كنت في غنى عنه، ولذلك فلن تحصل على لمباسيا الجميلة.

قال: أنت الآن في حالة الهياج الشديد، فقل ما تشاء، ولكنك إذا لبثت مصرا على عزمك فلا يبقى لي إلا أن أرفع دعواي إلى الإله زفس، وهو وحده ينصفني.

قـال: حسـن، وأنـا لا أمانـع في ذلـك، فهلـم بنـا إليـه .. ثـم سـارا معـا، وكانـت ظلمـة الليـل قـد أخـذت في الاضمحـلال، فانبلـج الفجـر وانهزمـت جيـوش الظـلام، ولم تلبـث الشـمس أن بـرزت مـن جهـة الارخبيـل، وكان زفـس قـد قـضى تلـك الليلـة عـلى قمـة جبـل إيـدا، فلـما دنـا منـه أبولـون وهرمـز سـجدا لـه وأديـا التحيـات المفروضـة، ثـم سرد لـه ابنـه هرمـز الخبر بتفاصيلـه، فقـال زفـس لأبولـون: وكيـف اسـتطاعت هـذه المـرأة أن تعصيـك وتهينـك؟

فقـال أبولـون: لقـد أهانتنـي وصدتنـي بمنتهـى الجفـاء والغلظـة، وكل ذلـك بمسـاعي هرمـز، فإنـه هـو الـذي عمـل عـلى كيـدي ودبـر لي هـذا الـشرك، فأسـألك أن لا تزيـد في اهانتـي وتحقـيري.

فأطـرق زفـس قليـلا وقـد قطـب وعبـس، فارتعـد الجبـل وتشـققت الصخـور واضطربـت الأشـجار في الغابـات، فخـاف الإلهـان ووقفـا ينتظـران الحكـم وهـما يرتعشـان.

ولم يكـن إلا القليـل حتـى رفـع زفـس رأسـه وقـال لابنـه هرمـز: اخـدع النـاس مـا شـئت وبـكل مـا في وسـعك مـن أسـاليب الحيـل، وأمـا الآلهـة فـلا تتعـرض لهـا .. نعـم إن أبولـون قـد أهـين، وقـد أهانتـه امـرأة، غـير أنهـا لم تجـرأ عـلى ذلـك إلا لأنهـا تحـب آخـر، تحـب زوجهـا، فلـو لم يكـن قلبهـا مشـغولا بـه لانقـادت لأبولـون صاغـرة ... إن كثـيرات مـن النسـاء يحبـن أكـثر مـن واحـد مـن الرجـال، غـير أن هـؤلاء لا يعرفـن معنـى الحـب، فهـن كالفـراش ...، أمـا أريفيـلا فهـي امـرأة شريفـة عرفـت حقـوق الـزوج

وواجباتها نحوه، فلا يقدر أحد، ولو كان إلها وأكبر من أبولون، أن يغويها أو يثنيها عن جادة الأمانة والعفاف، وبما أنك يا هرمز قد خدعت أبولون وأغريته، مع علمك بكل هذا، فلن تنال لمباسيا .. هذا هو القضاء، فانصرفا بسلام.

الجائزة

أهـذا كل ما أردت أن تقوله لي يا أبي؟

نعـم يـا عزيزتي. فيجيب أن تنـالي الجائزة الأولى، وإلا فلن تفوزي بأمنيتكِ.

ـــ اذا فمسـتقبلي متوقف على نيل هذه الجائزة؟

لا شـك في ذلـك. ولا أظنـك تحاولـين أن تثنينـي عـن عزمـي إلا إذا أظهـرت منتهـى الحـذق والبراعـة في دروسـك الموسـيقية، وأحـرزت قصـب السـبق عـلى رفيقاتـك في الامتحـان الأخـير، وبرهنـت لي عـلى أنـك لم تضيعـي هـذه السـنين في الـدرس والتحصيـل سـدى. إذ بـدون ذلـك لا تحصلـين عـلى رضـاي، ولمـا كنـتِ نـادرة المثـال بمواهبـك وذكائـك وشـغفك بالموسـيقى وسـائر الفنـون الجميلـة، فليـس بدعـا أن تـدركي ضالتـك، إلا اذا تهاونـت في الاسـتعداد للامتحـان وجعلـت لغـيرك سـبيلا للسـبق والفـوز، وحينئـذٍ فاللـوم كل اللـوم عليـك وحـدك.

ـــ أنـا لا أجهـل قـوة ارادتـك وعـدم تحولـك عـما تصمـم عليـه، فليكـن مـا تريـد.

ـــ ولكـن لا تنـسي أني لا أريـد لـك إلا الخـير والهنـاء لأنـك وحيـدتي والموضـوع آمـالي، وقـد وعدتـك برضـاي عـن اقترانـك بجـان إذا عـدت إلي ببـشرى فـوزك، وإلا فسـتخيب آمـالي وآمالـك أيضـا، وتقطـع كل صلـة لـك بمـن مـال إليـه قلبـك.

فصبغ وجه «أدما» بحمرة الخجل وأطرقت وهي تتدبر كلام أبيها وتخشى أن يعاندها القدر فيحول دون بلوغ أمنيتها ما ليس في الحسبان.

وعاد الأب إلى الحديث فقال: وهل أرصدت الآن كل شيء للسفر إلى المدرسة؟

ــ نعم، ولم يبق إلا أن أستودعك الله، وأتدرع برضاك، وأتزود بدعائك.

فقبلها أبوها، ثم قام فشيعها إلى محطة القطار، وعاد بعد ذلك وهو موقن أن ابنته لا تلبث أن تعود إليه بإكليل الغار.

***

وكانت أدما في الربيع العشرين من عمرها، وهي غيداء هيفاء، أفرغ الله عليها حلة الجمال، وكانت متوقدة الذهن بارعة في الايقاع على البيان وغيره من آلات الطرب. وقد درست ذلك في مدرسة عالية من مدارس الفنون الجميلة ولم يبق إلا أن تتقدم إلى الامتحان الأخير لتنال الشهادة النهائية، وكانت تدرس الفن الموسيقي مع أتراب لها، ولم تكن تخشى أن يسبقها منهن إلا واحدة تدعى أماليا، كانت أدما تحبها وتثق بها وقد باحت لها بسر قلبها.

وكان جان حبيب أدما من أقرباء أماليا، وهو فتى في مقتبل العمر جميل الصورة ذكي الفؤاد. وقد تخرج في احدى مدارس الحقوق واحترف المحاماة، وكان يسكن في المدينة التي تعلمت فيها أدما، فتعرف بها وتحابا وتعاهدا على الأمانة والوفاء.

وعلم والد أدما بذلك، وقد رأى جان وخبر أحواله وشعر بارتياح إليه. نعم إنه لم يكن من ذوي الأموال ولكنه كان على أعظم جانب من الكياسة ودماثة الأخلاق والإستعداد للعمل والسير في سبيل النجاح. وكان هذا الولد يحب الفنون الجميلة وليس له من أمنية إلا أن تفوق ابنته على أترابها، وقد بلغ شغفه بها أن شرط عليها ذلك الشرط الغريب، وهو أن لا يزفها إلى جان إلا إذا أحرزت شهادة الامتياز. وكان من عادة تلك المدرسة أن تمنح أبرع الطالبات في الموسيقى جائزة مالية غير قليلة، فأحب والد أدما أن تكون ابنته هي صاحبة هذه الجائزة لما يترتب على ذلك من الشهرة والمكانة في المجتمع من جهة، ولما فيه من تحسين الأحوال المعاشة من جهة أخرى.

وكانت أدما قد شغفت بالموسيقى منذ نعومة أظفارها، حتى أصبح هذا الفن جزءا من نفسها، به تحيا وتتنفس، مدفوعة إليه بعوامل غريزية فيها. ولم تكن تفكر وهي تدرسه أنها تفعل ذلك لنيل الجائزة، بل تدرسه لشدة رغبتها فيه وهيامها به. ولم تستصوب شرط أبيها عليها، إذ لا علاقة للجائزة بالحب المتبادل بينها وبين جان، لأن الحب في وادٍ والجائزة في وادٍ آخر، ولكنها أذعنت لإرادته وقبلت الشرط.

تمثلت أدما كل ذلك وهي عائدة الآن إلى المدرسة تحمل ما كتبته من الانشاء الأخير في موضوع الموسيقى، وهو موضوع الامتحان النهائي، وقد بذلت جهدها فرسمت الموضوع أحسن رسم وكتبته بما لا مزيد عليه من العناية والاهتمام. ولكنها تصورت وهي في مركبة القطار احتمال عدم فوزها بالجائزة، وتصورت رجوعها إلى بيت والدها بالخيبة

والفشـل، فجزعـت، واشـتد جزعهـا لتصورهـا امـكان خسـارة الحبيـب إلى الأبـد.

ومـا زالـت هـذه الأفـكار تتنازعهـا إلى أن بلـغ القطـار المدينـة، وبرحتـه أدمـا مسرعـة إلى المدرسـة حيـث وجـدت رفيقاتهـا الطالبـات قـد سـبقنها إليهـا، فأنسـت بهـن وتبـددت مـن مخيلتهـا تلـك التصـورات.

***

وكانـت الطالبـات يحبـبن أدمـا لمـا كانـت عليـه مـن دماثـة الأخـلاق ولـين الجانـب، بقـدر مـا كـن يكرهـن أماليـا لكبريائهـا واعتدادهـا بنفسـها، وكـن يعتقـدن أن الجائـزة يجـب أن تحرزهـا احـدى هاتـين الطالبتـين، ولكنهـن كـن يتمنـين أن تنالهـا أدمـا.

***

وخلـت أدمـا في احـدى غـرف المدرسـة وأخرجـت أوراقهـا التـي كتبتهـا وأخـذت في مراجعتهـا، وأنهـا لكذلـك إذ دخلـت عليهـا أماليـا وهـي تهـش لهـا وتبـش، ثـم جلسـت إلى جانبهـا وأخـذت تجاذبهـا أطـراف الحديـث في موضـوع الامتحـان وهـي تنظـر إليهـا تـارة وإلى أوراقهـا تـارة أخـرى لـكي تطلـع عـلى مـا كتبتـه.

وكانـت أدمـا مشـغولة الذهـن بجـان تريـد أن تسـال أماليـا عنـه ثـم تحجـم وتغـير مجـرى أفكارهـا. غـير أن أماليـا لم تدعهـا طويـلا في هـذا الـتردد فقالت لهـا: كنـت أود أن أخـبرك شـيئا عـن جـان في هـذه الدقائـق وأنـت أحـوج

فيها إلى الراحة والانصراف إلى الدرس والمراجعة، ولكن الأمر في غاية الأهمية وهو لا يحتمل التأجيل ولا يسعني السكوت عنه.

فذعرت أدما وقالت: وما الذي جرى؟ أخبريني ولا تخفي عني شيئا.

قالت: إن جان سقط وهو يلعب مع فريق من أصحابه بكرة القدم فانكسرت يده.

فصاحت أدما: ومتى حدث ذلك؟ وكيف هو الآن؟

قالت: حدث ذلك منذ أربعة أيام وقد علمت اليوم أن حالته تنذر بالخطر، فقد ذهبت صباحا لعيادته فقابلتني الممرضة هناك وأخبرتني أنه لم ينم ليلة أمس وقد قرر الأطباء أن دمه قد تسمم.

فاضطربت أدما اضطرابا شديدا ووثبت من مكانها كمن لدغته أفعى، وقد ألقت أوراقها على المائدة إلى جانب أوراق أماليا، ووقفت حائرة لا تدري ماذا تفعل، وهي تكاد تفقد عقلها.

وكأن أماليا انتبهت إلى أمر فوقفت أيضا وضربت بكفها على جبينها وقالت: وقد أنستني حيرتي أمرا مهما جدا أخشى أن يكون له أسوأ تأثير في صحة جان.

ـــ وما هو هذا الأمر الذي نسيته؟

ـــ إن الممرضة دفعت إلي صفة دواء وقالت: «يجب أن ترسليه حالا من احدى الصيدليات» .. ولا تزال صفة الدواء معي، ولكن فات الوقت

الآن.

فزفرت أدما زفرة حارة وقالت: وكيف فات الوقت؟

ـــ لأني لا أستطيع الآن أن أبتاع الدواء المطلوب، إذ قد حان وقت الامتحان.

فشعرت أدما كأن حجارة المدرسة تتساقط على رأسها، وتناولت قبعتها وأوراقها وقالت لأماليا: هاتي صفة الدواء فسأقوم أنا بقضاء هذا الأمر ولا ألبث أن أعود.

فأشرق وجه أماليا سرورا وناولتها الرقعة وهي تقول: بارك الله في همتك يا أدما، هاك الرقعة فانطلقي، ولكن إياك أن تتأخري عن موعد الامتحان.

ولما خرجت أدما من الغرفة ورأتها رفيقاتها على تلك الحالة وهي مسرعة في سيرها لا تلوي على شيء، دهشن وسألنها فقالت: إن أمرا في غاية الأهمية يدعوني إلى التغيب قليلا.

فقالت احداهن: ولكن ساعة الامتحان قد دنت.

وقالت غيرها: ألا تعرفين أن أستاذ الموسيقى لا يقبل أوراقك ويسمح لك بدخول غرفة الامتحان إذا تأخرت ولو بضع دقائق عن الوقت المضروب.

وقالت تلميذة أخرى لبعض الرفيقات: يخيل إلي أن أماليا قد نصبت

فخا لتبعدها عن المدرسة، ويخلو لها الجو وتفوز بالجائزة.

غير أن أدما لم تفقه شيئا من هذا الحديث كله، بل واصلت سيرها حتى رأت عربة فوثبت إليها وانطلقت تنهب الأرض نهبا إلى بيت الحبيب، وقد نسيت المدرسة والامتحان والجائزة وكل شيء، وكانت أوراقها في يدها، ولكنها لم تشعر بها ولم تكترث لها لأن أفكارها كلها كانت مشتغلة بجان وحده، ولكنها لم تنس رقعة الدواء التي كانت في يدها. فلما بلغت أول صيدلية ابتاعت منها الدواء واستأنفت السير وهي تود أن تطير طيرانا، حتى إذا بلغت المنزل قابلت الممرضة وناولتها الدواء وهي في أشد حالات التهيج والخوف.

فدهشت الممرضة لحالتها وسألتها عن مرادها. قالت أدما والدموع تكاد تطفر من عينيها: هذا هو الدواء الذي نسيت أماليا أن ترسله إلى هنا.

فضحكت الممرضة وقالت: ولكننا لم نبق في حاجة إليه يا عزيزتي، فقد استعضنا عنه بسواه.

ـــ وكيف حال العليل الآن؟

ـــ إنه في أحسن حال، ولا يلبث أن يخرج من البيت سالما معافى.

ـــ قالوا لي أنه لم ينم ليلة أمس .. وأن دمه قد سمم.

ـــ هذه أول مرة أسمع مثل هذا الكلام عن جان، والحقيقة هي أنه اليوم وأمس أحسن من كل يوم، وقد جبرت يده المكسورة وزال كل

خطـر.

وكانـت أدمـا تسـمع كلام الممرضـة وهـي تنتقـل مـن درجـة اسـتغراب إلى أشـد منهـا، وقـد ظهـرت الحقيقـة أمامهـا، فلـم تشـك في مـا أضمرتـه لهـا أماليـا مـن السـوء والـشر، كـما أنهـا لم تشـك في فـوات الوقـت وخسـارة الجائـزة، فعـادت إلى العربـة وهـي غارقـة بدموعهـا.

***

وحـدث في المدرسـة في غيـاب أدمـا أن رفيقاتهـا قلقـن عليهـا وخشـين أن تبطـئ في رجوعهـا قبـل حلـول موعـد الامتحـان. فاجتمعـن حـول أماليـا وأخـذن يسـألنها عنهـا، فتجاهلـت السـبب في أول الأمـر، ولمـا ألححـن عليهـا ذكـرت لهـن شـيئا وهـي تتكلـف مشـاركتها لهـن في القلـق، فجزعـن ونظـرن إليهـا شـزرا وهـن يعتقـدن مكرهـا ودهاءهـا وتدبيرهـا لأدمـا هـذا الغيـاب الفجـائي، وقـد دار بينهـن الحديـث التـالي:

قالـت احداهـن: مسـكينة أدمـا! إنهـا بـلا شـك قـد خـسرت ثمـرة تعبهـا هـذه السـنين كلهـا.

وقالـت غيرهـا: لا أظـن الأسـتاذ يظلمهـا هـذا الظلـم الشـنيع ويـأبى أن يقبـل انشـاءها عندمـا تعـود.

ـــ يظهـر أنـك تجهلـين أخـلاق أسـتاذنا فهـو لا يـرضى أن يقبـل شـغلها ولـو دقيقـة بعـد الموعـد.

ـــ هـذا ظلم يجب أن نحتج عليه.

ـــ لا يفيد احتجاجنا شيئا، فقد أزف الوقت ولم يبق في الامكان اصلاح ما فات.

ـــ ولكن لماذا تبق أدما أوراقها هنا فكنا نقدمها نحن؟

ـــ يظهر أن ما وسوسته أماليا لها قد أنساها كل واجب فلم تعِ شيئا.

ولما كانت الطالبات يتحدثن بمثل هذا الكلام وهن يتلهفن على حالة أدما ومصيرها، قرعت الساعة الثانية، فأقبل الاستاذ وطلب أوراق الانشاء، فقدمنها إليه وأماليا معهن. فاستغرب الأستاذ عدم وجود أدما بين الطالبات وسأل عنها: فأخبرته الطالبات بما جرى. فقال: ولكن أين أوراقها؟

ـــ إنها أخذتها معها لتيقنها سرعة عودتها.

فقال: كنت أود أن لا تخسر أدما ما هي أهل له، ولكن هكذا شاءت أو هكذا شاء اهمالها.

ـــ ألا يمكن أيها الأستاذ المحترم أن تقبل أوراقها بعد قليل؟

ـــ ليس هذا من ولايتي، فقد صدرت به أوامر الادارة العليا، فلا يمكنني أن أخالف أمرها.

قال هذا وخرج، ولبثت الطالبات في أماكنهن كأن على رؤوسهن الطير.

وعدن بعد قليل إلى الحديث، فقالت احداهن: سوف تعود أدما إلى منزلها بالخيبة والفشل وقد انهار صرح رجائها، فيتلقاها والدها

بالتوبيخ والاهانة ويحرمها سعادتها، فتكون كأنها لم تدأب ولم تسعَ كل هذه السنين المتوالية.

وبينما كانت التلميذات في حديثهن فتح الباب فجأة ودخلت أدما وهي في شدة الاعياء، وقد تصبب العرق من جبينها وصبغت وجنتاها بالاحمرار. فأقبلت عليها رفيقاتها يسألنها عن حالها وسبب عاقتها، وقد لمنها على ذلك أشد اللوم. وتقدمت إليها أماليا أيضا وقالت: لم أكن أنتظر لك هذه النتيجة يا عزيزتي أدما، وكنت أود من صميم القلب أن تنالي أنت الجائزة وأخسرها أنا، ولكن هكذا شاء القدر، فيجب أن تتجلدي ولا تسترسلي في الحزن.

فنظرت أدما إليها نظرة توبيخ ولم تجر جوابا. وكانت قد شعرت بثقل وطأة الحزن والحرمان في نفسها وتحققت دناءة أماليا، ولكنها كتمت الأمر، فلم تبح للرفيقات بشيء من السر.

***

وبعد قليل، وكانت الطالبات لا يزلن مجتمعات ينتظرن نتيجة الحكم بالجائزة لإحداهن، عاد أستاذ الموسيقى وفي يده غلاف كبير وقال: قد حكم بالجائزة للآنسة أدما.

فبهتت الطالبات، وجحظت عينا أماليا، ولم تفهم أدما شيئا من هذا الكلام.

فقال الأستاذ: نعم، وهذه هي أوراقها.

ثـم ناولهـا الأوراق، فانتبهـت أدمـا كمـن حلـم ونظـرت إلى الأوراق التـي أخذتهـا فـإذا هـي أوراقهـا بعينهـا، وكان في يدهـا الأخـرى أوراق أخـرى لم تكـن تشـك في أنهـا أوراقهـا، فنظـرت إليهـا فـإذا هـي أوراق أماليـا، فأدركـت للحـال أنهـا تناولتهـا بـدلا مـن أوراقهـا هـي حينـما خرجـت تعـدو مـن الغرفـة وهـي ذاهبـة لعيـادة حبيبهـا. وإذ ذاك سـفرت لهـا الحقيقـة ولم تـدر كيـف تعتـذر لأماليـا، ولكنهـا تعجبـت كثـيرا لأن أماليـا نفسـها لم تنتبـه للأمـر فلـم تميـز بـين أوراقهـا وأوراق أدمـا حينـما أعطتهـا للأسـتاذ.

وكانـت أماليـا قـد أدركـت أيضـا الأمـر ووضحـت لهـا الحقيقـة، فانتفضـت شـديدا، وانقضـت كلـمات الأسـتاذ كالصاعقـة عـلى فؤادهـا، فاختطفـت أوراقهـا مـن يـد أدمـا ونظـرت فيهـا مليـا وهـي تشـعر بطعنـات الغـيرة في صدرهـا، وقـد تجسـمت أمامهـا خيبتهـا، ولكنهـا شـعرت أيضـا بأنهـا تسـتحق هـذه النتيجـة المـرة جـزاء لهـا عـلى مـا أضمـرت.

وكان الأسـتاذ قـد وقـع في حـيرة فقـال لهـا: سـآخذ أوراقـك أيضـا يـا أماليـا وأسـتأذن الادارة في فحصهـا كسـائر الأوراق، لأن المسـألة فريـدة في بابهـا وهـي الوحيـدة بـين المسـائل التـي مـرت عـلي، غـير أن الجائـزة الأولى قـد حكـم بهـا لأدمـا وقـضي الأمـر.

قـال هذا وأخذ الأوراق وانصرف.

وكانـت الطالبـات قـد تهللـت وجوهـن وامتـلأت صدورهـن حبـورا بمـا تـم، فاجتمعـن حـول أدمـا يهنئنهـا، وكانـت هـي قـد أشرق الـسرور في محياهـا فبكـت مـن شـدة الفـرح.

وعلـم بعـد ذلـك، أن الادارة سـمحت للأسـتاذ بفحـص انشـاء أماليـا وكانـت نتيجـة حكمـه عليـه أنـه ينحـط كثـيرا عـن انشـاء أدمـا، فهـي صاحبـة الجائـزة بـلا منـازع، ولـو لم يحـدث هـذا الغلـط في تقديـم الأوراق.

***

وعـادت أدمـا بعـد ذلـك إلى والدهـا فتلقاهـا بالبـشر والـسرور، وهنأهـا بفوزهـا وتحقـق آمالهـا. وبعـد أمـدٍ وجيـز زفـت إلى حبيبهـا جـان فعاشـت معـه بالسـعادة والرفـاء.

السَّعادة

روي أن ملـكا مـن الملـوك العظـام دعـا ذات يـوم إلى قـصره جمهـورا مـن علـماء عـصره وحكـماء بـلاده، وألقـى عليهـم السـؤال التـالي:

ماهي السعادة؟

فانـبرى أحدهـم فقـال: هـي أن تـرى عـلى الـدوام ضيـاء وجهـك الإلهـي، ونتمتـع بـشرف المثـول أمامـك؟

فقـال الملـك لعبيـده: اسـملوا عينيـه، لأني لا أريـد أن يـراني مثـل هـذا المـرائي المهذار.

ثـم تقـدم حكيـم آخـر وقـال: السـعادة هـي السـلطة، ولمـا كان مولانـا سـلطانا قـادرا فهـو إذا سـعيد.

فتنهـد الملـك وقـال بحـزن: بـل أنـا شـقي، لأني مصـاب بـالأرق، وليـس في سـلطتي الشـفاء مـن هـذا الـداء.

ثـم التفت إلى عبيده وقـال: اجدعوا أنف هذا الحكيم وأتوني بغيره.

فتقـدم حكيـم ثالـث وقـال، وهـو يرتعـد مـن شـدة الخـوف: إن السـعادة في الغنـى.

فقـال الملـك: ليـس مـن هـو أغنـى منـي، ومـع ذلـك أطلـب السـعادة فـلا أجدهـا.

وقـال لعبيـده: اربطـوا إلى عنقـه ثقـل رأسـه ذهبـا واطرحـوه في البحـر، فلعـل الذهـب يوحـي إليـه بالأفـكار الصائبـة.

وجـاء حكيـم رابـع كان مرتديـا اطـمارا باليـة فقـال: إني جائـع يـا سـيدي فأطعمنـي أكـن سـعيدا وأمجـد اسـمك في العـالم أجمـع.

فقـال الملـك لعبيـده: أطعمـوه، ولكـن أحشـوه بالطعـام حشـوا حتـى يكتـظ مـن الطعـام فـلا يطيـق التنفـس ويمـوت مختنقـا.

وجاء خامس وكان بدينا قويا فقال: السـعادة في الابداع.

وجـاء سـادس، وكان شـاعرا، نحيـف البـدن أصفـر الوجـه فقـال: بـل هـي في الصحـة.

فابتسـم الملـك وقـال لهـما: لـو كان الأمـر في يـدي لجعلتـك أيهـا الشـاعر تبتهـل إلى الآلهـة بعـد شـهر أن تمنحـك الالهـام والابـداع، ولجعلـت هـذا الجبـار الشـبيه بهرقـل يلتمـس مـن كل رائـح وغـادٍ شـفاء أسـقامه.

ثـم جـاء سـابع وقـد تزيـن بأزهـار النرجـس فقـال: السـعادة في الاضمحـلال والفنـاء.

فقـال الملـك لعبيـده: أسرعـوا فافصلـوا رأسـه عـن بدنـه، إذ لا راحـة لـه إلا في الاضمحـلال.

وتقدم ثامن فقال: السـعادة في حب النساء.

فقـال الملـك: أعطـوه مئـة حسـناء مـن نسـاء البـلاد وفتياتهـا، واسـقوه،

وهـن محدقـات بـه، جرعـة كبـيرة مـن السـم ليمـوت موتـا هنيئـا.

وجاء تاسـع فقال: السعادة في نيل الرغائب.

فقال الملك: وما رغبتك لتكون سـعيدا.

فامتقـع الحكيم ولم يحـر جوابا. فأمر الملك بدفنه حيا.

وجاء أخيرا حكيم عاشر فقال: السـعادة هي في جمال الفكر الانسـاني.

فحملـق الملـك وصـاح غاضبـا: ومـا هـذا الفكـر الـذي جئتنـا بـه؟ فتبسـم الحكيـم ولم يفـه بكلمـة.

وكان الملـك قـد أطـرق مفكـرا، ثـم رفـع رأسـه وأمـر بـزج الحكيـم في سـجن مظلـم تحـت الأرض.

***

وبعـد سـنة مـن تاريـخ ذلـك اليـوم جـيء بالسـجين، وكان قـد فقـد سـمعه وبـصره وهـزل جسـمه وخـارت قـواه. فقـال لـه الملـك: دعوتـك لأسـمع الآن كلامـك عـن السـعادة، فهـل أنـت سـعيد في حالتـك هـذه؟

فقـال الرجـل برزانـة: قلـت لـك أن السـعادة في جـمال الفكـر. فقـد سـجنتني في أعـماق الأرض، فلـم أر نـور الشـمس ولم أسـمع كلمـة آدمـي، ولكنـي وأنـا في السـجن كنـت سـعيدا لأن أفـكاري كانـت توحـي إلي بهـذه السـعادة، فكنـت أراني ملـكا غنيـا محبوبـا، وقـد أصبحـت أعمـى وأطـرش، غـير أني لم أكـترث لهـذا كلـه لأني كنـت سـعيدا بأفـكاري.

فقـال الملـك وهـو يـكاد لا يملـك نفسـه مـن شـدة الغيـظ: اعلـم أني بعـد خمـس دقائـق آمـر بشـنقك وأبصـق في وجهـك، لأرى كيـف تكـون سـعيدا بفكـرك، وأيـن يكـون هـذا الفكـر عندمـا تسـقط جثتـك عـلى الأرض وتـداس بالأقـدام.

فقـال الحكيـم: ولكـن الفكـر أيهـا المجنـون لا يمـوت، فهـو بـاق في هـذا الوجـود مـا دامـت السـماء سـماء والأرض أرضـا.

بلا سبب

نهض السيد سليم من نومه كئيبا مضطربا، كمن اضطهد أو أهين، وأخذ يخطر في بعض دهاليز المنزل وهو يتأفف ويتذمر، وأخيرا رفع صوته وصاح قائلا: يا للعجب! تقول الكلمة الواحدة ألف مرة في النهار، فلا يسمعها أحد. تقول أغلقوا الأبواب عند دخولكم إلى الغرف وخروجكم منها، فكأنك تخاطب حجرا. تقول لا تطرحوا شيئا على الأرض، فترى هنا ورقة وهناك علبة وفي هذا الدهليز مكنسة وفي ذاك منديلا، كأننا هنا في حانة أو خان. في المنزل عشرون خادما وخادمة، ولكن الترتيب مفقود والنظام غير موجود وقد اختلط الحابل بالنابل ... ومن هذا الذي يقرع الجرس مبكرا في مثل هذا الوقت؟

فقالت زوجته وكان اسمها سلمى: هذه الجدة أنيسة كفيلة ولدنا توما.

قال: وما شأنها عندنا في مثل هذا الوقت؟ ولكن لا عجب فهي مكسال وثرثارة مهذارة دأبها الدوران وشقشقة اللسان.

قالت: لله ما أغرب أطوارك! .. فأنت دعوتها، وأنت الآن تنهال عليها بمثل هذا الكلام.

قال: أنا لا أنال على أحد ولا أظلم أحدا، بل أتكلم بكل بساطة وحسن نية، ومع هذا فإني لم أكلمك بل قلت ما قلته لنفسي فما بالك تعرضتِ لي؟ ولكن لا عجب، فأنت امرأة ولا يروقك إلا المناوأة

والمشاكسة، شأن سائر بنات حواء اللواتي يقضين الساعات الطوال كل يوم، ولا عمل لهن إلا تنقص زيد وذم عمرو وانتقاد بكر ..، الزوج يجد ويتعب النهار كله كالثور، وامرأته شريكة حياته جالسة في بيتها تغتنم كل فرصة لتخاصمه، وهي إنما تفعل ذلك لتتلهى عن الضجر الذي يصيبها من جراء البطالة وعدم الشغل ... يكفي يا سيدتي! فأنت الآن زوجة ووالدة، لا تلميذة مدرسة ولا طفلة صغيرة .. مالي أراك تتذمرين وقد قطبت وعبست؟ كأن سمعك ينبو عن مثل هذه الحقائق المرة!

قالت: ولكني أتعجب لأنك تعمدت ذكر هذه «الحقائق المرة» عفوا بلا سبب.

قال: فإذا أنت تريدين المخاصمة وترومين تمثيل بعض الأدوار المشهورة!

قالت: ماذا اعتراك؟ كأني بك شربت مسكرا ليلة أمس، أو خسرت مبلغا كبيرا من المال، وتريد الآن أن تنتقم مني؟

قال: وماذا يهمك أنت إن شربت أو خسرت؟ فهل تريدين أن ترغميني على رفع بيان بأعمالي اليومية إلى سدتك الملكية؟ فالمال الذي أخسره هو مالي، وأنا حر فيه، وليس لأحد أن يناقشني الحساب.

واستمر السيد سليم في كلامه هذا وهو يخطر ذهابا وايابا ويزداد تهيجا واضطرابا، إلى أن اجتمع أهل البيت لتناول طعام الغداء، وجلست بينهم الجدة أنيسة فجلس إلى المائدة بإزائها، وما كاد يتناول أول ملعقة من الحساء حتى أظهر اشمئزازا، فرمى الملعقة من يده

وقـال: يظهـر أنكـم تريـدون أن أتنـاول طعامـي في الفنـدق!

فقالت سـلمى: كيف ذلك؟ وهل الحسـاء غير صالح للأكل؟

قـال: لم أذق في زماني كله حسـاء أردأ منـه، فرائحته كريهة وملحه كثير.

ثـم التفـت إلى الجـدة أنيسـة وقـال: كل يـوم أدفـع مبالـغ باهضـة للإنفـاق عـلى المنـزل، ومـع هـذا كلـه فأنظـري مـاذا يقدمـون إلي!، لعلهـم يريـدون أن أسـتقيل مـن خدمتـي لأقـضي أوقـاتي في المطبـخ وأنـوب عنهـم بإصـلاح الطعـام.

فقالـت المربيـة، واسـمها بربـارة، وكانـت جالسـة إلى المائـدة: إن الحسـاء اليـوم جيـد وطعمـه لذيـذ.

فقاطعهـا السـيد سـليم حانقـا: لعلـه كذلـك أيتهـا الأنسـة في ذوقـك، وأمـا أنـا فلسـت أراه صالحـا إلا للخنازيـر .. والظاهـر أن بـين أذواقنـا بونـا عظيـما. فتومـا مثـلا (وأشـار بيـده إلى أحـد أبنائـه وكان ابـن سـبع سـنين) يعجبـك كثـيرا بسـلوكه، أمـا أنـا فـأرى غـير ذلـك.

ولمـا سـمع تومـا كلام والـده ارتعـد مـن الخـوف وأطـرق وجـلا وامتنـع عـن الأكل.

فقـال السـيد سـليم: نعـم إن تومـا يعجبـك، حالـة كـوني لا أسـتطيع أن أكتـم عـدم رضـاي عـن سـلوكه، ولا أعلـم مـن منـا المصيـب في زعمـه، غـير أني كأب أعـرف منـكِ بابنـي .. انظـري إليـه، فهـل يليـق بـالأولاد المهذبـين أن يجلسـوا إلى المائـدة كـما يجلـس هـو؟

ولما قال هذا نظر إلى ابنه شزرا وانتهره قائلا: اجلس جيدا أيها الولد الرديء!

فانتفض الطفل خوفا وتململ في كرسيه وترقرقت الدموع في عينيه.

فقال الأب: كل .. امسك الملعقة جيدا .. ارفع نظرك وكف عن البكاء وإلا فإنك ستنال مني عقابا اليما.

فامتلأت عينا توما دموعا وكان يجتهد أن يرفع نظره إلى أبيه ويتجلد، ولكنه لم يقو على ذلك، فأجهش بالبكاء وتساقط الدمع من عينيه غزيرا.

فاستشاط أبوه غيظا وصاح به قائلا: إذا تأبى أن تسمع الكلام! أذنبت وتبكي؟، فأغرب أيها الحيوان من أمامي وقف هناك في تلك الزاوية.

فقالت سلمى، وقد شعرت بجفاف في حنجرتها: دعه يتناول طعامه أولا ثم عاقبه بعد ذلك، إذا كان لا بد من العقاب.

فضرب سليم المائدة بيده وقال: بل يجب أن يبقى بلا طعام، لأن ولدا رديئا نظيره لا يستحق أن يأكل مع الناس.

وكان توما قد ترك المائدة وأسرع إلى حيث أشار أبوه وقد عرته هزة الرعب.

وواصل أبوه كلامه فقال يخاطبه مهددا: سترى بعد الآن كيف تكون

معاملتك أيها الولد المتمرد .. وقد ظهر لي بكل جلاء أن الذين يجب أن يعنوا بتربيتك قد أهملوا ذلك كل الاهمال، وتركوا لك الحبل على الغارب، فعدت لا تعي ماذا تفعل، وقد فسدت سيرتك وساءت أخلاقك .. إن أباك يكد ويتعب لأجلك، وأنت لا يهمك شيء من هذا كله.

فقالت سلمى بصوت خافت، وهي تحاذر أن يسمعها أحد من الجلوس: يكفي ما أظهرته من البراعة حتى الآن، فلسنا وحدنا هنا، وهذه الجدة أنيسة قد رأت وسمعت منك ما لا يمكن أن تسمعه من سواك من أرباب الأسر، ولا يلبث الأمر أن يذيع ويتناقله كل الجيران.

فقال سليم وقد رفع صوته وقدحت عيناه شزرا: أنا لا يهمني أحد في هذا الوجود، والجدة أنيسة قد أدركت بلا ريب أني مصيب وأنت المخطئة .. وماذا تريدين يا سيدتي أن أفعل؟ أأسكت عن مثل هذا الصبي الشرير وأتركه يتمادى في عيوبه وشروره؟ انظري إليه، فهو على رغم كل توبيخي له لا يزال يبكي.

ثم التفت إلى توما وصاح مزمجرا: تظن أيها الحيوان أن دموعك تخيفني أو تحملني على الشفقة عليك!، لا .. إني أعرفك أتم المعرفة وأريد أن أؤدبك التأديب الذي يليق بك ويصلح ما أفسده غيري في نفسك .. أنت لا تدري كم أتحمل من النفقة عليك .. ولعلك تظن كغيرك من الجالسين هنا أني أحصل على المال من أهون سبيل، أو أنه ينصب علي انصبابا كأنه من مزراب.

وكان توما لا يزال يبكي، وقد احمرت مقلتاه واتقدت وجنتاه، فكان ذلك أدعى إلى غضب والده عليه، فرعد وبرق وصاح قائلا: لم يبق إلا أن أنهض وأستخدم العصا في تأديبك .. قالوا إن العصا من الجنة وقد أصابوا، فهي أنجح دواء لما أنت فيه من العتو والعصيان.

فلما سمعت سلمى هذا الكلام رمت الملعقة من يدها ونهضت عن المائدة، وأسرعت إلى مخدعها وهي تبكي وتقول: يا لك من أب ظالم!، يا لك من مرب غشوم!، تريد أن تصب جام غضبك على رأس هذا الطفل المسكين، وليس له من ذنب يؤخذ به ولا جريمة يعاقب عليها، وما ذنبه إلا أنه صغير ضعيف وأنت كبير قوي، وقد نسيت أنك أبوه وأنه ابنك وفلذة كبدك.

ولم يكن هذا الكلام ليقف بالسيد سليم عند الحد الذي بلغه، فالتفت إلى الجدة أنيسة وقال وهو يتكلف الابتسام: لقد غضبت علي .. فما أرق عواطفها! .. ولكني لم أقل إلا الحقيقة، والحقيقة تجرح.

وساد السكون بعد ذلك. وكان سليم قد حانت منه التفاتة إلى الصحاف فرآها لا تزال ملآى بالحساء، وقد كف الجلوس عن الأكل، فالتفت إلى المربية وقال: لماذا لا تأكلين يا سيدتي؟ يظهر أنك أنت أيضا غاضبة علي لأني قلت الحقيقة .. بل يظهر أن وجودي بينكم قد أدى إلى كل ذلك، لأنكم كلكم قد كففتم عن الطعام والكلام، فلا تبتئسوا، فهأنذا ذاهب من هنا لتأكلوا وتشربوا هنيئا مريئا دون أن يهمكم أمري.

ولما قال هذا نهض ومشى إلى جهة الباب، ولما وصل إلى حيث كان توما واقفا لبث قليلا وقال له: أرأيت أيها الولد الشرير نتيجة قحتك وتمردك؟ .. غير أني قد نفضت يدي من تربيتك وتقويمك، فاسترح وامرح على هواك، إذ لست بعد الآن مسؤولا عنك، وليهتم بك غيري. نعم لتهتم بك والدتك ومربيتك.

حجر الألماس

حدث ما يأتي في عهد بوذا العظيم، وقد جلس ذات يوم هو وتلاميذه في ظل بعض الأشجار الغبياء، وكان الوقت مساء، وقد خفت وطأة الحر، وآذنت الشمس بالمغيب، وهب من الجبال النسيم العليل.

وكان غوتاما (بوذا) قد أعلم منذ الصباح جمهور تلاميذه أنه يريد الإنفراد في الجبال البعيدة، فانقبضوا ووقع هذا الخبر أسوأ وقع في نفوسهم، فقضوا يومهم في حيرة وحزن، وجاءوا مساء إلى حيث كان المعلم وقالوا له: أيها المعلم العظيم! إن آثامنا كثيرة ولا مرشد لنا سواك فكيف تريد أن تتركنا؟ ابق معنا وبيننا يا معزي الحزاني وناشر لواء الاصلاح.

قالوا له ذلك وهم جاثون عند قدميه يبكون، وبوذا ينظر إليهم صامتا متألما، وقد سكن ضوضاء النهار وخيم سكون الليل.

وعاد التلاميذ فقالوا: أنت تريد أن تهجرنا، فماذا يكون عملنا بعدك؟ وإذا كان لا بد من ذهابك فأعطنا نورا يهدينا الصراط القويم.

فلم يحر بوذا جوابا. ولبث صامتا متأملا إلى أن اكتسى الشرق بلون الأرجوان وبدت طلائع الفجر، فعاد من ذهوله وقال لتلاميذه: أنتم تريدون نورا، فدونكم!

قال ذلك وأخذ بيده فحمة وناولها أحد تلاميذه، وكانت أشعة الشمس قد انتشرت وأصاب بعضها تلك الفحمة، فتألقت تألقا باهرا،

ونظـر التلاميـذ فـإذا الفحمـة قـد أصبحـت حجـرا مـن الالمـاس فدهشـوا وجمـدوا في أماكنهـم.

فقـال بـوذا: كونـوا كهـذا الحجـر الكريـم نقـاوة تنكشـف لكـم الحقيقـة، وهـي النـور الـذي يضيـئ لكـم في ظـلام هـذه الحيـاة ويهديكـم أقـوم سـبيل فيهـا. إني قضيـت العمـر باحثـا عـن الحقيقـة، وقـد التمسـتها في الطبيعـة وبـين النـاس، ولكنـي لم أجدهـا.

قالوا: فإذا أين هي؟

قـال: هـي هنـا في قلبـي، هـي في نفسي. نقـوا أنتـم أيضـا ضمائركـم واصرفـوا أبصاركـم عـن حـب النسـاء تسـتنر بصيرتكـم وتشـعروا بالنـور في نفوسـكم فتجـدوا الحقيقـة، وهـي أجمـل وأبقـى مـا في هـذا العـالم، وكل مـا سـواها باطـل زائـل. ومتـى وجدتموهـا أدركتـم أن الحيـاة شر، وأنهـا حـزن، وأنهـا والمـوت واحـد، وتعلمـون أنـه لا سـعادة إلا في الراحـة، ولا راحـة في المـوت، لأنـه بـدء حيـاة جديـدة. كونـوا شرفـاء وودعـاء، أحبـوا العـدل والحقيقـة والخـير، أحبـوا قريبكـم واعضـدوه، وقابلـوا الـشر بالخـير. هـذا هـو طريـق السـعادة، هـذا هـو طريـق الراحـة، اسـلكوا هـذا الطريـق تبلغـوا السـعادة التـي تنشـدونها.

قـال بـوذا ذلـك ونهـض فأجـال نظـره في تلاميـذه ثـم ودعهـم، وأخـذ يبتعـد عنهـم إلى أن تـوارى عـن أبصارهـم. وتفـرق شـمل تلاميـذ بـوذا بعـد ذلـك فلـم يبـق منهـم في بـلاد بورمـا إلا واحـد، وهـو الـذي أخـذ حجـر الالمـاس مـن المعلـم، وكان يقـضي أوقاتـه منفـردا في الجبـال يبحـث عـن السـعادة في

تلك العزلة ويأوي إلى الكهوف. ومرت السنون وهو في حياته تلك إلى أن ذاع أمره وتناقل الناس أخبار زهده وقداسته، فأقبلوا إليه من كل حدب ليسمعوا تعاليمه ويسترشدوا بأقواله.

وفي أحد الأيام جاءت فتاة يقال لها «لا كشمي» تحمل إليه طعاما، فرأته جالسا وحجر الالماس في يده وهو يقلبه ويتأمل في محاسنه، فقالت مبهوتة: ما أجمل هذا الحجر الكريم وما أشد لمعانه؟ إنه كالنجم ضياء! فأين وجدته أيها الأب القديس؟ وهل أنت في حاجة إليه؟

قال: نعم يا ابنتي، فقد أعطانيه بوذا نفسه لأبدد به غيوم الشكوك والأحزان وأتعلم ما هي النقاوة .. فأنا في حاجة إليه، وأما أنت فلا يعوزك شيء من ذلك لأنك طاهرة نقية، ولم تدب إلى نفسك شكوك العالم بعد، لأنك لا تزالين طفلة وليس للحزن سبيل إلى قلبك .. ولكن ما هذا؟ إني أراك باكية! فمن ظلمك، ومن أحزن نفسك أيتها الجميلة بين العذاري؟ فهل أحببت ولم يبادلك حبيبك الحب؟ ولكنك أجمل من الزهرة النابتة في أحسن تربة مباركة. فلا ينفعك هذا الحجر، لأنك محبة والِهة، وليس الحب سعادة كما تظنين، بل هو سكرة وذهول، وأما السعادة فهي في الراحة، كما قال بوذا، وليس في الحب، فاحفظي تعليم بوذا تنالي ما أنت راغبة فيه من السعادة ويتجدد دمك في عروقك فيصير نقيا، وتنقي نفسك من أدران الشكوك فتتألق كما يتألق هذا الحجر العجيب الذي أحرص عليه أشد من حرصي على نفسي.

قالت: وماذا ينبغي لي أن أعمل لأحظى براحة النفس وسعادة الحياة؟

قال: عودي في طريق النهر الذي اجتزته وأنت قادمة إلى هنا تجدي بالقرب منه ديرا قديما فادخليه وأعملي بحسب ما يلهمك قلبك.

***

وكان الدير الذي أشار إليه الناسك قائما بالقرب من نهر ينساب بين مروج وغياض، وحوله مغروسات كثيرة وأزهار جميلة يفوح أريجها، فيملأ تلك البقعة سرورا وهناء.

وكان من عادة «لا كشمي» في حياتها الجديدة في ذلك الدير أن تخرج كل صباح فتجول بين تلك الأزهار، ولكنها كانت تشعر كأن تلك الأزهار الجميلة تدعو قلبها إلى الحب، فتضطرب وتعود أدراجها إلى الدير أو تذهب إلى المدينة القريبة فتزور الفقراء وتعود المرضى وتغيث البؤساء، وترجع في المساء فتمر بالأزهار تحدثها عن الشر والجوع والفقر والخوف، وترف الأغنياء المستبدين وضنك الفقراء المعوزين. وكأن الأزهار كانت تعي كلامها، فيمتلئ البنفسج دموعا، وينظر الورد الأحمر متأثرا إلى عينيها، وتمتد الزنابق وقد هز النسيم أعطافها إلى شفتيها كأنها تريد أن تقف على غوامض أسرارها وتستشف مكنونات قلبها.

غير أن لا كشمي لم تكن لتكترث للأزهار وهي عائدة من المدينة، لأن خواطر كثيرة كانت تثقل رأسها وقتئذٍ، ولعل مصدر تلك الخواطر

ما كانت تراه من شقاء البشر ومصائبهم وأحزانهم، ولم يكن لأحدٍ أن يسري كربها، لأن الناسك كان بعيدا. ولما كانت تضيق ذرعا بحالها كانت تأتي إلى ضفة النهر القريب من الدير وتبكي بكاء مرا، فتنحدر دموعها إلى النهر وتتحول في الحال إلى لآلئ يحملها ذلك النهر إلى البحر فتمتزج بمائه.

سكبت لا كشمي من مقلتيها دموعا كالمطر الغزير في أوان الشتاء، غير أن ذلك لم يخفف ما بها ولم ينلها الراحة، وكأنها كانت تكتم سرا خفيا وتحرص عليه حرصها على حياتها، وهذا السر أطفأ في نفسها النور وأفقد بصرها بهاءه.

***

ورأت لا كشمي على ضفة النهر ذات يوم صيادا في نضارة الشباب قد ألقى شبكة في الماء ثم أخرجها فنظر إلى ما فيها من السمك، وعاد فألقاها ثانية والسمك لا يزال فيها، فدنت لا كشمي منه وقالت: ماذا تعمل يا هذا؟ فما هكذا يصاد السمك.

قال: إني لا أصيد سمكا بل سعادة. فقد قال لي الكهنة منذ أيام أن السعادة يجب أن تصاد .. ولكنني علمت الآن أنهم مخطئون فيما زعموا، لأني لم أجد سعادتي في الماء بل على اليابسة، وجدتها عندما نظرت إليك. فمن أنت ومتى ولدت أيتها الزنبقة البديعة بين الأزهار؟ إنك جميلة كالشفق في أيام الربيع، وأنت مصدر كل سعادة وهناء على هذه الأرض.

قالت: أنا فتاة من بلاد بعيدة واسمي لا كشمي.

قال: بل أنت آلهة الجمال ومعبودة البشر.

فصبغت وجنتا لا كشمي بلون القرمز وتحولت بوجهها عن الفتى تريد الانصراف، فاستوقفها وقال: مهلا أيتها الجميلة بين النساء فلا تنفري مني كالظبية الجافلة، لأني أحببتك وشعرت بالسرور يملأ نفسي وأنا أنظر إليك.

فارتعشت لا كشمي وشعرت بارتياح في نفسها إلى كلام الفتى، فلم تنفصل عنه إلا بعد أن غربت الشمس وساد الظلام.

ورقدت الحسناء في سريرها في الدير تريد النوم، ولكن أنى لها ذلك وقد تمثل لها الفتى الصياد في أحسن صورة وراقتها مناجاته في خلوتها .. وكان البدر يسبح في القبة الزرقاء، وقد أناب عنه بعد غيابه النجوم لترعى الفتاة الجميلة في سريرها.

***

ومضت بعد ذلك الأيام ولا كشمي هائمة بالصياد كما هام هو بها، وكانا يجتمعان في أكثر الأحيان والحب يزداد رسوخا في قلبيهما، غير أن لا كشمي لم تلبث أن خامرها الشك فيما زعمه الناسك عن السعادة. وانطلقت إليه في أحد الأيام، فرأته في مكانه حيث رأته أولا.

فرحب بها وأجلسها على حجر بإزائه وسألها عن حالها، فقالت: لقد امتثلت أمرك وسلكت الخطة التي رسمتها لي، فوقفت نفسي على

خدمة القريب، وقد تألمت كثيرا ولكني لم أجد راحة ولا سعادة، وأخيرا أحببت.

فقال لها الناسك: إن الخطة التي أرشدتك إليها هي ما تعلمته من المعلم العظيم، وهي صعبة كما رأيت ولا يدركها إلا النفر القليل من بني البشر، فهاتي يدك لأرى دمكِ.

فمدت الفتاة يدها فجرحها جرحا لطيفا، وإذا ببعض قطرات من الدم قد تدفقت من الجرح وكانت نقية صافية. فطأطأ الناسك رأسه وقال يخاطب روح بوذا: لقد قلت أيها المعلم العظيم أن السعادة في الراحة، ولكن سعادة الفتاة هي في الحب، وها أن دمها كهذا الالماس نقاء وصفاء، وهو أكبر شاهد على ما أقول.

ثم التفت إلى لا كشمي وقال: وأنت يا ابنتي فاعلمي أن الحب قد نقاك، فظفرت بسعادة الحياة.

ولكنه لم يكد يفرغ من كلامه حتى ظهرت له روح بوذا، وقالت له: ليست السعادة في الحب، لأن الحب ذهول عارض لا يلبث أن يزول، وأما السعادة فهي في الراحة

المذنب الصغير

كان جورج ابن سبع سنين، وهو كثير الحركة متوقد الذهن، لا يكاد يرى شيئا إلا وسأل عنه بكل اهتمام، ولا يسمع حديثا إلا وينصت إليه بمزيد الانتباه، ثم يحفظه ويرويه لأترابه ووالدته. وكان يسكن مع والديه وأخته في منزل رحب ويعيش في سعة ورفاهية، وكان جميع أهل المنزل يحبونه ويعجبون بذكائه وظرفه ويأملون له نجاحا كبيرا في مضمار الحياة.

وفي صباح أحد الأيام دخل جورج ردهة الاستقبال فرأى مرثا خادمة المنزل تغسل نوافذ الردهة وزجاجها بعد أن كنست أرضها ونظفت جدرانها، فأجال طرفه قليلا في الغرفة ثم قال للخادمة: أنظري إلى تلك الزاوية يا مرثا فقد نسيت فيها شيئا.

فالتفتت إليه الخادمة وقالت باهتمام: وما هو هذا الشيء الذي نسيته يا سيدي الصغير.

قال: هو بيت عنكبوت .. ألا ترينه معلقا بين ذينك الجدارين، أو لعلك شخت فلا تبصرين شيئا؟

فقطبت الخادمة وقالت عابسة: وأنت مالك وللمداخلة في ما لا يعنيك؟ انصرف من هنا ولا تعقني.

فاغتاظ جورج وقال: حسن، فسأذهب الآن وأشكوك إلى والدتي.

قالت: ولكن أين بيت العنكبوت الذي تشير إليه؟

قال: هو هناك في تلك الزاوية.

فأخذت مرثا مكنسة طويلة وكسحت بها بيت العنكبوت في المكان الذي أشار إليه جورج، فسقطت منه عنكبة صغيرة إلى الأرض، فركض إليها جورج وأمسكها ووضعها في علبة صغيرة كانت في جيبه، ثم خرج مسرورا وذهب إلى غرفة المائدة حيث كانت أخته نجلاء ومرضعه مريم جالستين منهمكتين في إعداد بعض الحلاوي استعدادا لعيد مقبل.

فقال لمرضعه: هل تريدين أن أريك ما في هذه العلبة؟

قالت: وما فيها أيها الحبيب؟

قال: رتيلاء، صغيرة جميلة للغاية.

فلما سمعت شقيقته هذا الكلام تركت ما كان بين يديها من العمل ونظرت إليه بابتسام كأنها غير مصدقة كلامه، فدنا جورج إليها وأدنى العلبة من وجهها، ثم فتحها فجأة فذعرت أخته وقهقه هو ضاحكا.

وإذ ذاك دخلت والدته ولوائح الاهتمام بادية في وجهها، فبادر إليها جورج يقول، وهو يترنح سرورا: أنظري يا أميمتي ما أجمل هذه العنكبوت!

وأراد أن يفتح العلبة ثانية، فزجرته والدته بقولها: لا وقت لي لأسمع هذرك، ولا أريد أن تعوق أختك ومرضعك عن شغلهما بمثل هذه

الدويبة المضرة التي تحملها، فاطرحها إلى الأرض ودسها بقدمك، وأخرج من هنا إلى حيث تشاء بشرط أن لا تعود فتشغلهما عن العمل.

فاحمر جورج خجلا وقال: سأخرج يا والدتي ولكني لا أريد أن أقتل هذه العنكبوت لأن القتل حرام.

وخرجت الوالدة مسرعة إلى المطبخ، ولبث جورج واقفا في مكانه. فقالت له المرضع: وهمت في قولك أيها العزيز لأن من يقتل عنكبوتا يغفر له أربعون ذنبا.

فبهت الصبي وقال: وإذا قتل أحد عنكبوتين؟

قالت: يغفر له من ذنوبه أربعون وأربعون.

فقالت نجلاء بجد واهتمام: أي يغفر له ثمانون ذنبا.

ففكر جورج قليلا ثم وضع العلبة في جيبه وقال لمرضعه: إذا كان ما تقولينه صحيحا فلماذا تصومين وتصلين كثيرا؟ اقتلي من العناكب اثنتين أو ثلاثا فيغفر الله لك كل ذنوبك بدون أن ترهقي نفسك بالصوم والصلاة نهارا وليلا.

فارتبكت مريم وقالت: ولكن ذنوبي لا تحصى أيها الحبيب.

قال: والعناكب أيضا لا تحصى، فهي كثيرة في بيتنا وفي بيوت جيراننا، فامسكي منها على قدر ذنوبك واقتليها، فيغفر الله لك هذه الذنوب مرة واحدة، ولا تبقى لك حاجة إلى غير ذلك.

فتشاغلت المرضع بما بين يديها من العمل وقالت: الآن تعود والدتك إلى هنا فتراك وتستاء منك.

وكان جورج قد لذ له هذا الحديث فلبث واقفا متأملا ثم قال: ولكني أرجو مرضعي العزيزة أن تقول لي، أصالح أنا أم خاطئ؟

فضحكت مريم حتى بانت نواجذها وقالت: أنت طفل بعد وليس فيك خطيئة البتة، لأنك كملائكة السماء طهارة، وكالقديسين نقاوة.

قال: بيد أني أكلت البارحة تفاحة بدون إذن والدتي، فقلتِ لي أن ذلك خطيئة، وقد دخلت منذ خمسة أيام غرفة والدي وصببت الحبر على بعض أوراقه، ثم شتمت شقيقتي نجلاء، وعصيت أمر والدتي فقاصتني، ودعوت الخادمة حمقاء ومجنونة، وكسرت أمس قدحا كبيرا، ولما سألتني والدتي عنه حاولت تبرئة نفسي والصاق الذنب بغيري فلم أنجح ... هذه سبعة ذنوب فعلتها في مدة قصيرة، وأنت مع ذلك تقولين أني ملاك وقديس.

وما كاد يتم كلامه حتى سمع وقع أقدام والدته، فانسل من غرفة الطعام وذهب فوقف في بعض دهاليز البيت وهو يتأمل في ما سمعه من الكلام، إلى أن صمم أخيرا على قتل العنكبوت تذرعا إلى نيل غفران ذنوبه. ففتح العلبة ورمى العنكبوت إلى الأرض ثم داسها بقدميه وجثم على الأرض كئيبا يتأمل فيما آلت إليه حالة هذه الدويبة المسكينة.

وإن هو لكذلك إذ مرت والدته فرأته منبطحا على الأرض، فاستشاطت

غيظا وتقدمت إليه وهي تعنفه تعنيفا شديدا، ثم أخذته بيده ودفعته بعنف إلى غرفة النوم وانصرفت لشأنها.

وكان لكلامها تأثير شديد في شعور جورج اللطيف، فخجل من نفسه وسالت الدموع من عينيه وهو يحاذر أن يسمع أحد صوته. ثم بلغه أم سليمة ابنة أحد الجيران جاءت تزورهم، وقد جلست في غرفة الطعام تتحدث هي وأخته ومرضعه، وكانت هذه الفتاة ابنة اثنتي عشرة سنة، وكان جورج يحبها لأنها كانت تسليه بقصصها وتدعوه عريسها. فلما سمع صوتها الآن خشي أن تسمع من شقيقته أو من مرضعه بما كان من اهانة والدته له، ولذلك تنصت فسمعهن يذكرن اسمه، ثم سمع أخته تقص على رفيقتها الحديث كله، وسمع سليمة تقول: ولكن جورج الآن، فأنا أريد أن أراه.

كان جورج يسمع كلامهن وقد حبس نفسه لئلا تفوته كلمة، وقد ظهرت عليه علامات الحياء وعزة النفس، وشعر بارتياحه إلى البكاء، ولكنه خشي أن تأتي سليمة فتراه باكيا. وفيما هو حائر في أمره وقع نظره على خزانة الثياب، فأسرع واختبأ فيها وأطلق لدموعه العنان.

وكانت شقيقته قد نهضت لتبحث عنه، فدخلت غرفة النوم وسمعت حركة في الخزانة، فتأكدت وجود أخيها فيها، فبادرت وفتحتها وهي تقول: أخرج من هنا لأن الخزانة ليست مخبأ تلتجئ إليه، وعسى أن لا تكون قد أتلفت ثوبي الجديد.

فقال جورج: إذهبي من أمامي فلست بخارج الآن.

قالـت: لا بل تخرج في هذه الدقيقة.

ثـم أسرعـت مـن سـاعتها فنـادت المرضـع وأخبرتهـا بمـا جـرى، فجـاءت تتبعها سـليمة وهـما تضحـكان، ثـم تقدمـت المرضـع ففتحـت الخزانـة وأخرجـت جـورج قـسرا، فخـرج وقـد صبـغ وجهـه بحمـرة الخجـل وانهـل الدمـع مـن مقلتيـه، فتقـدم إلى شـقيقته وقـال لهـا: إنـك حمقـاء ومجنونـة، مجنونـة وحمقـاء .. وأنـا أريـد أن أشـتمك وأشـتم مرضعـي أيضـا ثلاثـين مـرة، لأني قتلـت اليـوم عنكبوتـا، فـلا إثـم لي ولا حـرج عـلي.

ثم خرج من الغرفة وهو يصخب ويشـتم بملء فيه.

زوجة نادرة المثال

حدث أحدهم عن نفسه قال:

لا أظن أحدا من المتزوجين ذاق لذة الحياة الزوجية كما ذقتها أنا، فقد قضيت بضع سنوات من حياتي مع زوجتي العزيزة ونحن على أتم ما تتوق إليه النفس ويلذ به القلب من صفو الحياة ورغدها كأننا في نعيم مقيم.

إن زوجتي نادرة من نوادر النساء، فهي على أعظم جانب من الجمال الرائع والخلق الحسن والعلم الكثير والعناية النادرة بي. لا تراها في أكثر ساعات نهارها إلا مشتغلة بشؤوني مفكرة في أسباب راحتي، تهيئ لي أحسن الأطعمة وتكسوني أجود الملابس، وتعنى بساعات عملي وتراقبني أفضل مراقبة كما تراقب الظئر الرؤوم طفلها أو الطبيب الحاذق عليله.

وقد جاوزت عنايتها بي كل حد، حتى أنها صارت تخيط لي بيديها الناعمتين بعض ما تراني هي في حاجة إليه من أنواع الملابس، وتصلح لي بنفسها بعض المآكل المغذية والمشروبات الصحية المقوية، وتبذل غير ذلك من ضروب العناية التي أصبحت بفضلها سعيدا، ولم يبق لي من هم إلا أن أقتات بأطيب الأطعمة وأرقد في أوثر الفرش وأرتدي أفخر الملابس وأتنعم مليا بهذه اللذات.

وهاءنذا أقص على القارئ بعض حوادث حياتي السعيدة، ليرى الفرق

بيني وبين غيري من الأزواج المنكودي الحظ، وبين زوجتي وغيرها من النساء اللاتي يجهلن معنى الحياة.

***

توقظني زوجتي كل يوم الساعة السابعة صباحا، فلا يقع بصري إلا على أجمل الصور، ولا تسمع أذناي إلا أعذب الأصوات. ولولاها لكنت أستغرق في النوم بعض الأحيان إلى الساعة الثامنة أو التاسعة صباحا، ولا يكون لذلك من نتيجة إلا وصولي إلى محل عملي متأخرا عن الوقت المعين لحضوري، وعدم رضى رؤسائي عني. ثم تتأبط ذراعي وتأخذني إلى غرفة الطعام حيث تكون قد أعدت لي فنجانا من قهوة الشعير، لأنها لا تريد أن أشرب القهوة العادية كما تشربها هي، وذلك اجتنابا لتأثيرها السيئ في أعصابي. وقد سألتها مرة: وأنتِ يا عزيزتي لماذا لا تشربين من قهوة الشعير هذه؟ أفلا تخافين على نفسكِ؟ .. فقهقهت ثم قالت: أنا أمكث في البيت طول النهار، ولا تتعرض أعصابي لتعب أو انزعاج عقلي، كما تتعرض أعصابك أنت في محل شغلك، فلا أريد أن تزيد عليها تأثير شرب القهوة العادية ... وكانت تمنعني من أكل الزبدة والمعجنات على أنواعها، مع شدة ميلي إليها، قائلة لي عادة: إن هذه المأكولات تلبك المعدة لأنها عسرة الهضم، فأنا لا أريد أن تذوقها لأنك من رجال المملكة وحياتك ثمينة للأمة.

ـ ولكنكِ تأكلين منها أنتِ!

ـ لا بأس علي لأني امرأة، فاذا مرضت أو قصرت حياتي فليس في ذلك

خسـارة للوطـن.

... مـا أطيـب قلـب هـذه المـرأة وأغـزر علمهـا وخبرتهـا! حقـا إنهـا نـادرة المثـال، منقطعـة النظـير.

وكانـت لي عـادة أن أفكـه نفـسي بعـد طعـام الصبـاح بمطالعـة احـدى الصحـف اليوميـة، فلـم تستحسـن زوجتـي هـذه العـادة لأنهـا رأتهـا مـضرة بصحتـي، ومـا زالـت تبـين لي مضارهـا حتـى أقلعـت عنهـا، وعـدت لا يهمنـي شيء مـن شـؤون السياسـة وأخبـار الأمـم.

ولمـا كنـت أهـم بالخـروج إلى عمـلي كانـت زوجتـي تنهـض وتأخـذ في إلباسي، فكنـت أقـف في وسـط الغرفـة صامتـا خاضعـا لأوامرهـا، وهـي تلبسـني مـا تـراه ضروريـا لحالـة الجـو في ذلـك النهـار، ولكنهـا كانـت تلقـى عـلي مـن الأردیـة مـا لا يجهـز بـه إلا مـن كان مزمعـا عـلى السـفر إلى القطـب الشـمالي، وكانـت تقـول لي وهـي تلبسـني: يهمنـي أن أعنـى بصحتـك قبـل كل شيء لتظـل صحيحـا معـافى قـادرا عـلى العمـل أمـدا طويـلا.

وقـد اعتـدت أن لا أعترضهـا في شيء، مـع أني كنـت أبـدو في هـذه الأردیـة أشـبه شيء بأحـد رجـال الاسـكيمو الذيـن يسـكنون الأصقـاع الجليديـة، ولكنـي لا أكتـم عـن القـارئ أني كنـت لا أسـير بضـع خطـوات وأنـا في تلـك الملابـس الثقيلـة حتـى يأخـذ العـرق يتصبـب مـن كل جسـمي، فأصبـح كالإسـفنجة المغموسـة في المـاء.

وكنـت القـى بعـض رصفـائي في الطريـق، فأراهـم يسـيرون بنشـاط وسرعـة

وليس عليهم من الملابس إلا كل خفيف، وكثيرا ما كنت أرى ابتسامة غريبة على وجوههم وأسمع بعض ألفاظ الاستخفاف بي، فأتجاهل الأمر وأقول في نفسي: إنهم لا يفقهون سر الحياة كزوجتي وليس لهم نساء يهتممن بهم.

وكانت زوجتي ترسل إلي بطعام الغداء إلى محل شغلي من المآكل المغذية كالبيض وغيره، فكنت أحيانا أميل إلى مشاركة رصفائي في طعامهم أو أبتاع بعض الأشياء التي لا أجسر على أكلها في البيت. ولكن زوجتي كانت تعلم بما يكون وتظهر قلقا عظيما، فأندم على ما فعلت وأعترف لها بالحقيقة وأعدها بعدم الرجوع إلى مثل هذا الخطأ مرة أخرى.

وكان رصفائي إذا رأوا احجامي عن مشاركتهم في طعامهم ورأوا ما تعده لي زوجتي كل يوم يظهرون الدهشة والاستغراب، ثم الضحك والاستخفاف، إلى أن آل بهم الأمر أخيرا إلى أن صاروا يلقبوني بالحشرة، وينعتوني بما شاءوا من نعوت الاحتقار، بيد أني لم أكن لأبالي بهم، لأنهم على غير هدى في ما يزعمون.

***

وكانت زوجتي تأذن لي أن أطالع بعد طعام المساء بعض المجلات الفكاهية نصف ساعة فقط لترويح النفس ثم تصرفني إلى سريري، وتذهب هي لقضاء السهرة عند احدى صويحباتها، وكانت تقول لي كل مرة: يجب أن تنام أنت لتسترد ما خسرته في أثناء عمل نهارك

مـن القـوى.

وأرقـت ذات ليلـة فلـم أجـد إلى النـوم سـبيلا، وكانـت زوجتـي عنـد صويحباتهـا، فأخـذت أتأمـل في حالتـي ومـا أنـا فيـه مـن الغبطـة والراحـة بفضـل زوجتـي، وقـد تناصـف الليـل وهـي لا تـزال خـارج البيـت. فقلقـت أفـكاري عليهـا، ولكنـي لم ألبـث أن شـعرت بقدومهـا، فثـاب إلي روعـي وبـدا منـي مـا نبههـا إلي، فدنـت منـي وقالـت: مـا هـذا؟ إني أراك لا تـزال مسـتيقظا!

ثـم انحنـت عـلي وقبلتنـي، ففاحـت منهـا رائحـة عطريـة شـديدة، وتفرسـت في وجههـا فرأيتـه حافـلا بمظاهـر الحسـن والجـمال، فقلـت لهـا: وهـل عـدت وحـدك؟

قالـت: لا، فقـد شـيعني أحـد معـارفي مـن طـلاب الهندسـة في الكليـة، وهـو يشـيعني عـادة كلـما عـدت متأخـرة إلى البيـت، لأني لا أريـد أن أعكـر عليـك صفـاء راحتـك وأعبـث بأوقـات نومـك لتسـير معـي إلى كل مـكان بنفسـك. ليعمـل مثـل ذلـك غـيري مـن النسـاء اللـواتي لا يهمهـن أمـر أزواجهـن. وهذا المهنـدس شـاب لطيـف العـشرة خفيـف الـروح لا يتأخـر عـن خدمتـي في سـبيل راحتـك وسرورك.

ـــ لقـد أصبحـت معترفـا بجميـل هـذا الرجـل، وصرت أود أن أعرفـه لأشـكر لـه معروفـه ومروءتـه.

ـــ إذا كان ذلـك يرضيـك فغـدا أدعـوه إلى منزلنـا. ثـم قبلتنـي بـسرور

وذهبت إلى سريرها.

وفي اليوم التالي زارنا المهندس، فإذا به فتى في سن الخامسة والعشرين، جميل الطلعة قوي البنية طويل القامة، وقد رأيت نفسي بإزائه حقيرا ضئيلا قبيح الصورة أعجف البدن، ولما صافحته فاحت منه روائح العطر كالتي شممتها من زوجتي أمس.

وتوطدت العلاقة بعد ذلك بيننا وبين هذا المهندس الجميل، فكان يزورنا كل يوم ويأكل على مائدتنا من الألوان التي لا تبيح لي زوجتي أكلها خوفا من غائلتها علي. وكنت بعد العشاء ومطالعة بعض الفصول الفكاهية أنطلق إلى سريري، ويخرج المهندس مع زوجتي إلى منازل صويحباتها أو إلى بعض حفلات الأنس ومسارح التمثيل، وبينما أكون أنا راقدا في فراشي أجدد قواي المندثرة في أثناء عمل النهار وأحلم الأحلام اللذيذة. وكانا يعودان إلى البيت عادة بعد منتصف الليل، فكنت أحيانا استيقظ على صوت تهامسهما، فأشكر في نفسي لطفهما ورغبتهما المتناهية في استكمال أسباب راحتي وعدم ازعاج هدوء ليلي.

وشعرت في احدى الليالي كأنهما يتعانقان، فذكرت ذلك لزوجتي على سبيل المزاح، فقالت متضجرة: يظهر لي أنك لم تفهمني بعد! ألا تدري أن سعادتك هي أسمى في نظري من حياتي كلها؟ فكيف يمكنني أن أقبل رجلا غريبا أو أدعه يقبلني وأنقل بذلك بعض المكروبات المضرة إلى زوجي وأنغص عليه حياته؟ إن ذلك ذنب عظيم بل جريمة لا تصدر إلا

مـن النسـاء الجاهـلات الشريـرات الـلاتي لا يقـدرن حقـوق الزوجيـة قدرهـا.

فطابـت نفـسي بهـذا الـكلام وقلـت لزوجتـي: ولكنـي لم أقصـد بكلامـي إلا المـزاح والمداعبـة .. وربمـا كان ذلـك حلـما.

***

وبعـد أيـام عـدت مسـاء إلى منـزلي، فرأيـت عـلى مائـدتي رأس أيـل جميـلا بقـرون جميلـة، فسـألت زوجتـي عنـه فقالـت: إنـه هديـة مـن المهنـدس قـد أطرفـك بهـا.

فـزاد ارتياحـي إلى هـذا الرجـل وثنـائي عـلى مروءتـه، وازددت في الوقـت نفسـه احترامـا وعبـادة لهـذه الزوجـة الكريمـة التـي لا يهمهـا مـن الدنيـا إلا راحـة زوجهـا وسـعادته.

المومياء

مـن أشـهر فراعنـة مـصر الملـك رعمسـيس الثـاني الكبـير، المشـهور عنـد اليونـان باسـم سيزوسـترس، وهـو الملـك الثالـث مـن فراعنـة الدولـة التاسـعة عـشرة التـي ملكـت في نحـو سـنة ١٣٥٩ ق.م. وكان رعمسـيس هـذا ملـكا عظيـما مفطـورا عـلى الميـل إلى خـوض المعـارك، مولعـا بفتـوح البلـدان وتدويـخ الممالـك، وقـد كـثرت الحـروب في عهـده كـثرة لم يسـبق لهـا نظـير، وعظمـت علـوم مـصر وحسـنت صنائعهـا إلى الغايـة، حتـى أن علـماء هـذه الأيـام ومهـرة صناعهـا يعجبـون بأعـمال المصريـين في ذلـك العـصر.

وكان رعمسـيس قـد شـارك أبـاه (سـيتي الأول) في الملـك يـوم كان ابـن ثمـاني سـنوات، وصـار مـن رجـال الحـرب بعـد ذلـك بنحـو خمـس سـنين وقـاد كتيبـة لمحاربـة أعـداء مـصر والتنكيـل فيهـم.

ولمـا اسـتقل بالملـك وحـده، بعـد مـوت أبيـه، وطـن النفـس عـلى محاربـة العـالم بـأسره، فحشـد جيشـا بلـغ ٦٠٠,٠٠٠ مقاتـل مـن المشـاة، و٢٤,٠٠٠ مـن الفرسـان، و٢٦,٠٠٠ مركبـة حربيـة، وكان لـه عـمارة بحريـة مؤلفـة مـن أربعمائـة سـفينة حربيـة، فزحـف بحيشـه إلى أثيوبيـا (بـلاد الحبشـة) فاجتاحهـا، وسـارت عمارتـه الحربيـة تمخـر عبـاب البحـر الأحمـر والمحيـط الهنـدي وتسـتولي عـلى مـا فيهـما مـن الجزائـر والسـواحل، وبعـد أن فـرغ مـن أمـر أثيوبيـا زحـف بجيشـه إلى غيرهـا مـن الأقطـار فدوخهـا.

وكان سـلطانه يمتـد وينتـشر بسرعـة غريبـة، وقـد دانـت لـه بـلاد سـورية ومـادي وفـارس، وصحـب النـصر جيوشـه حتـى إلى نهـر الكنـج في بـلاد

الهنـد، ونهـر دون في روسـيا، واجتـاز أسـيا الصغـرى إلى أواسـط تركيـة، ولم يثنـه عـن مواصلـة التقـدم إلا الجـوع والـبرد ووعـورة المسـالك، فقفـل إلى مـصر بعـد أن اسـتولى عـلى جميـع البـلاد الواقعـة مـا بـين نهـر الكنـج في آسـيا ونهـر الدانـوب في اوربـا، وقـد عظـم سـلطانه وقويـت شـوكته في سـائر الأقطـار.

وكان كلـما فتـح قطـرا أو اسـتولى عـلى مملكـة مـن الممالـك تـرك فيهـا هياكل وآثـارا وتماثيـل تشـيد لأفعالـه العظيمـة وتـدل عـلى انتصاراتـه وفتوحـه، وأبقـى فيهـا فرقـة مـن الجنـود المصريـة ليسـتوطنوها وينـشروا دياناتهـم وعاداتهـم لتكـون علامـة ظاهـرة لتخليـد ذكـره عـلى تراخـي العصـور وتـوالي الأحقـاب، ورسـم عـلى تلـك الآثـار وصـف عبـوره إلى هاتيـك البـلاد، ونقـش تاريـخ اسـتيلائه عـلى الممالـك، ولم يـزل بعـض تلـك الآثـار في سـورية وغيرهـا مـن آسـيا الصغـرى، ولا تـزال صورتـه وتاريـخ احـدى حروبـه منقوشـين عـلى صخـور نهـر الكلـب، غـير أن الكتابـة قـد محيـت تقريبـا مـن طـول المـدة.

ومـن آثـاره في مـصر الآبـار العميقـة التـي حفرهـا في النوبـة لفائـدة الذيـن كانـوا يسـتخرجون الذهـب مـن جبالهـا، ومآثـره في مـصر عظيمـة جـدا، حتـى قيـل أنـه جددهـا وبنـى مدينـة رعمسـيس في مـصر السـفلى وجعلهـا عاصمـة تلـك المقاطعـة وأقـام فيهـا أحسـن الأبنيـة وأبدعهـا اتقانـا وهندسـة، ومـن مآثـره ترعـة للسـفن حفرهـا بـين النيـل ورأس البحـر الأحمـر ليصلـه بالبحـر المتوسـط، وقـد شـيد كثـيرا مـن الجسـور والقناطـر والخلجـان لمنفعـة البـلاد ورفـع الأراضي المنخفضـة التـي يغمرهـا فيضـان النيـل، وزيـن ممفيـس العاصمـة بالقصـور الشـاهقة والهيـاكل الباسـقة والأبنيـة الفسـيحة، وفعـل

غير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه.

وبلغ منه التيه في آخر عهده مبلغا عظيما، قيل أنه كان إذا ركب في موكب لزيارة المعابد أو النزهة يأتي بعض الملوك الذين كان قد أسرهم فيلبسهم ثيابهم الملوكية ثم يربطهم كالخيل أربعة أربعة ليجروا مركبته.

وملك رعمسيس ٦٧ سنة، وكان له من الاولاد ١٦٢، منهم مئة وأحد عشر من الذكور، وخلفه على سرير الملك ابنه منفتا، وهو الثالث عشر من أولاده.

***

ولما شعر الملك رعمسيس الثاني بدنو أجله دعا ابنه وولي عهده منفتا وقال له: ها أنا راحل عن هذه الدنيا يا ولدي، فستخلفني أنت في الملك، وقد أحببت أن أوصيك وصية يكون من ورائها الخير والسعادة لك ولشعبك. فاعلم يا ولدي أني قد أفنيت عمري في الحروب والغارات، واستحوذت على أكثر ممالك الأرض، وقهرت ملوكها وجعلتهم لي عبيدا، ولكني لم أر في ذلك كله نفعا حقيقيا لشعبي، فندمت على ما فات وأدركت الآن أن الحروب هي آفة العمران ومدمرة الأوطان وجالبة للأحزان، بل هي الجنون المحض، وإن موقدي نارها هم أشد الناس جنونا، وعليه فإني أوصيك أن لا تقتدي بي بل دع الحروب وشأنها واجتهد في أن يعم السلام مملكتك، ويخيم على جميع انحائها، وكلما اشكل عليك أمر شاور فيه معلمك الحكيم خيكوس.

فلما سمع منفثا هذا الكلام بكى من شدة التأثر وأقسم لأبيه بأوزيريس (إله الشمس) أن لا يخالف مشيئته.

فبرقت أسرة رعمسيس سرورا وأشار إلى الحكيم خيكوس، وكان من أقرب رجال خاصته وأكثرهم حكمة وسدادا في الرأي، وقد مال إليه الملك لما رأى من كفايته وخبرته وحسن قيامه على تعليم ابنه، فدنا من سريره فأسر إليه الملك كلاما، ثم فاضت روحه بين أيدي ابنه والحكيم خيكوس.

ماذا كان هذا السر الذي أفضى به رعمسيس إلى خيكوس الحكيم؟ لم يعلم أحد عنه شيئا، ولم يسمع الذين كانوا جالسين بالقرب من خيكوس من رجال البلاط إلا هذه الكلمات: الحرب، المومياء، الرق.

***

مضت السنة الأولى من ملك منفثا والسلام منتشر في جميع البلاد، وقد بر الملك في قسمه لأبيه، فلم يثر حربا ولم يحشد جيشا، وكان همه ادارة شؤون المملكة واصلاح أمور الأحكام وتوطيد السلام على أمتن قواعده، ثم انصرف إلى نشر العلوم وإحياء التجارة ومساعدة أرباب الصنائع والفنون وإقامة الأنصبة والتماثيل، وكان الشعب يمجد أعماله، والموسيقيون والشعراء يتغنون بذكر مآثره، والنقاشون يصنعون له التماثيل الجميلة من المرمر البديع، وخيكوس يفتخر به لأنه كان تلميذه.

غير أن رجال الحرب وقادة الجيوش لم يرضوا بهذا الحال لأنهم كانوا قد أثروا في عهد أبيه، فطمعوا في زيادة أموالهم في عهده، وقد سئمت نفوسهم البطالة، ولم يروا لسد مطامعهم إلا الحرب. فانطلقوا ذات يوم إلى الملك وقالوا له: نسألك بأسماء جميع الآلهة أيها الملك العظيم أن تبعث بنا إلى ميادين الوغى لأننا لم نخلق لمثل هذه الحياة الهادئة، وأنت لم تخلق لتقضي عمرك كله بين جدران قصرك، وهذه أمائر وجهك تدل على أن السماء قد بوأتك عرش أسلافك لتخضع العالم بأسره. ابعث بنا إلى مقاتلة العبرانيين والفلسطينيين أو غيرهم من الأمم فنخضعهم وندوخ بلادهم، ويتمجد اسمك في كل مكان، وتكون أشهر من سبقك من الفراعنة العظام.

فلما سمع منفثا هذا الكلام شعر من نفسه بارتياح إليه وقال لمعلمه: أرى أن هؤلاء الأبطال ينطقون بالصواب، فيجب أن تبكر أيها الصديق العزيز إلى القواد فتأمرهم بحشد الجيوش، لأني أريد أن استولي على سائر الأقطار في أقل من سنة، ولا نلبث أن نعود بعد ذلك إلى هنا فنواصل إجراء العدل وتشييد الهياكل واغتنام المسرات.

فبهت خيكوس وأطرق يفكر في وسيلة يفحم بها الملك ويثنيه عن عزمه ثم قال: ليس من الحكمة يا سيدي الملك أن نعلن الحرب قبل استشارة الكهنة، إذ أنه لابد من استطلاع أنباء المستقبل بواسطة الحيوانات المقدسة.

وفي اليوم التالي جاء الكهنة وقالوا: إننا قد سألنا الحيوانات المقدسة

رأيها فيما عزم عليه جلالة الملك من شهر الحرب على الأعداء فأظهرت سرورها العظيم، وأيد بعضها ذلك بإشارات واضحة تدل على وجوب اعلان الحرب، ولما فيها من الفوز الباهر للملك، فمن هذه الاشارات أن التماسيح أخذت تمرح في حوضها بغاية الطرب، وإبيس ابتلع أربع عشرة ضفدعة مرة واحدة، وهذا يدل على أن منفثا العظيم سيضرب أعداءه الضربة القاضية ويستولي على بلادهم بدون كبير عناء، والهررة أخذت تموء مواء خاصا كأنها تقول: أخرجوا إلى الحرب لأن الظفر ينتظركم.

فلما سمع الملك هذا الكلام طفح وجهه سرورا، فصرف الكهنة من لدنه وخاطب خيكوس قائلا: أنت ترى الآن أيها المعلم الحكيم أن الآلهة غير حانقة علينا وأنها تنبئنا بالفوز العاجل، فبادر إلى القواد ومرهم بأخذ الأهبة للقتال.

فقال خيكوس برباطة جأش: احذر مما أنت فاعله يا ملكي الحبيب، لأن هؤلاء الكهنة إنما أرادوا بهذه الخزعبلات أن يموهوا عليك ويتملقوك كما فعل قادة الجيش. إن العجول أيها الملك تفترس الضفادع كل يوم، والتماسيح تمرح في الماء ولا شغل لها غير هذا، والهررة لا تعرف غير المواء، فليس في كل ذلك أقل دليل على الانتصار، فدع يا سيدي هؤلاء الكهنة وحيواناتهم المقدسة وسل إذا شئت أحد حكماء الكلدان لأنهم أكثر الناس اطلاعا على أسرار الغيب.

قال: حسن، علي بأحد هؤلاء الحكماء.

وفي اليوم التالي مثل بين يدي الملك مجوسي من حكماء الكلدانيين، وكان شيخا طاعنا في السن وله لحية كبيرة بيضاء تغطي صدره، ولما سئل عن عمره أجاب بأن له مئتين من السنين، وأنه يعرف أجداد منفثا وطالما أنبأهم بحوادث المستقبل وكانت له حظوة عندهم.

فقال الملك: انبئني أيها الحكيم بما سيلده لي الغد من نتائج الحرب التي عقدت عزمي على اضرام نارها.

فأخذ المجوسي منخلا وألقى فيه شيئا من الدقيق وجعل ينخله بين يديه وينظر إلى الدقيق المتطاير على الأرض، ويتمتم كلمات لم يفهم الملك منها شيئا. ولما فرغ من عمله، والملك والحضور شاخصون إليه، رفع نظره إلى الملك وقال: هل رأيت يا سيدي كيف تطاير هذا الدقيق.

قال الملك باهتمام: نعم.

قال: اعلم إذا أنك ستظهر على أعدائك فيتطايرون من أمامك كذرات هذا الدقيق، وأن العاقبة ستكون لك في كل حرب تريد أن تخوض غمارها، وستمتد شوكتك في الآفاق وتدين لك جميع الأمصار.

فأشرق وجه الملك سرورا وأجزل العطاء للمجوسي وصرفه بسلام. ثم خلا بمعلمه وقال: هل بقي عندك ريب أيها الحكيم في حسن العاقبة؟

فهز خيكوس رأسه وقال: أرى أن هذا المجوسي من كبار المشعوذين، فأتوسل إليك يا مولاي أن لا تصدق شيئا من ترهاته.

فتململ الملك في كرسيه وقد قطب وعبس وقال: وهل بقي من يجب أن نسأله رأيه في هذا الشأن؟

قال: نعم، بقي المنجمون.

فأمر الملك بسؤال المنجمين، فأجابوا: إن الملك سيظفر بأعدائه لا محالة، وقالوا إنهم قرأوا الاشارة إلى هذا الظفر في جلد السماء منقوشة بالكواكب الساطعة.

وما عتم منفثا بعد سماعه كلام المنجمين أن أمر بتعبئة الجيوش وتجهيز الأسلحة والذخائر الحربية. وبعد أيام كانت شوارع ممفيس غاصة بألوف الجنود، وقد جهزت كل معدات القتال، ولم يبق إلا أن يصدر أمر الملك بالزحف.

وكان خيكوس ينظر إلى تلك الاستعدادات ويسمع عويل النساء والأطفال الذين كانوا يودعون رجالهم وآبائهم فيتفطر قلبه حزنا، ولم ير أخيرا إلا أن يلجأ إلى السر العظيم الذي أفضى به إليه رعمسيس في ساعة موته. فجاء إلى الملك وقال: ألتمس منك أن توليني نعمة واحدة قبل أن تمضي على عزمك، إنك قد استشرت الأحياء من رعيتك في أمر هذه الحرب، وقد أجابوك بما يخالف رأيي، فأنا أبتهل إليك أن تستشير الأموات أيضا.

فضحك الملك وقال: ولكن الأموات صم بكم لا يسمعون ولا يتكلمون؟

قال: ولكنك قد أصخت بسمعك إلى المنخل والنجوم، فماذا يمنعك أن

تسـأل الأمـوات أيضـا وهـم حسـب شريعتنـا يسـمعوننا ويروننـا دون أن نشـعر بهـم؟، هيـا بنـا يـا سـيدي الملـك إلى ضريـح والـدك العظيـم فلعلـه ينبئـك بالحقيقـة التـي لا تسـتطيع أن تسـمعها مـن البـشر الأحيـاء.

قـال: قـد نفـذ صـبري .. ولكنـي سـأفعل مـا تريـد، بـشرط أن لا تزعجنـي بعـد الآن بمثـل هـذا الأمـر ولا تقـف في طريـق ارادتي، وسـتعلم الآن أن رعمسـيس بسـكوته العميـق سـيبرهن لـك عـلى صحـة عمـلي.

ثـم انطلقـا كلاهـما إلى مدفـن رعمسـيس، وكان في مخـدع مزيـن أبـدع زينـة ضمـن هيـكل تحـت الأرض، وجثـة الميـث محنطـة وموضوعـة في تابـوت مـن الذهـب الخالـص، وقـد أوقـدت حولـه المصابيـح وفاحـت الروائـح الذكيـة في كل جوانـب الهيـكل.

فتقـدم خيكـوس ورفـع غطـاء التابـوت، فأبـصر منفثـا مومياء مرتديـة بأفخـر الملابـس الملكيـة، تلـك كانـت جثـة الملـك رعمسـيس الثـاني، فوقـف منفثـا بمزيـد الاحـترام والوقـار وقـد غـض بـصره وطفحـت عينـاه بالدمـوع. وبعـد صمـت قليـل التفـت إلى معلمـه وقـال: قلـت لـك أن والـدي سـيبرهن لنـا بسـكوته عـلى صحـة عمـلي.

ولكنـه مـا كاد ينطـق بهـذه الكلـمات وينظـر ثانيـة إلى المومياء حتـى رأى في احـدى يديهـا قطعـة مـن الـرق، فحـدق إليهـا ببـصره وهـو كالمأخـوذ وقـرأ مـا يـأتي: «إن الأحيـاء مـن البـشر يكتمـون الحقيقـة عـن ملوكهـم تزلفـا إليهـم وتمويهـا عليهـم، ولكنـك يـا منفثـا تسـتطيع أن تعلـم الحقيقـة مـن الأمـوات، لأنهـم إن نطقـوا فـلا ينطقـون إلا بالحـق. إنـك قـد أقسـمت لي يـا

ولـدي عـلى عـدم إثـارة الحـروب في مملكتـك فـلا تحنـث بقسـمك بـل كـن راغبـا عـلى الـدوام في السـلام، لأن في ذلـك فقـط رفـع شـأن بـلادك وادخالهـا في أحسـن أعـصر الحضـارة واليـسر، لا تطمـع في توسـيع ممالـكك، وتهـرق في سـبيل ذلـك دمـاء رعيتـك، لأنـك مهـما أخضعـت مـن الأقطـار ومهـما امتـد نفـوذك وانتـشر سـلطانك فليـس لـك أخـيرا إلا قيـد بـاع مـن الأرض حيـث يكـون مثـواك كـما تـراني الآن. فعـد يـا ولـدي عـن عزمـك وسر في الخطـة التـي انتهجتهـا في أول عهـدك تبـاركك رعيتـك وتمجـد اسـمك إلى الأبـد».

فلـما قـرأ منفثـا هـذا الـكلام ارتعـش جسـمه فرقـا وأطـرق خاشـعا ضارعـا وقـد تجلـت لـه الحقيقـة بتمامهـا.

وبعـد أن قـضى بـإزاء ضريـح والـده بضـع سـاعات، عـاد بمعلمـه إلى القـصر وقـال لـه: إنـك يـا خيكـوس لأحكـم أهـل زمانـك، وقـد ندمـت الآن عـلى مخالفتـي لنصيحتـك، فبـادر أيهـا العزيـز وأعلـن في ممفيـس عـدم رغبتـي في الحـرب، وقـل للجنـود أن ينـصرف كل منهـم إلى حقلـه وأهلـه، فـلا أريـد حربـا بعـد الآن، والويـل كل الويـل لمـن يحـاول خداعـي والتمويـه عـلي بمثـل تلـك الأضاليـل والخزعبـلات.

آخر تذكار

كانت سلوى تحب زوجها كريما حبا فائقا، وتعد نفسها سعيدة به. غير أن القدر شاء أن يشتت شملهما إلى الأبد. فقد سافر زوجها في سكة الحديد إلى جهة معلومة لقضاء بعض أعماله، وبينما كان القطار قريبا من احدى المحطات، خرج عن القضبان الحديدية وانقلب، فتحطمت بعض مركباته وقتل جمهور من الركاب، وفي جملتهم كريم، فحمل إلى منزله جثة باردة، وكان منذ ساعات قد خرج من ذلك المنزل مبتهجا مسرورا تشيعه زوجته على أمل اللقاء القريب.

وجاء بالجثة طبيب واثنان من رجال الشرطة فدخلوا على زوجة الفقيد، وتلطفوا في نعي زوجها إليها وعزوها عن فقده، وأشاروا عليها أن تتجنب النظر إلى وجهه لتبقى في مخيلتها صورته وهو حي. فبكت سلوى بكاء شديدا، وقد شعرت بانقضاء سعادتها وسرورها، واستصوبت مشورة الطبيب والشرطيين مفضلة أن يبقى لزوجها في ذهنها صورة رجل حي صحيح، لا صورة قتيل مهشم الأعضاء.

وقال لها الطبيب: إن الفقيد بقي حيا بعد سقوط القطار وتحطمه بضع دقائق، ولما رفعوا عنه بعض الأنقاض وجدوا في يده دفتر مفكراته، فالظاهر أنه كتب إلى زوجته شيئا قبل أن فاضت روحه.

فتناولت سلوى الدفتر بلهفة من يد الطبيب، وقرأت في ورقة منه ملطخة بالدم هذه الكلمات، وكانت مكتوبة بقلم رصاص: «أستودعكِ الله أيتها العزيزة، لا تنسيها ...».

كانت هذه الكلمات لغزا غامضا لم تستطع سلوى حله، فجعلت تكررها ليلا ونهارا، وهي تود أن تجلو غامضها، وتعرف من هي هذه «المرأة» أو «الفتاة» التي يوصيها بها زوجها في الدقائق الأخيرة من حياته.

ولم تلبث يعد ذلك أن خامرتها الشكوك واستولت عليها الحيرة والذهول، فازدادت اضطرابا وحزنا.

واتفق أنها رأت في حفلة المأتم امرأة مقنعة كانت واقفة بين الجمهور تلوح عليها لوائح الذل والانكسار. نعم إن جميع الحضور كانوا يظهرون الأسف على فقد كريم، وكثيرون منهم شاركوا زوجته في الحزن والبكاء، ولكن هذه المرأة المجهولة كانت أشدهم حزنا وأسفا. ولما قرأ رئيس الدير عظته، أصيبت هذه المرأة بنوبة عصبية، فبادر إليها بعض الواقفين وأخرجوها من الكنيسة.

وحينئذٍ تحققت سلوى أن كريما إنما أوصاها بهذه المرأة، فيجب إذن أن تراها وتستطلع حالها.

وبعد انقضاء حفلة الدفن عادت سلوى إلى منزلها مصفرة الوجه، محمرة العينين من شدة البكاء، وقد رافقها رجل من أقرباء زوجها وأصدقائه، فأخبرته بأمر الورقة، أي بآخر تذكار من زوجها، ورغبت إليه في معرفة المرأة التي أصابتها النوبة العصبية في الكنيسة.

فذهل الرجل وقال: أما أنا فأرى أن يدفن كل هذا مع الفقيد.

فأبرقت عينا سلوى ونظرت إلى الرجل نظرة كأنها تقول له «إن الحب هو أقوى من الموت». ثم تنهدت وقالت بصوت مرتجف: هذه ارادة كريم، أن أعرف المرأة وأهتم بأمرها .. ومن يعلم إذا كان لها أولاد أو لديها تذكار منه.

قال: ليس لها أولاد.

قالت: فأنت إذا مطلع على علاقة كريم بها.

قال: نعم، ولذلك إلتمست منكِ أن تدفني هذا التذكار مع الفقيد لئلا يزيد حياتك شقاء وعيشك تنغيصا.

فلما سمعت سلوى كلامه زاد كربها واشتدت آلام نفسها، ولكنها ظلت مصممة على مقابلة حبيبة زوجها، ولو كان في ذلك ما يشق عليها احتماله.

وبعد ثلاثة أيام جاءت إلى منزل سلوى امرأة يقال لها أمينة، وكانت في شرخ شبابها، مرتدية بالسواد، وعلى وجهها أمائر الحزن الشديد، فاستقبلتها سلوى بغاية اللطف والبشاشة وسألتها أن تقيم معها.

أما معارف سلوى فلما بلغهم ما فعلته دهشوا وهم بين معجب بعظمة نفسها، ولائم لها على هذه الرقة. أما هي فكانت ترى في انفاذ وصية زوجها كل سرور وغبطة.

وكانت تقضي أكثر ساعات النهار في محادثة أمينة عن كريم، وتود كل واحدة منهما أن تلطف أحزان الأخرى.

وكانتا تذهبان معا كل صباح فتزوران ضريح الفقيد، وتمكثان هناك بعض الوقت في التأمل والحديث، ثم تعودان إلى المنزل حيث كانتا تقضيان باقي الوقت في التذكارات المختلفة. فتقص الواحدة على الأخرى تاريخ حبها لكريم بالتفصيل والاسهاب أو تقرأ كتبه ورسائله.

كانت سلوى تسمع قصص أمينة وتقرأ كتب زوجها إليها وهي مضطربة القلب دامعة الطرف .. إنها أبت أن تنظر إلى وجهه حينما نقلوه إلى البيت جثة هامدة، لتظل صورته في مخيلتها كاملة، ولكنها الآن تقرأ تاريخ حياته مشوها، وكل كلمة منه تقع في قلبها موقعا سيئا محزنا .. إنها كانت تحبه وتثق بإخلاصه وترى نفسها سعيدة بإزائه، والآن أسفت على كل ما جرى، وقد امتلأ قلبها حزنا وتلهفا وتنغصت حياتها، وندمت على استدعاء أمينة والاطلاع منها على هذه الحوادث المؤلمة .. وقد أبغضتها لأنها تود بمثل هذه التذكارات أن تبخسها حقوقها وتختلس منها ذكر سعادتها الزوجية.

وفي صباح أحد الأيام انطلقت سلوى وحدها لزيارة ضريح زوجها، ولم تلبث أن رأت أمينة مقبلة وبيدها اكليل من الورد وضعته على الضريح، وقالت لسلوى: لقد أتيت اليوم وحدك إلى هنا. فقاطعتها سلوى قائلة: نعم، ويجب أن نفترق من هذه الساعة.

فتنهدت أمينة وقالت: نعم وقد كان يجب أن نفترق منذ زمان.

فقالت سلوى يا ليتني لم أعرفك بعد وفاته. فقد فقدته الآن مرة أخرى، وهذا أشد وطأة على قلبي من فقده يوم مماته.

المال

كان في احدى المدن الكبرى شاب يقال له راعول، خدم منذ الصغر في احدى دوائر السكك الحديدية بمرتب زهيد، فلم يتفق له أن يحرز من المال إلا كفافه اليومي. بيد أن فقره لم يكن ليمنعه من مغازلة الحسان والتزلف إليهن في أوقات فراغه. وحدث أنه علق بفتاة من أسرة عريقة في الحسب والنسب أناخ عليها الدهر فأزال ما كانت عليه من السؤدد واليسار وجعلها في حالة الفقر.

وكانت هذه الفتاة – واسمها أنيسة – في مقتبل العمر ونضارة الشباب، هيفاء القوام، فتانة الجمال. فأحبها راعول وأخذ يتردد عليها فيقضي أكثر ساعات فراغه في خدمتها.

ولم تكن أنيسة تأنف من مسايرة راعول وملاطفته، بل كانت تميل إليه لما ترى فيه من حسن الطلعة ورقة المعاشرة واخلاص الخدمة، وكانت في أغلب الأحيان تلبي دعوته إلى الملاعب والمراقص. ولو كان راعول أيسر حالا لتحول ميلها إليه مودة وصداقتها له عشقا، ولكنها كانت معه على الدوام كثيرة التحرز والتبصر خوفا من وقوعها في شرك الغرام وتعريض نفسها لإزدراء صويحباتها وذوي قرباها.

وفي ذات يوم زار راعول صديقته أنيسة ودعاها لحضور تمثيل رواية في أحد الملاعب الفخمة، وضرب لها موعدا قريبا، ولما لم يكن لديه وقتئذٍ شيء من المال انطلق ماشيا إلى بيت صديق له يدعى بطرس ليقترض منه ما يقوم بنفقات الدعوة. وكان بطرس هذا مستخدما في أحد

المصارف وعنده علاوة على مرتبه ثروة نالها ميراثا عن والده، وكان في أكثر الأحيان يساعد راعول ويمده بماله على شرط الوفاء في أول فرصة.

ولما وصل راعول إلى بيت صديقه لم يجده هناك فهم بالانصراف، غير أن أهل المنزل ألحوا عليه بالدخول قائلين: إن بطرس لا يلبث أن يحضر ثم أدخلته إلى غرفة مضاءة بمصباح كبير هي من جملة الغرف المختصة ببطرس. فجلس راعول على كرسي هناك وتناول عن المائدة مجموعة صور بقصد التشاغل بها ولم يلبث أن أعادها إلى مكانها وأخذ جريدة فقرأ فيها قليلا ثم طرحها جانبا وأخذ يتأمل في حالته وما صار إليه مع أنيسة.

وإن هو لكذلك إذ حانت منه التفاتة إلى أرض الغرفة فأبصر تحت المائدة على سجادة صغيرة شيئا يلمع استوقف نظره فانحنى وتناوله وإذا به دينار، فأبرقت أسرته واختلج بدنه ودهش لوفرة غنى صديقه وحسده. وبعد أن أجال نظره في هذا الدينار طويلا وضعه أمامه على المائدة ثم تنهد والتفت إلى ما حوله وأخذ يناجي نفسه بقوله: لو كان هذا الذهب لي لكنت أسعد حالا وأعلى شأنا لأنه يبلغني ما لا أبلغه بدونه وينيلني الحظوى في عيني محبوبتي ويقربني إلى قلبها، فأول كل شيء كنت أكتري في الملعب أحسن المحلات وأرفعها مقاما، ثم ابتاع زوجا من القفازات الجلدية البديعة، وأجلس بإزاء أنيسة في الملعب بحيث يرانا جميع الأصحاب والحساد، فأفقأ في عيونهم حصرما، وبعد التمثيل أدعوها لمناولة الطعام في أحد الفنادق الكبيرة وأعود بها أخيرا في مركبة فاخرة، وهذه الأشياء الباهرة – محل رفيع

في الملعب والقفازات البديعة والعشاء الفاخر والمركبة الجميلة – قد تحمل أنيسة أخيرا على الهيام بي فأستولي على أزمة هواها ويتمكن الأنس بيننا.

ولما أجال راعول هذه التأملات في مخيلته ازدهى طربا واختال تيها، فمد يده وتناول الدينار وأخذ يقلبه بين أنامله وهو متعجب لمقدرته وعلو شأنه وكيف أن هذه القطعة الصفراء الصغيرة تقدر أن تنيله جميع هذه الملاذ وترفع منزلته في العيون. ثم أعاد الدينار إلى المائدة ولكنه لم يحول نظره عنه كأنه جذب إليه بقوة غريبة شغلت قلبه وأخذت بمجامع حواسه، فشعر بضعف نفسه ووهن عزائمه وأحس بميل شديد إلى الاستيلاء على هذا الذهب الخلاب الذي بمجرد نظره إليه ذاق حلاوة تلك الملاذ، وتخيل نفسه جالسا في الملعب بإزاء أنيسة على مقعد فاخر وهو متكئ على عصا جميلة بحيث كان الجميع يشاهدون قفازاته، ثم رأى نفسه يتلفت إلى ما حوله فيرى جميع معارفه وأصحابه شاخصين إليه بعيون ملئها الحسد، أما هو فكان يبتسم ويتحول عنهم إلى صديقته فيسايرها ويغازلها بمنتهى اللطف والرقة.

وبينا راعول في مثل هذه الأفكار والتخيلات قرع جرس الدار، فانتبه لنفسه وارتجفت جميع أعضائه ولكنه بأسرع من طرفة عين أخذ الدينار عن المائدة والقاه في جيبه، وأراد أن يتظاهر بالسكينة وخلو البال غير أن الدم صبغ وجهه وجفت حنجرته كأنه ازدرد فحمة حامية كادت تحرق أحشاءه، غير أنه تجلد بقدر الامكان وقام لاستقبال

صديقه بطرس فحياه وسأله عن أشغاله وصحته، ثم أردف ذلك قائلا بصوت متقطع: أما أنا فهرعت اليك أيها الأخ راجيا أن تفرج كربتي فأفيك في أول فرصة .. ماذا أعمل؟ فقد أصبت بحب غانية بديعة المحاسن وأريد أن آخذها إلى الملعب، وليس معي بارة.

فاستغرب بطرس من صديقه هذه اللهجة الغريبة التي لم يعهدها فيه من قبل وسأله: وما عرض لك أيها الصديق الأديب؟ تكلم على مهل أو أنك صرت محبا والها حتى كدت تفقد عقلك.

قال: أجل لقد كدت أفقد عقلي في حب هذه الفتانة وليس لدي شيء من المال، فأرجوك أن تقرضني ريالين أو ثلاثة فأفيكها حالما يتيسر لي ذلك .. ارحمني أيها الصديق ولا تخيب آمالي فيك.

قال: لبيك أيها الأخ فسأنقدك مطلوبك .. غير أنه قد جرى لي اليوم حادث كارب.

قال: وما هو؟ أخبرني بربك ولا تخق عني شيئا .. قال هذا وهو يتلفت إلى جميع الجهات وقد اصفر لونه وامتقع وجهه.

قال: فقد فقدت دينارا في هذا الصباح وبحثت عنه طويلا فلم أجده كأن الأرض انشقت وبلعته.

فلما سمع راعول هذا الحديث ازداد وجهه اكفهرارا وقال لصديقه بصوت ضعيف: ستجده إن شاء الله بدون أدنى عناء .. فلا تقنط من وجوده .. وأين فقدته؟

قال: هنا في الغرفة.

فازداد اكمداد راعول واختلجت شفتاه وقد تبدلت سحنته وتصبب العرق البارد من جبينه، ولكنه تجلد وقال: ستجده على أهون سبيل، وقد أضعت أنا اليوم ورقة مهمة وبحثت عنها ساعة كاملة فلم أجدها، وأخيرا رأيتها أمامي على المائدة، ستجده ستجده.

فدهش بطرس لهذه الامائر البادية في وجه صديقه ولم يعرف كيف يؤولها ولكنه قال: قد فتشت عنه طويلا فلم أعثر به فتأسفت عليه.

قال: يحق لك التأسف بلا شك فالمال عزيز، قال راعول هذه وهو لا ينفك من التلفت إلى الجهات وأخيرا قال لصديقه: والآن ماذا؟ افتعطيني شيئا من المال؟

قال: وعدتك بأن أعطيك فما بالك لا تستقر كأنك على إبر. فارتعش راعول ثم تنهد وتظاهر بالضحك قائلا: لا أستطيع بعد المكوث ها هنا لأن داعي الغرام يجتذبني اليها.

قال: عجبا منك يا راعول، منذ زمن وأنا لم آرك فابق عندي بعض الوقت لنتذاكر لأني في منتهى الشوق اليك.

قال: أما أنا فلا أحب إلي من مجالستك غير أن الباعث علي وجوب

انـصرافي الآن هـام جـدا، ولكـن حبـا بـك سـأبقي أيضـا بضـع دقائـق، ثـم جلـس إلى المائـدة وأخـذ ينقـر عليهـا بأصابعـه ولم يلبـث أن تنـاول قبعتـه ثـم وضعهـا وعـاود التنقـير. ولم يكـن الحديـث بـين الصديقـين متناسـقا لأن راعـول لم يكـن يعـي حديـث صديقـه بـل كان يجاوبـه عـلى غـير انتبـاه شـاطا عـن الحديـث المتـداول متنقـلا مـن موضـوع إلى أخـر ولم يكـن كلامـه مرتبطـا ملتحـما حسـبما يقتضيـه المقـام، ولـو رآه في هـذه الحالـة أحـد غـير بطـرس لقـال أن هـذا الشـاب مصـاب بشـلل في أعصابـه ودماغـه. وراعـول نفسـه عـرف أن حالتـه هـذه عـلى غايـة الاضطـراب وقـد تدعـو إلى الريـب في شـأنه وتوقـف صديقـه عـلى دخيلـة أمـره، فصـار يبـذل الجهـد حتـى يجعـل نفسـه أكـثر هـدوء وسـكينة، ولكنـه كان كلـما ازداد اعتنـاء ازدادت حالتـه قلقـا وارتبـاكا، فتحقـق أخـيرا أن بطـرس قـد اطلـع عـلى سره وسـبر غـور قلبـه فارتجـف وأوجـس خوفـا عظيـما وأصابـه حـر شـديد. أمـا بطـرس فقلقـت أفـكاره كثـيرا ولم يفهـم شـيئا مـن هـذه الغوامـض فقـام لسـاعته ونقـد صديقـه ثلاثـة ريـالات وقـال لـه: خذهـا وانطلـق إلى محبوبتـك وسنشـاهد بعضنـا بعضـا فيـما بعـد لأنـه يظهـر أن حمـى العشـق قـد انهكتـك الآن وأظهرتـك في أغـرب المظاهـر وأدهشـها.

قـال: بالصـواب نطقـت فعـلي أن لا أتأخـر ولا دقيقـة لأن أنيسـة بانتظـاري، وقـد هاجنـي الشـوق إليهـا لأن حبهـا ملـك قلبـي واسـتعبد جميـع جوارحي. لمـا قـال هـذا نهـض مـن مكانـه فأخـرج مـن جيبـه سـاعته بسرعـة لـيرى الوقـت فطـار معهـا الدينـار المخبـوء وسـقط عـلى الأرض متدحرجـا إلى أحـد جوانـب الغرفـة.

ومـن لنـا بوصـف حالـة راعـول في تلـك الدقيقـة الهائلـة وقـد اسـتطير فـؤاده هلعـا وجزعـا. فشـخصت عينـاه وجمـد الـدم في عروقـه ووقـف كمـن أصيـب بصاعقـة.

وكان بطـرس قـد رفـع الدينـار عـن الأرض وأخـذ يتأملـه وهـو في أشـد حـالات الذهـول وقـد انقبضـت شـفتاه وارتسـمت عـلى وجهـه دلائـل الغـم الشـديد لأنـه عـرف أن هـذا الدينـار هـو دينـاره المفقـود بـلا شـك، وقـد انجلـت لـه الحقيقـة واتضـح لـه سـبب حـيرة راعـول وارتباكـه. ثـم التفـت إلى راعـول فقـرأ في هيئتـه مـا يثبـت الخيانـة فشـق عليـه ذلـك جـدا وارتعـد في داخلـه ولكنـه تجلـد ونـاول الذهـب لصديقـه قائـلا: يظهـر أنـك غنـي يـا صـاح.

فاختلـج راعـول وزفـر زفـرة حـارة ثـم قـال بنفـس متقطـع وصـوت خافـت لا يـكاد يسـمع: كلا هـذا .. الأخـير .. وإني اذخرتـه لدفعـه للإسـكاف ثمـن حـذاء اشـتريته منـذ بضعـة أيـام .. وليـس معـي غـيره .. ولكـن .. لم يبـق شيء .. يلـزم .. لأن الفتـاة فتانـة .. وأنـا متهالـك في حبهـا .. قـال: اتمنـى لـك النجـاح. قـال: أشـكرك .. مـا العمـل؟ فبدونـه لا يتـم شيء.

وظـل الصديقـان واقفـين جامديـن وكل منهـما في معظـم الاضطرابـات النفسـية وقـد نالهـما مـن القلـق وشـدة ضغـط الدمـاغ مـا كاد يغيبهـما عـن الادراك، غـير أن راعـول تجلـد أخـيرا ومـد يـده إلى صديقـه مودعـا بصـوت شـديد الاضطـراب، فوجـه إليـه بطـرس نظـرة حـادة اخترقـت احشـاءه ثـم ودعـه.

فما صدق راعول أن انقضى هذا المشهد حتى خرج من لدن صديقه وهو يكاد يتعثر بأذياله، ولما خرج من الدار وقف قليلا فتنفس الصعداء ثم سار عائدا إلى منزله وقد سكن روعه قليلا وثاب إلى رشده، ولكنه شعر ببرودة وكراهية شديدة واستولت على نفسه ضبابة حزن وغم وشدة، وظهرت الحياة في عينيه بأشنع مظهر فأحس بثقل وطأتها وخساستها وقلة جدواها وجسامة أضرارها وجزالة أقذارها، فاضمحلت آماله كما يضمحل سحاب الصيف في أفق السماء، وصار كل من أنيسة والملعب والقفازات والعشاء شنيعا سافلا، وكل شيء من ملذات الدنيا صار يضغط على قلبه فلم يعد يحفل بشيء منها لأن نفسه حزينة مضطربة، وقد تقوضت صروح أمانيه وظهرت له تماثيل رجائه في أقبح صور اليأس والقنوط.

نعم إن بما لديه من الدراهم يمكنه الآن أن يتمتع بالمشاهد البديعة وبأنيسة بيد أنه قد حال الآن دونها سياج متين حصره وضيق عليه وهذا السياج هو سفالة عمله وخيانته.

فراعول الآن ناقم على نفسه لأنها سقطت به إلى أسفل دركات الذل والهوان، هو سرق اليوم دينارا فاشتد عليه هذا الأمر ولا سيما لأن صديقه عرف سريرته واطلع على دناءته وخسته وقد رفع الدينار المسروق بنفسه وتظاهر بجهله هذه الخيانة.

ولما تخيل راعول كل ذلك شعر بألم شديد في صدره وارتجاف في شفتيه وارتعاش في أوصاله وأحس بكرهه إلى كل شيء، ولما ضاقت عليه الحال

ولم يعد يقوى على احتمالها أراد أن يسلي نفسه ليطرد عنه هذا التذكار فطفق يعد خطواته ويعد المخازن التي يمر بها، ولكن كل ذلك ذهب عبثا لأن أمر خيانته لم يبرح من فكره فكان يزداد كراهية لنفسه عند كل خطوة، وتقوى في مخيلته الأفكار والهواجس إلى أن بلغت معظمها، وقد جفت حنجرته واحترقت الدموع في عينيه وكاد يسقط على الطريق متلاشيا لولا أنه شدد عزائمه وضبط نفسه بعض الشيء.

وفيما هو في الطريق رأى حانة فعطف اليها وجلس إلى مائدة هناك وطلب شرابا .. ولم يمض إلا القليل حتى كان محمولا على أكتاف رجال الحانة إلى منزله وهو لا يعي من شدة السكر

هديَّة العيد

جلست حواء مساء عيد الميلاد في منزلها وأخذت تعد النقود التي معها، فإذا هي ريالان فقط، فألقتهما على مائدة صغيرة أمامها وأوغلت في تأملاتها.

كان هذان الريالان كل ما استطاعت حواء أن تقتصده من نفقات البيت في الأشهر الأخيرة، فلم يتسن لها أن توفر أكثر من ذلك، لأن مرتب زوجها الشهري كان ثمانية جنيهات فقط، وهي تكاد لا تكفي لسد نفقات المعيشة وقد ارتفعت الأسعار وأصبح كل شيء غاليا.

تنهدت حواء وألقت نظرة على ما حولها، ثم عادت إلى تأملاتها. كان المنزل الذي تسكنه هي وزوجها صغيرا، وليس فيه من الأثاث إلا كل بسيط، ولولا النظافة التي كانت تبدو في جميع جوانبه لكان في حالة حقيرة.

غدا عيد الميلاد، وليس مع حواء إلا ريالان، فماذا تستطيع أن تبتاع بهما من الهدايا التي اعتادت أن تهديها لزوجها كل سنة؟

ثلاث سنوات مرت على زواجها بجورج، وقد انقضت هذه المدة على أحسن حال من الحب المتبادل والدعة والاقتناع بما قسمه الله. وكان الزوجان يتبادلان كل سنة الهدايا، اقتداء بغيرهما من الأزواج، فهل في طاقة حواء أن تحجم هذه السنة عما ألفته من هذه العادة؟

تأملت حواء طويلا في حالها، ثم أكبت على المقعد الذي كانت جالسة

عليه واستخرطت في البكاء، لأنها لم تجد عزاء لنفسها إلا في البكاء. ولكنها لم تلبث أن وثبت على قدميها، كمن أشرق عليه فكر جديد. فكفكفت عبراتها وتقدمت إلى مرآة كانت على أحد جدران الغرفة، فتفرست في وجهها، وكان شعرها الذهبي الجميل مسترسلا على كتفيها، وهو يكاد يصل إلى قدميها، فتنهدت واكتأبت.

كان أعز الأشياء لحواء ولزوجها جورج، شعر حواء، وساعة جورج. إن حواء كانت في غاية الرقة والرونق والجمال، غير أن شعرها كان أجمل شيء فيها، ولو رأته ملكة سبأ نفسها - وهي المشهورة بجمالها وغناها - لحسدتها عليه وتمنت أن يكون لها مثله، ولو بفقدان عظمتها وغناها. وأما ساعة جورج فكانت من الذهب الخالص، وقد ورثها عن أبيه، وأبوه عن جده، وهذا عن أبيه ..، حتى أصبحت في نظر جورج أثرا ثمينا لا يرضى بجميع كنوز سليمان الحكيم بدلا منه.

نظرت حواء إلى شعرها، ثم خرجت من المنزل مسرعة كأنها تريد أن تقضي أمرا في نفسها وتخشى أن تغلبها عواطفها، فتردها عنه. وقد انحدرت من عينيها دمعتان محرقتان مسحتهما بمنديلها وواصلت سيرها، حتى بلغت مخزنا لسيدة تتاجر بالشعر، فدخلت وقد أسرع نبضان قلبها وصعد الدم إلى رأسها، وقالت لصاحبة المخزن: جئت أعرض عليك شعري أيتها السيدة، فكم تدفعين ثمنه؟

فدنت صاحبة المخزن من حواء وأخذت تتفرس في شعرها وتلمسه بيديها ثم قالت: ستة جنيهات لا غير. فاندفع من صدر حواء تنهد

عميـق وقالـت: حسـن، فقصيـه وأنقديـني الثمـن في الحـال.

وفي أقـل مـن لمـح البـصر قصـت التاجـرة شـعر حـواء ودفعـت إليهـا ثمنـه. وخرجـت حـواء هائمـة عـلى وجههـا، حتـى إذا بلغـت سـوق الصاغـة ابتاعـت بـكل مـا لديهـا مـن المـال سلسـلة ذهبيـة، ثـم عـادت إلى منزلهـا وقـد نسـيت شـعرها، ولم تفكـر إلا في الهديـة التـي سـتطرف بهـا زوجهـا عندمـا يعـود مسـاء مـن عملـه، ولكنهـا مـا وقفـت أمـام المـرآة حتـى هطلـت دموعهـا وعظـم عليهـا الأمـر.

شـعرت حـواء بأنهـا قـد فقـدت جمالهـا إلى الأبـد، وهـي لا تـزال في شرخ الشـباب، إنهـا ابتاعـت لزوجهـا هديـة، ولكنهـا دفعـت ثمنهـا مـا يفـوق حياتهـا ثمنـا .. فزفـرت زفـرة محرقـة، وقامـت إلى منزلهـا تتشـاغل بترتيبـه، إلى أن آذنـت السـاعة السـابعة مسـاء، فذعـرت، لأن زوجهـا يعـود عـادة في مثـل هـذه الوقـت، وقـد خشـيت أن يقابلهـا باللـوم العنيـف، وتكـون بعملهـا قـد نغصـت عيشـه إلى الأبـد. ثـم نظـرت إلى السلسـلة وكانـت في علبـة جميلـة، فحملتهـا بيدهـا ووقفـت في أعـلى درجـة مـن درجـات سـلم المنـزل تنتظـر زوجهـا.

ولم يطـل وقوفهـا حتـى فتـح البـاب ودخـل جـورج، ومـا كاد يصعـد السـلم ويـرى زوجتـه حتـى وقـف مبهوتـا كأن غشـاوة غطـت عينيـه.

كان جـورج يحـب زوجتـه إلى درجـة العبـادة، وقـد وقـف نفسـه عـلى خدمتهـا وتوفـير أسـباب راحتهـا، وكانـت هـي في نظـره أجمـل نسـاء العـصر، وكان إذا ذكـر جمالهـا يذكـر قبـل كل شيء منـه شـعرها الذهبـي الجميـل،

وهـا هـو يراهـا الآن وقـد فقـدت تلـك الحليـة الباهـرة.

وقـف جـورج، وقـد فتـح فـاه ليتكلـم، فلـم يجـد إلى النطـق سـبيلا. فتقدمت حـواء وقالـت بصـوت يرتعـش حزنـا: لا تنظـر إلي يـا جـورج بهـذا الذهـول!، ولا يشـق عليـك مـا فعلـت!، فقـد بعـت شـعري لابتـاع لـك هديـة العيـد، فـلا تلمنـي أيهـا الحبيـب ولا تغتـظ، فأنـا أنـا بشـعري أو بدونـه، وعـما قليـل يطـر ويطـول، فأعـود إلى مـا كنـت عليـه.

وكأن جـورج قـد عـاد إلى نفسـه عندمـا سـمع كلام زوجتـه، فطوقهـا بذراعيـه وقبلهـا بلهفـة ثـم قـال: إنـكِ لم تـدركي مـا اعـتراني يـا حـواء، فأنـتِ في عينـي الحبيبـة العزيـزة الوحيـدة في أيـة صـورة كنـتِ، ولكنـكِ بعـد أن تفتحـي هـذه العلبـة تعلمـين سـبب ذهـولي.

ثـم دفـع إليهـا علبـة مـن العـاج كانـت في يـده، ومـا كادت حـواء تطلـع عـلى مـا فيهـا حتـى وهنـت قواهـا وكادت تقـع مغشـيا عليهـا. رأت حـواء في العلبـة، وهـي هديـة زوجهـا لهـا، خمسـة أمشـاط جميلـة مرصعـة بالحجـارة الكريمـة، فتنهـدت مـن كبـد حـرى وقالـت وهـي تضـم الأمشـاط إلى صدرهـا: إن شـعري سـينبت بعـد مـدة قصـيرة، فأزينـه بهـذه الحليـة التـي آثرتنـي بهـا الآن أيهـا الحبيـب.

وكأنهـا فطنـت لهديتهـا فقدمتهـا إلى زوجهـا وهـي تقـول: وهـذه هـي هديتـي لـك، إنهـا كهديتـك جـمالا وحسـنا، وقـد طفـت جميـع مخـازن الصاغـة حتـى انتقيـت لـك هـذه السلسـلة البديعـة التـي لا تليـق إلا بسـاعتك.

فقهقـه جـورج ضاحـكا وقـال، وهـو لا يملـك عبرتـه مـن الانهـمال: لنخبـئ هاتـين الهديتـين يـا حـواء إلى فرصـة أخـرى، فقـد بعـت سـاعتي، كـما بعـت أنـت شـعرك، فتعـالي أقبلـك وتقبلينـي أيتهـا المفـداة بالـروح، ولتكـن هـذه القبـلات خـير مـا نسـتقبل بـه عيـد هـذا العـام.

فأسـندت حـواء رأسـها إلى صـدر زوجهـا وقالـت بصـوت يأخـذ بمجامـع القلـوب رقـة: مـا أسـعدني بـك يـا جـورج.

جنون الحب

كان النعمان سيدا رفيع القدر عظيم الشأن، من أكابر رجال الدولة العربية في الأندلس ومشاهير سراتهم، وكان له في مدينة قرطبة قصر شاهق البنيان متسع الأركان، تحيط به حديقة غناء وفيها من كل فاكهة زوجان.

وفي أحد الأيام جلس النعمان في حديقته في ظل بعض الأشجار الغبياء وأخذ يلهو بالنظر إلى ثمار الحديقة وأزهارها، وإنه لكذلك وإذا بأحد خدمه ويقال له مصطفى قد جاء فحياه ووقف متأدبا ينتظر أمر سيده له بالكلام.

فقال له النعمان: هل عرفت إلى أين ذهب زين الدين؟

قال: نعم يا سيدي فقد أنباني عمر أحد حرس الخليفة بأنه رآه في سوق العبيد يحادث تاجرا من تجار المدينة، ثم ركب جواده وراح ينهب الأرض إلى جهة باب جمجم.

ـ وهل عرفت التاجر الذي كان يحادثه؟

ـ نعم يا سيدي فهو الشيخ أبو طاهر الذي باعك أمس «مويانا» الحسناء.

ـ وهل كلمته؟

ـ كلا لأنه ذهب في الحال إلى قصر الخليفة.

فأطرق النعمان قليلا ثم قال: عسى أن لا يكون قد حدث له ما غمه واضطره إلى هذا الرحيل الفجائي.

قال مصطفى: يخيل إلي أن زين الدين قد توجه إلى معسكر الوزير.

ـ وهذا عجيب أيضا، إذ كيف ينطلق إلى ميادين الوغى قبل أن يأتي لوداعي؟

ـ لا بد لسفره على هذه الصورة من أمر مهم نجهله، فهل تريد أن أذهب ثانية إلى طاهر لأسأله عن ذلك؟

ـ ستذهب بعد قليل. أما الآن فأخبرني هل قدمت الهدايا التي أمرتك بتقديمها إلى مويانا؟

فبرقت أسرة مصطفى سرورا وقال: نعم وقد حظيت برؤيتها وعليها بعض تلك الاثواب الجميلة الجديدة التي نفحتها بها، وإني أقسم بالله أني لم أر في حياتي جمالا باهرا كجمالها .. إنك يا سيدي قد دفعت ثمنها أمس عشرة آلاف دينار، فلو أردت أن تبيعها اليوم لوجدت من يشتريها بعشرين ألفا.

ـ صدقت .. ولكنني لن أبيعها بجميع كنوز العالم؟، حتى أن الخليفة نفسه لو طلبها مني لأبيت عليه ذلك، وآثرت الفرار بها إلى عشيرة زين الدين، لأعيش وهذه الحبيبة بالرغد والصفاء. فقد رأيت فيها من بديع التكوين وجمال الطلعة وبهائها ما سلب رشدي وخلب فؤادي. فقل لي، هل هي راضية بالهدايا التي أطرفتها بها؟

ـــ كل الرضى، وقد قالت لي أنها وإن تزينت بكل جميل، فإنها لا تفعل ذلك إلا لتنال الحظوة في عينيك.

فتنهد النعمان وقال: إن مويانا فتانة بذاتها لا بردائها، وأنا سعيد بها ولا أبغي سواها من جميع بنات حواء.

قال مصطفى: وما أعظم الفرق يا سيدي بين نسائنا ونساء النصارى، فالمرأة عندنا تنقاد للرجل انقيادا أعمى، واثنان من الخصيان كافيان لسياسة عشرين امرأة من نسائنا، بينما المرأة الواحدة من حسان النصرانيات تلعب كما تشاء بعشرين رجلا.

فابتسم النعمان وقال: أصبت، فاذهب الآن وهيء مائدة الشراب والفاكهة، ثم ادع لي مويانا لأقضي وإياها بعض الوقت في ظل هذه الشجرة.

فانصرف مصطفى، ولكنه لم يبطئ أن عاد وعلى وجهه علائم الدهشة وقال: إن زين الدين يا سيدي قد عاد الآن راكبا جواده الأبجر ولكن ليس عليه سرجه الثمين.

وما كاد يفرغ من كلامه حتى أقبل زين الدين وعلى وجهه أمائر القلق والارتباك، فرحب به النعمان قائلا: أهلا بالصديق العزيز، أهلا بزين الدين بن حميد.

فقال زين الدين بعد ما سلم: جئتك في طلب حاجة، ولا أظنك تردني خائبا.

قال: كل حاجة لك عندي تقضى في الحال، فسلني ما أردت.

قال: أعطني خمسة آلاف دينار لأني في أمس الحاجة إليها الآن.

قال: حبا وكرامة يا ابن الأكارم.

وأخرج من جيبه مفتاحا ناوله لمصطفى وقال: جهز ما طلب.

ثم عاد فقال لصديقه: وهل كنت في معسكر الوزير؟ فالظاهر أنك مللت الاقامة في قرطبة.

قال: ذهبت إلى المعسكر لقضاء أمر معجل.

ـــ وما هو هذا الأمر؟ إنك لم تعد أن تخفي شيئا عن صديقك النعمان.

قال: ولا أريد أن أخفي شيئا، فقد ذهبت لأبيع جيادي وما تملكه يداي، إلا الأبجر.

قال: وهل بعت سرج الأبجر أيضا؟

قال: نعم، فقد بعت كل شيء حتى حلية سيفي الذي حباني به الخليفة.

قال: وبكم بعت الحلية؟

قال: بألف وخمسمئة دينار.

فذعر النعمان وقال: وماذا دهاك حتى بعت الحلية بهذا الثمن،

وهـي تسـاوي عـشرة آلاف دينـار؟

فقدحـت عينـا زيـن الديـن شرار الغضـب وقـال: قـد خدعنـي اليهـودي، إني والله لأنتقمـن منـه ومـن جميـع أبنـاء عشـيرته شر انتقـام، ولأسـحقن خمسـين جمجمـة مـن جماجمهـم شـفاء لغليـلي.

ـــ ولكـن مـا الـذي ألجـأك إلى بيـع الحليـة، وهـي هديـة لـك مـن الخليفـة، نفحـك بهـا دليـلا عـلى ارتياحـه اليـك، واعجابـه بشـجاعتك.

فتنهـد زيـن الديـن وقـال: كنـت بالأمـس في سـوق العبيـد، فرأيـت أمـة ليـس في طاقتـي أن أصـف لـك جمالهـا، وقـد كنـت قبـل ذلـك أحمـق كل مـن يشـتري امـرأة بمـا يفـوق الفـرس ثمنـا، ولكنـي مـا وقـع بـصري عـلى هـذه الجاريـة حتـى سـحرت بجمالهـا وهمـت بحبهـا، وقـد نفـذ صـبري ولم يبـق في تحمـل، وشـعرت بمـلء الارتيـاح إلى اسـتبدالها بالأبجـر، فهـي حوريـة مـن حـور الجنـة، وقـد هبطـت إلى الأرض لتفتـن العالمـين. وفي الحـال سـألت أبـا طاهـر الخبيـث عـن ثمنهـا فطلـب تسـعة آلاف دينـار، فأسرعـت إلى المعسـكر العـام وبعـت كل مـا لـدي، إلا سـلاحي والأبجـر، بأربعـة آلاف دينـار، وجئـت الآن أسـتمنحك الباقـي.

فضحـك النعـمان وقـال: لقـد درسـت أخلاقـك يـا ابـن الباديـة منـذ زمـان طويـل، فأنـت تعمـل أولا ثـم تفكـر. تريـد أن تشـتري هـذه الجاريـة بـكل مـا في يـدك مـن المـال، ثـم تبقـى صفـر اليديـن، لا مـال عنـدك لتنفـق منـه عليهـا وعـلى نفسـك.

قال: أصبت، إني لم أفكر في شيء من هذا، وأنى لي ذلك، وقد فتنت هذه الغانية عقلي وسلبت قلبي.

ـــ إذن فأنت في حاجة الآن إلى عشرة آلاف دينار لا إلى خمسة.

ـــ أشكرك يا أخي، لأنك لا تنفك تصلني بجميلك الذي لن أنساه.

ـــ ولكني مهما أفعل يا زين الدين، ومهما أبذل فإني لن أوفي جزءا مما لك علي من الدين العظيم، فهل نسيت ما خدمتني به يوم تعارفنا في البادية ونحن في طريق الحج، وكنت قد أشرفت على الهلاك ظمأ فسقيتني ما كان لديك من الماء، لم تبق منه قطرة لنفسك؟

قال: ذلك لأننا نحن أبناء البادية أقدر على احتمال الظمأ والتعب من غيرنا، فقد رأيتك مطروحا على الرمال المحرقة وليس من يعتني بك، فسقيتك ما كان معي من الماء، لأني لم أكن في حاجة إليه، ولا فضل لي فيه، وأي مسلم لا يفعل ما فعلته إذا رأى أخاه كما رأيتك أنا؟

وما كاد يتم كلامه حتى جاء مصطفى وقال: إن الخمسة آلاف دينار قد جهزت في الأكياس.

فقال النعمان لزين الدين: خذ هذه الآن، وستأخذ خمسة الآلاف الأخرى بعد عودتك إلي.

فنهض زين الدين شاكرا وودع صديقه، ثم حمل المال على دابة من دواب النعمان، وأخذ معه عبدا من عبيده وانصرف لشأنه. فقال النعمان في نفسه: لله ما يفعله الحب من العجائب! إن هذا البدوي

قـد جـن في حبـه حتـى أظلـم عقلـه وغـشي عـلى بـصره.

وإنــه لكذلــك إذا بمصطفــى قــد أقبــل وموبانــا في أثــره، فخفــق قلــب النعـمان وطفـح الـسرور مـن وجهـه وقـال للفتـاة: أدني منـي يـا ملكـة الجـمال وأرفعـي هـذا النقـاب عـن وجهـك ولا تخـشي أن يـراك أحـد غـيري.

فأماطـت مويانـا النقـاب عـن وجـهٍ لم تقـع العـين عـلى أبـدع منـه تكوينـا ولا أتـم جـمالا، وقالـت: هأنـذا بـين يديـك يـا سـيدي، ولا سرور لي إلا بقربك.

قـال: لقـد وقعـتِ يـا مويانـا مـن قلبـي موقعـا جليـلا فتعـالي اجلـسي بجانبـي أيتهـا الحسـناء وأفـضي إلي بمـا في نفسـك. فهـل أنـت مـسرورة بالحـلي والحلـل التـي أرسـلت بهـا اليـكِ؟

قالـت: قـد جـدت عـلي يـا سـيدي بمـا لا تطمـع فيـه نفـسي، لأني سـعيدة بحبـك وعطفـك، وهـذا حسـبي.

قـال: اعلمـي يـا مويانـا أني غنـي وثـروتي لا تحـصى، وأني أضـع كل مـا تملكـه يـداي تحـت قدميـكِ، فـلا تبخـلي عـلى نفسـك بـشيء مـما تتوقـين إليـه أو يخطـر لـك ببـال.

فنظـرت مويانـا إليـه بـدلال وقالـت: لا يمكـن أن أكـون في حاجـة إلى شيء بعـد الـذي ظهـر مـن كرمـك وفضلـك ..، غـير أني أريـد أن أسـألك شـيئا لغـيري ممـن لهـم علاقـة بي، فهـل تنيلنـي بغيتـي؟

قال: لا أشـهى إلي من قضاء حوائجك، فاذكري ما تبغين.

قالت: إعلم يا سيدي أني ولدت في إحدى مدن اسبانيا الشمالية، من أبوين فاضلين غنيين، وكان لي أخ وثلاث أخوات. وقد خسر والدي ثروته كلها في احدى السنين، وتوفيت والدتي من شدة حزنها، وقتل أخي في بعض سفراته، فاضطر والدي إلى بيعي ليعول بثمني نفسه وأخواتي الثلاث، فهل تسمح يا سيدي الكريم بقليل من النفقة أرسل به إلى والدي تخفيفا لبلواه؟

قال: لله درك ما أطيب قلبك وأكثر قناعتك. أنت تطلبين أن أبعث بشيء من النفقة إلى والدك وأخواتك، وأما أنا فسأستقدمهم إلى هنا ليعيشوا عندي في هذا القصر على أحسن ما ترومين.

فشكرته مويانا وطابت نفسها، وأخذ كلاهما بعد ذلك يتطارحان أحاديث الغرام، والنعمان شاخص إلى محبوبته يشرب كلماتها شربا.

وإنهما لفي مثل ذلك، وإذا بزين الدين مقبل، وفي يده خنجر وعلى وجهه أمائر الغيظ الشديد.

فذعرت مويانا وسدلت النقاب على وجهها، وأجفل النعمان وقال بحدة: ماذا جرى يا زين الدين؟، وكيف تدخل علي بمثل هذه الصورة، وأنا جالس إلى أمتي في خلوة؟

فقال زين الدين وعيناه تتقدان بنار الانتقام: جئت أنتقم ممن أهانني.

فذهل النعمان وقال: ويحك! فما هذا الكلام؟ وماذا اعتراك؟

قال: أجل، إنك قد أهنتني وسخرت بي، فأعطيتني مالك ولكنك سلبتني ما هو في نظري أعز من المال والحياة، إنك قد أخذت الأمة التي هويتها أنا، وأخفيت ذلك عني متسترا بالصداقة والإخاء.

ـــ ماذا تقول؟

ـــ أقول إن الأمة التي ابتعتها أنت من أبي طاهر، هي هي الأمة التي راقت في عيني، والتي بذلت كل ما تملكه يداي، وربما بذلت الأبجر ونفسي أيضا في سبيلها.

ـــ لقد فقدت عقلك يا زين الدين، وعدت لا تعي ما تقول! إني اشتريت هذه الأمة، وأنا لا أدري أنها مطمح أبصارك.

ـــ والآن، وقد عرفت ذلك، فهل تسمح لي بها؟، أتذكر يمينك التي أقسمتها لي يوم أنقذت حياتك من الموت في بادية العرب، أنك لا ترد لي طلبا أيا كان؟

ـــ أذكر ذلك.

ـــ إذن أعطني هذه المرأة.

ـــ ولكن العواطف الشديدة التي تحملك على طلبها، هي نفسها تحملني على الاحتفاظ بها، لأني أحبها حبا يفوق كل وصف.

ـــ وأقسامك، أفتحنث بها؟

ـــ خذ يا زين الدين بدلا منها ما شئت من الجواري والجياد والمال،

خـذ كل ثـروتي وأمـلاكي، وتنـازل لي عـن هـذه الحبيبـة.

ـــ أتعـرض مثـل ذلـك عـلي، وأنـا لا يسـتهويني شيء مـما تقـول؟ إني قـد اشـتريت الأبجـر بجميـع الأسـلاب التـي غنمتهـا مـن قبيلـة الزينبيـين، فخـذه منـي، وخـذ خنجـر عمـرو سـيد ابطـال عشـيرتنا، وأعطنـي هـذه المـرأة.

ـــ أرفق بعواطفـي يا زين الدين، وعد عن هذا الطلب.

ـــ ألم تقسـم لي بالكعبـة، وبمدافـن الانبيـاء، وبسـيفك، أنـك تقـضي لي كل طلـب؟

ـــ لو كنـت يا زين في مكاني، فإذا كنت تفعل؟

ـــ أمتشـق في الحـال حسـامي وأطيـح رأس مزاحمـي في محبوبتـي عـن بدنـه.

ـــ ولكني لا أجترئ على قتل صديقي.

ـــ أمـا أنـا فأجـترئ، خـذ حسـامك وهيـا بنـا للـبراز، إذ لا يغسـل هـذه الاهانـة إلا الـدم، ولا يحلـك مـن أقسـامك إلا الـدم.

ـــ مهـلا يـا زيـن الديـن، فقـد وجـدت وسـيلة تقـضي بيننـا، وهـي أن نجعـل هـذا الأمـر في يـد هـذه الحسـناء، فلهـا أن تصطفـي منـا أيـا شـاءت.

فـصر زيـن الديـن بأسـنانه وقـال: تبـا لهـذا الـرأي مـا أسـخفه، وهـل تظـن أن مثـلي يؤخـذ بهـذه الحيلـة ويحلـك مـن أقسـامك؟

فلم يلتفت النعمان إليه وقال لمويانا: اختاري أنت واحدا منا سيدا لك.

فقالت: وهل لي أن أتردد في الاختيار بين سيدي الحبيب وهذا البدوي الشرس؟

فالتفت النعمان إلى زين الدين وقال: هل سمعت مقالها؟، فبأي حق تريد أن تحرزها لنفسك وهي لا تحبك؟

قال: إني سيء البخت من يوم مولدي، فقد قتلت والدتي وأنا في سن العاشرة، وفي سن الثانية عشرة قتلت أخي، والآن أردت أن أقتل صديقي والمحسن إلي، فالوداع أيها الصديق، إني مسافر من هذه الساعة إلى بلادي وقومي، إذ لم يبق لي ما تطيب به نفسي عندكم، وأخشى في ساعة غيظي أن أنتقم منك، لأني لا أقوى على كبح جماح عواطفي.

قال: بل ابق عندي يا زين الدين، فأزوجك أختي ونعيش معا بالدعة والهناء.

قال: لا قبل لي بذلك لأني لا أريد خيانتك. بيد أني أسألك أن تسمح لأمتك بإماطة نقابها عن وجهها لأتزود منها النظرة الأخيرة وأخرج لشأني.

فأشار النعمان إلى مويانا، فكشفت عن وجهها، ورأى زين الدين جمالها البارع، فازداد افتتانا بها، وعادت علائم الغيظ الشديد فارتسمت على وجهه، ولمع شرر الانتقام في عينيه، وقال بصوت أجش: وهل من

العـدل أن تبقـى هـذه الحوريـة في حوزتـك، وأنـا أكاد أجـن في هواهـا؟ .. خسـئت يـا هـذا! فلسـت بعائـد مـن هنـا بالفشـل والخيبـة.

فقال النعمان وقد علاه الكمد: أراك قد عدت إلى شراستك وجنونك.

ثـم التفـت إلى مويانا وقال: انصرفي أنت إلى خدرك ودعينا وحدنا.

فنهضـت تريـد الذهـاب، فاعـترض زيـن الديـن في سـبيلها وقـال وهـو يـزداد هياجـا واضطرابـا: إنـك لا تنصرفـين مـن هنـا قبـل أن تعلمـي مـن هـو سـيدك ...، فهـو صـل خائـن غـادر، قـد حنـث بيمينـه، وأصبـح عنـوان العـار ومثـال الغـدر.

فقـال النعـمان وقـد خنقـه الغيـظ: لم يبـق عنـدي شـك في أنـك تهـذي يـا زيـن الديـن، وقـد فقـدت عقلـك.

قـال: قـل مـا تشـاء .. ولكـن هـذه المـرأة لي، وسـيان عنـدي أحبتنـي أو أبغضتنـي، لأن مـن يذلـل أشرس الخيـول لا يصعـب عليـه أن يـروض مثـل هـذه العجلـة الصغـيرة. ثـم التفـت إلى مويانـا وقـال: اتبعينـي يـا هـذه، وإلا أغمـدت هـذا الخنجـر في صـدرك!

فتراجعـت مويانـا وقـد ظهـرت عـلى وجههـا علامـات الرعـب الشـديد، وكادت تسـقط عـلى الأرض مغشـيا عليهـا.

وكان النعـمان قـد هـاج الـدم في رأسـه لـدى سـماعه هـذا الـكلام، فقـال: حسـبك هذيانـا يـا زيـن الديـن، فقـد أطلـت جدالـك عـلى غـير جـدوى، ولم يبـق لي صـبر عـلى تحمـل فظاظتـك.

ولكنه قبل أن يتم كلامه هجم عليه زين الدين، والزبد في شدقيه، والخنجر في يده، وقد هم بإغماده في صدره، ورأى النعمان أنه مائت لا محالة إذا تهاون في الأمر، فكاد يفقد رشده ولم يبطئ أن استل خنجرا كان في منطقته، ووثب إلى خصمه كالنمر الضاري، وأخذ الاثنان في عراك شديد، وقد طعن زين الدين خصمه في ذراعه طعنات متوالية أسالت دمه، وإذ ذاك طعنه النعمان في صدره طعنة ألقته صريعا والدم يتدفق منه، وفي الحال عاد النعمان إلى رشده ووقف مبهوتا.

وكان زين الدين لا تزال فيه بقية من الحياة، فنظر إلى النعمان وقال بكلمات متقطعة تعترضها حشرجة الروح في تراقيه: لقد قتلتني! .. نعم قتلت بطل اليمن، فاذهب واغتبط بهذه الجارية، إذ لم يبق من يزاحمك فيها .. ثم فاضت روحه.

فصاح النعمان من قلب جريح، وقد عظم عليه الخطب وبلغ منه الحزن واليأس كل مبلغ، فأكب على زين الدين يقبله ويقول: الويل لي، فقد قتلت صديقي .. نعم قتلت من أنقذني من الموت وكافأته بدل الخير شرا.

وحانت منه التفاتة إلى مويانا، وهي واقفة ترتعد، فقال لها بصوت يتهدج من شدة الغضب: أنظري أيتها الشقية ماذا فعلت! فقد قتلت صديقي بسببك يا ابنة الابالسة!

ثم هجم عليها وكان الخنجر لا يزال في يده يقطر دما، وطعنها في صدرها، فسقطت إلى جانب زين الدين تختبط بدمها.

***

وقـضى النعـمان بعـد ذلـك غابـر حياتـه حزيـن النفـس، كارهـا لجنـس النسـاء أشـد الكراهـة، وكان كلـما تذكـر حادثـة زيـن الديـن ترتعـد فرائصـه مـن مجـرد ذكـر الحـب.

خصام الزَّوجين

كان في إحدى المدن الكبيرة رجل من الموسرين يدعى إبراهيم، وكان قد تزوج في صباه فتاة من بنات الأسر الشريفة تسمى فدوى، ورزق منها ابنتين جادت عليهما الطبيعة بشيء كثير من اجمال واللطف. وكان اسم الكبرى (هند) والصغرى (دعد)، وقد بلغت الأولى السنة التاسعة من العمر، والثانية السابعة.

وجلست الأختان ذات يوم في غرفتهما الخاصة، وكان أمامهما على مائدة في تلك الغرفة بعض الكتب والأوراق وأدوات التصوير، وكانت والدتهما قد فرضت عليهما منذ الصباح أن تتشاغلا بالتصوير، غير أنهما لم تشعرا بشيء من الميل إلى ذلك. فكانت دعد تأخذ القلم وتشخص ببصرها طويلا، ثم تطرحه جانبا، وتنهض فتتقدم نحو الباب فتفتحه قليلا ثم تعود إلى كرسيها، وهي تحاذر أن تشعر والدتها بها. وأم هند فبعد أن جهدت نفسها صورت أخيرا جسم حيوان، ولكنها لم تعرف من أي نوع كان هذا الحيوان، وقد غلب على ظنها أنه قد يكون من حيوانات ما قبل الطوفان ... ولذلك فبعد أن رسمته أخذت تفرك جبينها وعينيها، لأنها لم تدرِ أين يجب أن ترسم ذنب هذا الحيوان .. وأين ترسم قرنيه .. .

وكان ذلك اليوم في نظر هاتين الطفلتين غريبا كله، فقد جاء صباحا رجل لم تعرفاه واجتمع بوالدتهما طويلا. وكانت دعد قد أضجرها طول احتجاب والدتها عنها، فدخلت إلى غرفة الجلوس حيث كانت

والدتها تحدث الرجل الغريب باهتمام، ولكنها لم تلبث أن خرجت باكية لأن والدتها صاحت بها ووبختها.

ولما كانت الأختان جالستين إلى مائدة الطعام صباحا لاحظت هند أن والدتها في غير حالتها الطبيعية، فقد رأت عينيها محمرتين ووجهها مضطربا، وأنها لم تذق شيئا من الطعام، وكانت إذا سألتها هند أو دعد شيئا لا تجيبهما بكلمة، وإن أجابت فلا يكون كلامها الجواب المطلوب.

ولما فرغ الجميع من الطعام قالت الأم للمربية: أريد أن تبقى هند ودعد اليوم في المنزل، فلا تخرجي بهما إلى النزهة.

وكأن ذلك لم يرق صغرى الأختين فقالت: إن الهواء جميل جدا اليوم يا أماه، فلماذا لا تريدين أن نخرج؟

فقطبت الوالدة جبينها وقالت: أسكتي ولا تعترضي.

فسكتت دعد ولكنها همست في أذن أختها قائلة: إن أمنا اليوم غاضبة .. فما عسى أن يكون سبب غضبها؟

ثم أمسكت بيد أختها واستأنفت قائلة: انظري ما أجمل هذه الشمس، وما ألطف هذا الهواء!، فلماذا لا تأذن لنا والدتنا في الخروج؟

وكانت هند ترى رأي أختها، ولكنها أخلدت إلى السكون، وقد ملأت الأفكار المضطربة رأسها الصغير، وضغطت قلبها. فشعرت بأنها مريضة. وكانت وهي جالسة مع أختها في الغرفة تتوقع أن تسمع من وقت إلى آخر جرس المنزل، وكأنها عرفت من سيكون القادم، فارتعشت وارتسم

الخوف على وجهها .. ولم يقل لها أحد شيئا ولكنها شعرت بأن أباها سيأتي اليوم وتراه.

قالوا لها قبلا أن أباها سافر منذ زمان إلى بلاد بعيدة، فلم تصدق، لأن قلبها كان يناجيها بأن أباها لم يبرح المدينة، وأنها لا تلبث أن تراه.

وعادت بمخيلتها إلى حوادث اليوم الأخير من وجود أبيها في المنزل، وقد هاج هائجه وأخذ يدخل غرفة ويخرج من أخرى، ويطل من النوافذ على الشارع، على أمل أن يرى والدتها قادمة، وكان يحتدم ويفور غضبه فيخرج من المنزل فيغيب قليلا، ثم لا يلبث أن يعود فيسأل الخدم عن سيدتهم ويعود إلى الاضطراب والهياج. وكأنه شعر بوجود هند وأختها دعد في المنزل، وكانتا قد وقفتا في غرفتهما خائفتين مذعورتين، فدخل إليهما وأخذ يضمهما إلى صدره ويقبلهما ويبكي، وكانت البنتان تبكيان أيضا، ثم تركهما وخرج، ولم يعد في ذلك المساء ولا في تلك الليلة.

وعلمت هند في اليوم التالي أن والدتها أخذت من والدها رسالة برقية، وأنها ما كادت تطلع عليها حتى صاحت صياحا شديدا اهتز له المنزل بأسره وأغمي عليها. وفهمت هند من حديث الخدم أن أباها قد بارز رجلا من خصومه وجرح جرحا بالغا كاد يقضي على حياته. وقد رأت والدتها بعد أن عادت إلى رشدها في أنها ذهبت بهذه السرعة إلى حيث كان والدها، فباتت تنتظر عودتهما معا، ولكن لم يعد في تلك الليلة إلا الوالدة. وقد رأتها هند في صباح اليوم التالي مضطربة البال كثيرة

البلبال، فلم تجسر أن تسألها عن أبيها، ولما سألتها دعد قالت لها: إن أباك سافر، ولم تزد.

وقد صدقت دعد هذا الخبر في بدء الأمر، ولكن هند لم تصدقه، وقد عرفت أن أباها مريض وطريح الفراش من الجراح التي أصابته، فكانت تغتنم كل فرصة تخلو بنفسها، فتجثو على الأرض وتبتهل إلى الله بحرارة أن تشفيه، وكثيرا ما كانت دعد ترى شقيقتها جاثية تصلي وتبكي، فتجثو هي أيضا بإزائها وتصليان كلتاهما معا وتبكيان.

ثم علمت هند ودعد أن أباهما قد شفي ولكنه لم يعد إلى المنزل، فذهلتا. وقد رأتاه مرة وهما تتنزهان مع مربيتهما، فركضت دعد إليه وتعلقت به، ومكثت هند مكانها وقد خنقتها العبرات، وتقدم هو إليهما وقد بش لهما، ولكنه لم يأخذهما بين ذراعيه كما كانت عادته عند اللقاء، وذلك لأنه كان لا يزال مريضا ولا يستطيع تحريك احدى يديه بسبب الجراح التي أصابته فيها، ولكنه قبلهما وتنهد وهز رأسه وقال: ألا تزالان تذكران أباكما؟، قال هذا ثم سار في طريقه، وسارت هند ودعد والمربية في طريقهن.

وصارت هند من ذلك الحين تؤثر الانفراد والعزلة، وقد قل كلامها وضحكها وكثر تأملها وتنهدها وبكاؤها، ولم تذكر أباها في حديثها مع والدتها، لأنها شعرت أن ذلك يؤلمها. ولما شرعت دعد تقص على والدتها خبر مقابلتهما لوالدهما، احتدمت هند وأخذت تقاطعها لتمنعها من تتمة الكلام.

وفيـما كانـت الشـقيقتان جالسـتين في غرفتهـما وقـد شـغلتا بالتصويـر شـعرت هنـد باضطـراب والدتهـا وقلقهـا وجزعهـا، وشـعرت في الوقـت نفسـه بـأن أباها سـيجيء إلى المنـزل ويقابـل والدتهـا، فكانـت تتوقـع قـرب هبـوب العاصفـة، ولا تعلـم مـا سـيكون وراءهـا.

***

لم تسـمع هنـد جـرس المنـزل، ولكنهـا فوجئـت بفتـح بـاب الغرفـة بعنـف، وإذا بوالدتهـا قـد دخلـت الغرفـة وهـي ترتعـش وترتجـف وقالـت لهـا ولشـقيقتها: لقـد جـاء أبوكـما، فاذهبـا إلى غرفـة الجلـوس لمقابلتـه.

ومـا سـمعت الطفلتـان هـذا الـكلام حتـى ذعرتـا، ونظـرت دعـد إلى شـقيقتها بوجـل، وطرحـت هنـد القلـم مـن يدهـا ووقفـت كالمأخـوذة .. ثـم جـاءت المربيـة فأخـذت البنتـين بأيديهـما وسـارت بهـما إلى غرفـة الجلـوس.

وكان إبراهيـم واقفـا في وسـط الغرفـة، وهـو أشـبه بالضيـف منـه بصاحـب المنـزل. فلـما سـمع وطء أقـدام ابنتيـه تقـدم فاسـتقبلهما ببشاشـة وقبلهـما وهـو ينظـر إلى دعـد ويحـاذر أن يلتقـي نظـره ونظـر هنـد، ثـم قـال لهـما: إني مسـافر وقـد جئـت الآن لأراكـما وأودعكـما قبـل سـفري.

فقالت دعد: وكيف تسـافر؟ وإلى أين؟

قال: بهذا قضت الأحوال ... وسأسـافر إلى بلاد بعيدة جدا.

ولم تبـال هنـد بمـا سـمعت لأنهـا لم تصـدق شـيئا، ولكنهـا حنـت رأسـها وسـكتت.

وكانت فدوى بعد أن أعلنت لابنتيها وجوب ذهابهما لمقابلة الوالد، قد لعبت بها الهواجس، وتقسمتها الأفكار والمخاوف.

إن فدوى قد قطعت كل علاقة لها بإبراهيم، وطلبت الطلاق منه رسميا، وعهدت إلى أحد المحامين أن يقوم عنها بذلك لدى المحاكم.

وقد جاء هذا المحامي اليوم صباحا وسأل فدوى وألح عليها أن تأذن لإبراهيم في مقابلة ابنتيه لتوديعهما. ورضيت هي بذلك على شرط أن لا تطول مدة هذه المقابلة، وأن لا يحاول مقابلتها هي لأنها تأبى عليه ذلك.

وذكرت فدوى يوم قابلت زوجها آخر مرة، وكان قد سقط جريحا على أثر المبارزة التي جرت بينه وبين خصمه، ولم تكن هي تعرف السبب الباعث على هذه المبارزة إلا بعد أن هرعت إلى المستشفى لترى زوجها وتعنى به، فعرفت هناك ما لم تكن تعرف وما لم تكن تتوقع.

عرفت أن السبب هو فتاة من الممثلات المتهتكات، كان إبراهيم قد ولع بها كما ولع بها غيره، ووقعت المنافسة بين المحبين، وختمت بهذه المبارزة التي كادت تكون القاضية على حياته.

عرفت فدوى ذلك، ولكنها لم تترك زوجها في المستشفى إلا بعد أن تحققت زوال الخطر عن حياته، فغادرته وعادت إلى منزلها، وهي لا ترى إلا أن تنفصل عنه انفصالا تاما، وقد خابت آمالها وتولاها اليأس الشديد.

وقـد تذكـرت الآن كل حـوادث حياتهـما الزوجيـة منـذ عـشر سـنوات، وعـادت بأفكارهـا إلى حياتهـا قبـل أن اقترنـت بإبراهيـم، يـوم كانـت لا تـزال في بيـت أبوهـا وقـد انصرفـت إلى الـدرس والمطالعـة، ومالـت كل الميـل إلى العلـم والأدب والفلسـفة، لا يسـتهويها حـب ولا غـرام. وقـد لبثـت كذلـك حتـى السـنة الرابعـة والعشريـن مـن حياتهـا، ثـم تعرفـت بإبراهيـم، وهـو أصغـر منهـا بسـنتين، وكان مـن شـبان العـصر يحـب التبذيـر والاسراف، وقـد بـدد نصـف ثـروة والـده في ذلـك. فرأتـه فـدوى في بعـض المجتمعـات فأعجبهـا بجمالـه وآدابـه وصفاتـه، ورضيـت الاقـتران بـه، وهـي إنمـا فعلـت ذلـك اشـفاقا عليـه ورغبـة في انقـاذه مـما كان فيـه مـن الورطـات والمـآزق .. ولم يوافـق والداهـا عـلى هـذا الـزواج، غـير أن فـدوى قاومتهـما لأنهـا كانـت تجـد لـذة في المقاومـة، وتغلبـت عليهـما أخـيرا واقترنـت بإبراهيـم كـما أرادت. وقـد أحبهـا ابراهيـم بـكل مـا فيـه مـن قـوة، وكانـت هـي أحـن عليـه مـن ضلوعـه، فكانـت لـه زوجـة ومرشـدة مخلصـة في وقـت واحـد، كـما كانـت لأولادهـا أمـا مهذبـة رؤوفـة، ولمنزلهـا مدبـرة حكيمـة مقتصـدة. إلى أن جـرى الحـادث الأخـير وهـدم إبراهيـم بيـده مـا بنـاه هـو وزوجتـه في السـنوات العـشر، وأسـاء إلى نفسـه كـما أسـاء إلى زوجتـه وابنتيـه إسـاءة لا تغتفـر.

وقـد بكـت فـدوى كثـيرا مـن جـراء هـذا الحـادث. بكـت نفسـها لأنهـا أهينـت أعظـم اهانـة مـن زوجهـا، وكوفئـت منـه شر المكافـأة، وبكـت زوجهـا لأنهـا خسرتـه إلى الأبـد، وبكـت ابنتيهـا لمـا سـيكون لهـذه الحادثـة مـن الوقـع الـسيء في نفسـيهما وقلبيهـما مـدى الحيـاة.

غير أن فدوى قد عنيت بإبراهيم يوم كان فاقد الشعور على أثر المبارزة، ولم يكن همها إلا أن يشفى، ولما أخذ يتماثل إلى الصحة هجرته، وفي نفسها أنها هجرته إلى الأبد، وقد حاول أن يقابلها بعد ذلك، وكتب إليها رسائل كثيرة يستعطفها ويستغفرها ولكن بلا جدوى، لأنها لم تجبه بكلمة، ولم تطلب إلا الطلاق، إلى أن رضي هو أخيرا بطلبها العادل، كما رضي أن يهجر المدينة التي تكون فيها فدوى وابنتاها إلى الأبد، ولم يبق لإنفاذ هذه الشروط إلا تسجيلها على يد وكيلي الزوجين.

وبينما كانت فدوى غائصة في لجة الأفكار، وقد تجلت في مخيلتها الحوادث المار ذكرها، إذا بدعد الصغيرة قد دخلت عليها فجأة وبيدها بطاقة، فلم تشك في أن إبراهيم يدعوها إلى مقابلته، فابتسمت بازدراء وهمت أن تأخذ البطاقة من دعد وتمزقها، ثم عدلت عن هذا العزم لما رأته في عينيها من آثار الدموع، فتناولت البطاقة وقرأت فيها ما يأتي بتوقيع إبراهيم: لا بد من المقابلة لتقرير بعض الأمور، فأستحلفك بكل عزيز ومقدس لديك أن لا تحرميني إياها، وهي لن تأخذ من وقتك إلا بضع دقائق.

قرأت فدوى هذه الأسطر وهي لا تدري أتقبل أم ترفض .. ثم خرجت من الغرفة وهي لا تدري أيضا أتذهب لمقابلة إبراهيم أم لا .. ولكنها ما كادت تخرج حتى رأت هند واقفة عند الباب وقد انتفخ وجهها واحمرت عيناها من شدة البكاء. فتأثرت لها كما تأثرت لشقيقتها وشعرت بما يدفعها إلى مقابلة والدهما، ولم تبطئ أن بلغت غرفة الجلوس وقد قطبت حاجبيها، فرأت إبراهيم واقفا فدخلت وجلست،

ثـم قالـت وهـي لا تـكاد تنظـر إليـه: لقـد سـألتني بواسـطة المحامـي أن تقابـل ابنتيـك، فأذنـت لـك في ذلـك، عـلى شرط أن لا تزعجهـما وتبكيهـما، وهـا أنـك قـد أخللـت بهـذا الـشرط ولم تقـم بمـا وعـدت.

فقـال إبراهيـم: ولكنـي لم أذكـر للطفلتـين مـا يسـتدعي تأثرهـما وبكاءهـما، وإذا كنـتِ لا تريديـن إلا أن تـري في ذلـك اخـلالا فـما أنـا بـذي القلـب الصخـري والنفـس الجامـدة لأقـف مـع ابنتـي هـذا الموقـف بـلا مبـالاة ومـن غـير تأثـر.

فنظـرت فـدوى إليـه شـزرا وقالـت: والآن، فـما الـذي تريـد أن تقولـه لي؟ قـل وأوجـز!

قـال: لا أريـد أن أقـول إلا أني أحبـك يـا فـدوى، ولا يمكنـك أن تنزعـي هـذه الحـب مـن قلبـي مهـما تحـاولي ذلـك ومهـما تسـتعيني بالقوانـين والشرائـع.

فذعـرت فـدوى ونهضـت تريـد الخـروج وهـي تقـول: إذا كان لـك مـا تريـد أن تقولـه لي غـير هـذه، فأرجـو أن يكـون ذلـك عـلى يـد المحامـي.

فظهـرت عـلى وجـه إبراهيـم ابتسـامة تهكـم وقـال: أخطـأت يـا سـيدتي، فأنـا لا أسـتطيع أن أقـول للمحامـي مـا يجـب أن أقولـه لـكِ، نعـم لـك يجـب أن أقـول كل شيء أيتهـا القاسـية الظالمـة، فأنـت لم تحبينـي قـط، لأنـك لا تسـتطيعين أن تحبـي إلا نفسـك.

وكانـت فـدوى قـد عزمـت عـلى الخـروج، ولكنهـا مـا سـمعت هـذا الـكلام حتـى شـعرت بمـا اضطربـت لـه نفسـها واحمـرت وجنتاهـا، فقالـت: لـك أن

تقـول مـا شـئت وتتهمنـي بمـا شـئت، ولكـن لا تنـس أني باقـتراني بـك قـد آثـرت سـعادتك عـلى سـعادتي، ووقفـت نفـسي عـلى خدمتـك والاخـلاص لـك والعنايـة بـك وبـأولادك ومنزلـك، وقـد قمـت بواجبـاتي هـذه إلى النهايـة.

قـال: إلى النهايـة؟ .. تقولـين إلى النهايـة؟ .. وهـل هـذا صحيح؟ .. ألم تتركينـي عـلى فـراش المـرض، تمزقنـي الآلام النفسـية والجسـدية ولم تبـالي؟

قالـت: ولكنـي لم أتـركك إلا بعـد أن تحققـت زوال الخطـر عنـك، ومـاذا تنتظـر منـي غـير ذلـك؟ أأبقـى بإزائـك وقـد ظهـر منـك مـا ظهـر مـن هـذه الخيانـة الفظيعـة ومـن هـذه المخاطـرة بالـشرف والحيـاة؟، وهـل يمكننـي أن أسـامحك عـلى مثـل ذلـك؟

قـال: تسـامحيني؟ ومـا هـذه الكلمـة العظيمـة التـي فهـت بهـا الآن؟ فهـل تعرفـين أنـت معنـى المسـامحة؟ وهـل سـامحت أحـدا في حياتـك؟ إنـه لأيـسر لـك أن تقتـلي مـن يـسيء إليـك بـشيء وتدوسـيه بقدميـك مـن أن تسـامحيه أو تصفحـي لـه! إني لا أنكـر لـك عـلي مـن الأيـادي البيضـاء منـذ اقترنـت بـك، فقـد اعتنيـتِ بي واهتممـتِ بشـؤوني أعظـم اهتـمام، وكأنـك ندمـت الآن، فقمـت تناصبينـي العـداء وتريديـن أن تقطعـي كل صلـة لـك بي، وكل ذلـك لأنـك لم تحبينـي.

قالـت: ولكنـك غـير مصيـب، لأني بذلـت لـك كل شيء، ومـن يسـتطيع أن يقـف نفسـه عـلى خدمـة غـيره، إن لم يكـن محبـا مخلصـا؟

قـال: إذا فأنت قد أحببتني أيضا.

قالت: نعم.

قال: فإذا كنت صادقة في حبك كما تزعمين، فقد آن وقت اقامة الدليل والبرهان على صحة ذلك، وها أني أقع على قدميك يا فدوى، يا زوجتي الحبيبة، وأسألك بحق الحب الذي اختلج به قلبك أن تصفحي! أعيدي إلي بيتي وأسرتي وابنتي العزيزتين، وزوجتي الحبيبة!، لا تنبذيني!، لا تقذفي بي إلى هوة الشقاء!، أبسطي إلى ذراعيك فأعود إلى السعادة والهناء، وتعود حياتنا الزوجية إلى أهنأ مما كانت، ويعود الابتسام إلى طفلتينا.

قالت: ولكن لا يمكن أن يكون هذا، وأنت تطلب مستحيلا الآن، فقد مضى ما مضى، ولست أنت الآن إلا غريبا عني.

فهز إبراهيم رأسه وقال: أصبت، فقد كنت غريبا عنك كل هذه السنوات العشر، وما كلامك عن المحبة التي ادعيتها إلا من الخدع النسائية التي تموهين بها .. أما أنا فقد أحببتك فعلا، وكنت أرجو أن أوقظ في نفسك هذا الحب، فخاب رجائي.

قالت: وعلاقتك بهذه الممثلة، أفلم تكن تحبها أيضا؟

قال: صدقيني إني لم أحب أنثى سواكِ .. وليس لك أن تناقشيني على أعمالي من هذا القبيل، إذ ليس موقفي الآن أمامك إلا موقف جانٍ يطلب الصفح، سواء خدع بحب سواك، أو خيل إليه ذلك، أو خاطر بحياته، أو فعل غير ذلك من المآثم، فأما أن تصفحي لي، أو تمضي على

عزمـك، فينتهـي بيننـا كل أمـر.

قـال هـذا وبسـط إليهـا يـده، وكادت تقابلـه بالمثـل فتمـد يدهـا وتضمـه إلى صدرهـا، ولكنهـا تجلـدت وأبـت أن تسترسـل في عواطفهـا، ولبثـت واقفـة تنظـر إليـه ولا تـدري مـا تقـول. أمـا هـو فلـما رأى منهـا هـذا الإعـراض زفـر زفـرة حـارة وقـال: إذا فالـوداع يـا فـدوى! الـوداع إلى الأبـد! ثـم خـرج مـن الغرفـة وأخـذ يهبـط درج المنـزل وهـو يـكاد يتعـثر بأذيالـه.

وكانـت هنـد ودعـد قـد وقفتـا في طريقـه ليأخذهـما بـين ذراعيـه ويقبلهـما، ولكنـه لم ينتبـه إليهـما، ورأت فـدوى مـا فعلتـه الطفلتـان، فلـم تنتبـه أيضـا، لأنهـا كانـت شـاخصة كلهـا إلى إبراهيـم كأنهـا تعـد خطواتـه، وخيـل إليهـا أم أمـرا عجيبـا يجـب أن يظهـر الآن فجـأة، وأن عليهـا هـي أن تقـوم بهـذا الأمـر العجيـب .. بيـد أنهـا لم تـدر كيـف يكـون ذلـك، وقـد خانتهـا قواهـا، وكادت تسـقط عـلى الأرض.

وكانـت عيناهـا لا تـزالان مرافقتـين لإبراهيـم، وقـد رأتـه قـد بلـغ البـاب الخارجـي، فانتفضـت بغتـة وخرجـت مـن غرفـة الجلـوس كالمجنونـة، وصاحـت بأعـلى صوتهـا: عـد، عـد يـا إبراهيـم.

وعـادت قواهـا فتلاشـت .. غـير أن إبراهيـم كان قـد وصـل إليهـا قبـل أن تسـقط، فأخذهـا بـين ذراعيـه، ودخـل بهـا إلى مخدعهـا، وهـو يغطـي وجههـا بالقبـل الحـارة ويبـكي، ومـن حولـه هنـد ودعـد تطفـران سرورا وبهجـة.

حجر الفلاسفة

الحادثـة التاليـة جرت منذ عهد بعيد، في مدينة شـيراز من أجناد ايران.

وكان النـاس في هـذه البـلاد طبقـات، كـما هـم في كل مـكان، فـكان منهـم العـمال والنبـلاء، والعبيـد والأحـرار، وكانـت كل طبقـة تكـره غيرهـا مـن الطبقـات، ويـزدري كل فريـق مـن سـواه.

وانتـشر الفقـر والجـوع فيهـا في بعـض السـنين، فانحطـت بسـبب ذلـك الآداب، وبـاع الأخ أختـه والأم ابنهـا والأب ابنتـه، وتجـرد الجمهـور مـن الذمـة والحيـاء، وسرت في المـدن الرذيلـة وتفاقـم الـشر.

غـير أن الشـمس كانـت لا تـزال تـشرق عـلى تلـك الربـوع، كـما أشرقـت في اليـوم الأول مـن الخليقـة، يـوم لم يكـن لأحـد عهـد بالـشر.

وكان عـلى مسـافة بعيـدة مـن المدينـة حديقـة غنـاء، قـام في وسـطها قـصر جميـل شـاهق البنيـان متسـع الأركان، وكان في جملـة قاطنيـه ولـدان صغـيران، وكانـت الشـمس تـشرق لهـما كل نهـار، ولعلهـا بسـببهما كانـت تـشرق عـلى سـائر الأكـوان.

وهـما: صبـي، ابـن رجـل مـن نبـلاء الايرانيـين واسـع الـثروة بسـيط الجـاه هـو رب القـصر المذكـور، وبنـت، ابنـة رجـل مـن عبيـد ذلـك القـصر الأرقـاء.

وكان الصغـيران يقضيـان سـاعات كل نهـار في اللعـب واللهـو، دون أن ينتبـه أحـد مـن أهلهـا إلى الألفـة التـي كانـت تنمـو بينهـما عـلى مـدى الأيـام.

فترعرعا كفرعين من أصل واحد، إذا قطعت أحدهما ذبل الأخر ومات.

هو كان يريها أعشاش الأطيار على أفنان الأشجار، ويعلمها أن تصغي إلى حفيف السنابل في الحقول وخرير ماء النهر الجاري، وهي كانت تحمله على التأمل في جمال الطبيعة، وتعلمه أن يشعر بها ويفتتن.

وفي ليالي الشتاء الطويلة كان الصبي بعد أن يفرغ من دروسه على معلميه يجيئ إلى صديقته، فيسرد لها ما تعلمه، أو يحكي لها ما يعرفه وما كان يسمعه من الحكايات والأقاصيص عن الأصقاع النائية، حيث الشتاء متواصل والليل سرمدي، وحيث نهاية الأرض وبدء الفضاء الواسع الذي لا نهاية له.

كانت الفتاة تسمع من صديقها هذه الأخبار العجيبة بمنتهى اللذة والغبطة، فتتعجب من أمر أولئك الناس سكان الأصقاع المتجمدة وهم مرتدون بجلود الوحوش، وتشعر أنهم في أمس الحاجة إلى الشمس، وكانت إذا تصورت ذلك تسند رأسها إلى صدر رفيقها وتقول له: هيا بنا نذهب إلى أولئك الناس، نحمل لهم الشمس!

كانت هذه الفتاة تعتقد أنها وحبيبها قادران أن يأخذا الشمس إلى أولئك الناس، لأن الشمس كانت مشرقة في نفسيهما.

ومرت السنون على ما ذكرنا، وقد تمكنت الألفة بين الصغيرين، ونمت في قلبيهما جراثيم المحبة الطاهرة، فشبا على ذوق واحد، وكانت عواطفهما ونفساهما واحدة في جسمين.

ولما رأى النبيل أن ابنه قد تجاوز سن الحداثة، عزم على ارساله إلى مدرسة عالية لإستيفاء دروسه فيها، وما عتم أن أرسله إلى المدينة.

كانت نفس هذا الفتى صافية نقية عندما هبط المدينة، وما هي إلا بضعة أيام حتى تعرف بجمهور من الأصدقاء في المدرسة وخارجها، فكان يقضي جانبا من ساعات نهاره في الدرس والمطالعة، والجانب الآخر في معاشرة الناس واختبار أحوالهم.

وكان آية في الجمال والظرف ومحاسن الاخلاق. لم تره امرأة أو فتاة إلا شغفت بعذوبة حديثه وفتنت بجماله. أما هو فكان ينظر إلى جميع النساء والفتيات على السواء، إذ لم يكن في قلبه إلا صورة محبوبته التي نشأ معها منذ الصغر.

رأى هذا الفتى في المدينة أمورا كثيرة، رأى جمهورا من الرجال، من ذوي العقول الثاقبة، والجبابرة، والخطباء المصاقع، هائمين بالنساء إلى درجة الجنون، ولكنه من الجهة الأخرى سمع هؤلاء الرجال يرمون المرأة بكل ذميم وقبيح.

رأى وسمع ذلك كله، فأيقن أن المدينة خالية من الصدق والحق، وأنها مفعمة بالرياء والكذب. فشعر بانقباض نفسه وحن إلى الرجوع إلى منزله، ليجتمع برفيقة حداثته، لأنها كانت في نظره أبدع صورة، وأطهر قلبا، وأشرف نفسا، من جميع النساء اللاتي رآهن في المدينة، ورأى أنه باقترانه بها سينال أقصى أمنية في الأرض، وينجو بها من هذه الشرور والأدناس كلها.

وما زال هذا الفكر يتجسم في رأسه حتى لم يبق الصبر في امكانه، فبرح المدينة وعاد إلى قصره، وهو لا يدري ما خبأه له القدر. فاستقبله أبواه وذوو قرباه بمنتهى الارتياح وأقفل عليه الباب، ولكنه لم ير بين المهنئين أقرب الناس إليه، لم ير رفيقة صباه وحبيبة قلبه. ولما سأل عنها أجابوه بأن أباه قد باعها لسيد سواه، ولا أحد يعلم عنها شيئا الآن.

سمع الشاب ذلك، وقد أصابه نوع من الذهول، فلم يدرك شيئا. ولما عاد إليه رشده وتذكر الحديث، أظلمت الدنيا في وجهه وأنكر عمل أبيه، وتولاه اليأس الشديد وتولد في نفسه حب الانتقام. وصار من ذلك الحين يحيي لياليه في النحيب، ولا يأنس بمشاهدة أحد ولا يرغب في سماع شيء، وكان يزداد مقتا لأبيه ونفارا من جميع أرباب السيادة وطبقة الأشراف، وما زال كذلك حتى ذوت نضارته وهزل جسمه.

وفي إحدى الليالي دخل مخدع أبيه، فألفاه في سبات عميق، فدنا منه وفي يده مدية يريد أن يطعنه بها .. بيد أنه لم يلبث أن ثاب إليه صوابه، فخرج إلى غرفته وأقفل عليه الباب.

ومن ذلك الحين اعتزل الناس قاطبة، وأكب على الكتب القديمة والحديثة يطالعها ويتفهم شؤون البشر وتاريخ العمران، فرأى أن العبودية هي شر ما أنتجه الإنسان لشقاء الإنسان.

وقرأ ذات يوم مقالا في بعض الأسفار القديمة عن «حجر الفلاسفة» وقد راقه الموضوع، وساقه إلى البحث عن هذا الحجر العجيب وفائدته

للبشر، إلى أن أدرك أخيرا أنه «الحرية والمساواة والإخاء»، وأن ذلك لا يتم لأمة إلا إذا ظفرت بهذا الحجر.

نسي هذا الشاب العالم بأسره، ولكنه لم ينس رفيقة حداثته وزنبقة حياته، وكان كلما تذكرها ازداد اكتئابا وضنى، وشعر بنار الانتقام تزداد اضطراما في صدره.

وقضى في قصر والده بضعة أسابيع يعاني أشد الكمد والوحشة، ولما ضاقت في وجهه المسالك، ولم يبق في طاقته احتمال الاقامة مع أبيه، عمد إلى السفر والجولان، فخرج من ذلك القصر هائما على وجهه.

***

بعد هذه الحادثة بأربعين سنة، وقف شيخ على شاطئ نهر النيل يتأمل في مياهه الجارية. وكان هذا الشيخ عالما كبيرا، وقد حنت الأيام ظهره، وجعدت الهموم وجهه. وقد اتخذ لنفسه منزلا صغيرا مشرفا على النهر، بعيدا عن مساكن الناس، وكان يقضي أيامه تارة في منزله بين كتبه وأدواته، وطورا على شاطئ النيل.

جلس هذا الشيخ في منزله في أحد الأيام، وكان أمامه على منضدة صغيرة حجر جميل يتألق نوره كالشمس. هذا هو «حجر الفلاسفة» الذي أفنى هذا الشيخ، أو ذلك الشاب، أيامه في البحث عنه. هذا هو الحجر الذي يحرر العبيد ويجعل جميع البشر أخوة.

كان الشيخ جالسا أمام الحجر يتأمل في تألقه، والدموع تنهمر من

عينيه. إنه قضى حياته كلها وهو يبحث عنه، وقد جاب لأجل ذلك القفار وطاف في الأمصار، حتى وجده أخيرا في أرض الفراعنة.

بهذا الحجر ستزول شرور البشر وقسوتهم وبذاءتهم، وتنتشر الحقيقة والمساواة في كل مكان. ولكن من أين يبتدئ هذا الانقلاب في الكون؟، وعن أي منبر يسمع صوت الحرية؟

أطرق الشيخ مليا، وقد تمثلت له صورة تلك الفتاة الجميلة التي كان موتها هو الدافع إلى هذا الاكتشاف، فوقف وصاح بملء فيه: أجل أيتها الحبيبة! إن ضريحك سيكون أول منبر يسمع منه صوت الحرية والمساواة والإخاء ... إنهم قد فرقوا بيننا، ثم أذلوك وظلموك، فقضيت شهيدة قساوة البشر وأحكامهم الجائرة.

وقام من ساعته، فحمل الحجر العجيب وانقلب راجعا إلى بلاده، ليزور ضريح الحبيبة، ثم يكشف للبشر ما قضى السنين الطوال لأجله. وكان في طريقه يمر بالمدن الآهلة بالسكان، فيرى الناس يبحثون عن الحقيقة، ولكن من غير طرقها. وكان إذا حاول الكلام يتصدى له الجمهور بالتهكم والازدراء ويتهددونه بالرجم، فيواصل سيره واجما متحملا الاهانة والجوع والبرد إلى أن وهنت قواه. ولكنه كان يتحامل على نفسه ويسير إلى الأمام وهو عالم بأنه يستطيع أن يغير وجه الكون في طرفة عين، وهذا ما نشطه وشدد عزائمه.

ومازال يصل السير بالسرى إلى أن بلغ بلده، فانطلق توا إلى قصر والده، فعلم أنه مات منذ ثلاثين سنة، وقد أوصى له بجميع ثروته وأملاكه.

وكان بعد أيام أن هذا الشيخ قد باع جميع أملاكه، ووقف ثروته كلها على انشاء المدارس والملاجئ لأولاد الفقراء والبائسين.

وأما حجر الفلاسفة الذي كان لديه فأرسله إلى ملك البلاد مصحوبا بكتاب يقول فيه: إذا أردت أيها الملك أن تصنع شيئا لرعيتك، فزين بهذا الحجر تاجك، وهو ينير أمامك سبيل المساواة والإخاء، ويوطد ملكك، ويرشدك إلى اصلاح كل شأن من شؤون العباد والبلاد.

***

واهتدى الشيخ بعد ذلك إلى ضريح رفيقة حداثته، فكان يزوره صباح مساء، ويرحم على هذه الزهرة الذابلة قبل أوانها. ولما شعر بدنو أجله، أوصى أن يدفن في قبرها، وأن ينقش على ضريحهما: قد فرقتنا أحكام البشر، فجمعتنا أحكام الطبيعة.

العلاج الشَّافي

حدثنا بعض الرواة الحديث التالي، قال:

كان «بوسطر» من أشهر نطس الأطباء في نيويورك، وكان يزوره في منزله كل يوم عشرات من المرضى، فيعالج أدواءهم بما أوتي من المهارة والحذق، ويزيد بذلك اعجاب القوم به وثقتهم بكفايته.

وجاء في أحد الأيام إلى منزله فتى في عنفوان الشباب، جميل الصورة لطيف الذات، تظهر عليه أمائر الغنى والترف. فاستقبله حاجب المنزل وناوله رقعة لينتظر نوبته في الدخول على الطبيب، فنظر إليها الزائر باستخفاف وقال: أعط هذه لغيري، وأما أنا فلا يسعني الانتظار، لأني أريد مقابلة الطبيب حالا.

فابتسم الحاجب وقال: لا حيلة لي في ذلك يا سيدي، ولست أسمح لك بالدخول قبل من سبقك في المجيء من المرضى، ولو كنت رئيس الجمهورية نفسه.

فأخرج الزائر بضعة ريالات من جيبه، ووضعها في يد الحاجب وقال: قلت لك اني أريد الدخول حالا. فأبرقت أسرة الحاجب، وبادر إلى الباب ففتحه، وقال بصوت سمعه سائر المرضى: تفضل إذن لأنك من أعز أصدقاء سيدي الطبيب.

فدخل الزائر ردهة كبيرة كان الطبيب بوسطر جالسا في غرفة تحاذيها وقد شعر بقدومه، فانتظر حتى إذا فرغ مما كان بين يديه من العمل،

استدعاه وسأله عن مرضه، فقال: إذا استطعت يا حضرة الطبيب أن تبرئني مما بي دفعت إليك عشرة آلاف ريال.

فقال بوسطر برزانة: إن واجباتي تقضي علي بمساعدة جميع ذوي الاسقام، لا فرق عندي بين غنيهم وفقيرهم، فاذكر لي مرضك.

فقال: إني لا أشعر بمرض.

فدهش بوسطر، وكاد يعتقد لأول وهلة أن الشاب مصاب في عقله، ولكنه تفرس في وجهه مليا ثم قال: أذكر بغيتك من هذه الزيارة وأوجز في القول، لأن غيرك أيضا ينتظرني.

قال: اسمح لي إذن أن أقص عليك تاريخ مرضي.

قال: ولكن لا تنس أن أربعة وسبعين مريضا ينتظرونني خارجا.

قال: اسمح لي من وقتك بخمس دقائق فقط، وأنا أنقذك عن كل دقيقة ألفي ريال.

قال: تكلم.

قال: أنا «جان فندال» وكان لوالدي يوم وفاته ثروة تقدر بثلاثين مليون ريال، ولم يكن له غيري من الأولاد، فورثت هذه الثروة عنه، وهي قد زادت الآن عما كانت عليه كثيرا.

قال: إني لا أجهل اسم والدك، فأهنئك وأرجو أن تزيد ثروة وجاها، فاذكر لي الآن مرضك.

قال: مهلا أيها الطبيب فقد شرعت في وصفه، فأرجو أن تصغي إلي .. فاعلم أني الآن في الثلاثين من عمري، ولا ينقصني شيء من أسباب الرفاهية، ومع ذلك أراني تعسا شقيا، وأرى الحياة عبئا ثقيلا علي، وقد سئمت كل شيء فيها، واستولت علي السويداء فهي لا تفارقني نهارا وليلا، ولذلك فإني أسألك أن تفرغ جهدك في معالجتي إذا كان ذلك مستطاعا لديك، أو أرشدني إلى أسهل سبل الموت، ولك في الحالتين المكافأة التي أشرت إليها في مقدمة كلامي.

قال: حسن، فأذكر لي الوسائل التي استخدمتها لتسرية ما بك من الكرب.

قال: لم تبق وسيلة يستطيعها البشر إلا استخدمتها، كالسياحات، والمسابقات في كل مضمار، والملاهي على أنواعها، والصيد والقنص، والشراب، ومغازلة الحسان، وكل ما تصبو إليه النفس وترتاح إليه العين ويستعذبه الطبع.

قال: وأي النساء عاشرت؟

قال: من جميع الطبقات والأصناف والأمم والأعمار ومراتب الجمال.

قال: أعزب أنت أم متزوج.

قال: لا أزال عزبا، وقد خطبت الأنسة جوزفين سليد احدى حسان أميركا، وهي تفوقني ثروة، لأن والدها الملقب بملك الزجاج من أشهر أصحاب الملايين في هذه البلاد، وقد أحبتني حبا عظيما، فلم ترض

سواي من مئات الخطاب الأغنياء الذين كانوا يحومون حولها، غير أني لم البث أن هجرتها.

قال: وما سبب ذلك؟

قال: ليس لذلك من سبب. فقد كنت جالسا معها ذات يوم في قصرها، وقد تولتني السآمة وكاد الضجر يقتلني، ولم أهتد إلى موضوع للحديث، ولم يستطع جمالها الرائع أن يجتذب نظري، ولا حديثها العذب أن يسري غمي، فنهضت وقلت لها: إني مسافر في الغد إلى سيبيريا .. ثم تركتها جامدة كالصنم وغادرت القصر في الحال. وفي ثاني الأيام سافرت إلى سيبيريا، وأنا أعلل النفس بانقطاع كل علاقة لي بخطيبتي، وكنت أتوقع أنها تتحول عني إلى حب سواي، وتقترن بأحد الأصدقاء الذين كانوا يختلفون إلى قصرها. بيد أنها لم تفعل شيئا من ذلك، بل أقامت ترقب عودتي، ولا جرم أن صنيعها هذا كاف وحده لإيقاظ عواطفي كلها نحوها، ولأن أقف حياتي بأسرها على هواها .. ولكن لا قبل لي بشيء من ذلك لأني لا أستطيع أن أحبها.

قال: ولما ذلك؟

قال: لأنها كاملة الصفات، كريمة الخصال، ولا عيب فيها.

قال: ولكن ليست النساء كلهن كالآنسة جوزفين، فإذا أنت لا تحب في المرأة هذه الصفات، فيمكنك أن تجد غيرها.

قال: ليس للحب سبيل إلى قلبي مهما كانت صفات المرأة.

قال: وهل عالجت جميع ضروب السباق؟

قال: لم أدع ضربا منها إلا عالجته، وجربت الشعور بالفقر المدقع أيضا، ولم أشف ...

قال: وكيف ذلك؟

قال: بينما كنت في بعض مدن سيبيريا، جاءتني رسالة برقية من نيويورك تنبئني بأن المصارف التي أودعتها ثروتي قد أفلست، وأصبت أنا من جراء ذلك بخسارة جميع أموالي دفعة واحدة .. غير أن ذلك لم يؤثر في شيئا .. ولما عدت إلى وطني تحققت أن الخبر كان اكذوبة، لأن ثروتي لم تنقص شيئا، بل بالعكس زادت في هذه المدة أضعافا .. أما أنا فلم أفرح لهذه الزيادة، كما أني لم أحزن للخسارة.

قال: ومن خدعك بتلك الرسالة؟

قال: جوزفين نفسها .. وقد زعمت أنها الذريعة الناجعة لشفائي مما أنا فيه، فلم تفلح .. وها قد جئت الآن اليك يا حضرة الطبيب التمس منك أن تعالجني بكل ما أوتيته من الحذق، أو تميتني بأسهل أنواع الموت.

قال: لا تخف فسيكون لك ما شئت.

قال: أنت إذن تروم معالجتي، وتبشرني خيرا.

قال: نعم.

قـال: إذا كان الأمـر كـما تقـول، فلـك منـي غـير الأجـرة المقـدم ذكرهـا، مكافـأة أخـرى لا تقـل عنهـا شـيئا.

قـال: تعـال غـدا إلي، ومعـك صـك يتضمـن رضـاك بـكل واسـطة أروم اسـتخدامها لمعالجتـك، وأن كل مـا أفعلـه لهـذه الغايـة مطابـق لمشـيئتك، وهـذا الصـك توقعـه بحضـور شـاهدين أدعوهـما لذلـك.

قـال: يظهـر لي أنـك غـير واثـق بصحـة مـا تريـد اسـتخدامه لمعالجتـي مـن الذرائـع، فعزمـت أن تقتلنـي قتـلا بطيئـا.

قـال: أنـت واهـم يـا سـيدي .. ولكـن مـع ذلـك أكتـب وصيتـك الأخـيرة، لأنـك كـما أرى لا تخـشى المـوت.

قال: إني لا أخشى شـيئا ولا أرهب أمرا الآن.

قـال: ولا تنـس أن تحـضر معـك ورقـة ماليـة بقيمـة العـشرة آلاف ريـال، وهـي الأجـرة التـي سـأقبضها منـك مقدمـا.

فنهض جان وهو مسـتبشر ببلوغ المرام، ثم ودع الطبيب وخرج لشـأنه.

وفي اليـوم التـالي جـاء جـان فنـدال إلى منـزل الطبيـب بوسـطر، فوجـده بانتظـاره، ومعـه شـاهدان وخادمـان، ومـا كاد يطـأ عتبـة البـاب حتـى نهـض الطبيـب فاسـتقبله باشـا وقـال: هـل هيـأت مـا أوصيتـك بـه يـا سـيدي؟

قـال: نعم، فهاك الصك والورقة المالية.

قـال: حسـن، فأسـمح لي أولا أن أعرفـك بالشـاهدين، فهـذا المسـتر سـام،

وهـذا المسـتر غـام. والآن أسـألك أن تذكـر أمامهـما أنـك بتـمام ارادتـك ورشـدك تفـوض أمـر معالجتـك إلي.

فقـال: أنـا جـان فنـدال، البالـغ سـن الرشـد، أعلـن أمـام هذيـن الشـاهدين تمـام رضـاي بجميـع الوسـائل التـي يـروم الطبيـب بوسـطر أن يتوسـل بهـا لمعالجتـي.

قـال: اخلـع إذن ثيابك وتمدد على هذه المائدة أمامنا.

فلبـى جـان الأمـر، وفي الحـال أنشـقه بوسـطر بنجـا دون أن يشـعره بذلـك، حتـى إذا غـاب عـن الحـس، التفـت إلى الشـاهدين والخادمـين وقـال: أبـتروا الآن رجلـه اليمنـى عنـد الركبـة، وضعوهـا في ذلـك الانـاء المملـوء كحـلا (سـبيرتو). ولمـا قـال ذلـك خـرج وقـام الرجـال الأربعـة بالعمـل.

ولمـا فـاق جـان شـعر بـألم شـديد في ركبتـه، فـأن أنينـا مزعجـا، ثـم فتـح عينيـه ونظـر فـإذا احـدى رجليـه مبتـورة، وأدرك للحـال أن بوسـطر قـد أمـر بقطعهـا، فكـبر عليـه الأمـر، وكاد يجـن غيظـا، وأخـذ يصيـح صياحـا شـديدا، ويلعـن الطبيـب بوسـطر ويقذفـه بأفظـع الشـتائم ويتهـدده بـكل ويـل. وكان بالقـرب منـه المسـتر سـام، أحـد الشـاهدين، فلطمـه بيـده لطمـة ألقتـه إلى الأرض وكادت تطـير رشـده، ثـم صـاح بأعـلى صوتـه: أيـن ذهبتـم برجـلي أيهـا الملاعـين؟

فقـال لـه أحدهـم: لا تضطـرب كثـيرا يـا سـيدي! فهـذه رجلـك اللطيفـة في هـذا الإنـاء الزجاجـي.

ولبث جان يومين كاملين يعج عجيجا هائلا، وهو كالمجنون، ولا يجسر أحد أن يدنو منه. ولما كان اليوم الثالث شعر بخور شديد، ورأى أنه لا فائدة له من الصخب والضجيج، فأخلد إلى السكينة وهو يتأمل أن يبصر الطبيب ليسأله عما حمله على مثل هذه الفظاعة الغريبة بل الجناية الكبرى.

وكأن بوسطر كان ينتظر منه مثل ذلك، فلما علم بسكينته جاء لعيادته، غير أن جان استقبله ونار الغضب والانتقام تتقد في عينيه، وصاح به: ماذا فعلت أيها الشيطان المتجسد؟، وكيف بلغت منك الجرأة أن تستخف بكل شريعة، وتقدم على مثل هذا العمل البربري؟، ولكن مهلا! فلأنتقمن منك شر الانتقام، فأسل عينيك، وأمزق وجهك بأظفاري.

فقال له الطبيب برزانة: لا يمكنني أن أحدثك بشيء ما دمت في هذه الحالة من الهياج، فسأنصرف الآن عنك ولا آتيك إلا متى زال اضطرابك وهدأ روعك.

قال ذلك وخرج، وجان يزيد اضطرابا واشتعالا .. وقد شعر بأنه أصبح الآن مقعدا لا يستطيع أن يخرج إلى الحدائق الجميلة، أو يمتطي صهوات الخيول، أو يخاصر الحسان، فأن أنينا محرقا .. وكان على منضدة أمامه بعض صحف الأخبار، فأخذ يطالع فيها أنباء المسابقات والملاهي والألعاب التي كان له في جميعها القدح المعلى، ويتلهف على ماضي حياته .. ومكث في هذه الحالة أياما، وقد استولت عليه السآمة، وشعر

بأشد الحنين إلى الخروج من هذا السجن إلى الفضاء الواسع، فكتب إلى الطبيب بوسطر يسأله أن يعوده، وهو يعده أن يقابله بملء السكون.

وفي الحال جاء الطبيب، فابتدره جان قائلا، وقد ظهر عليه الانكسار الشديد: وما كانت غايتك من بتر رجلي يا حضرة الطبيب؟ فهل تزعم أنك بذلك تجعل حياتي أهنأ وأسعد مما كانت؟

فقال بوسطر: اعلم يا صديقي العزيز أن الحياة لا تكون جميلة وجذابة إلا إذا شعر صاحبها ببعض الكوارث والعوز.

قال: ولكنك قد حرمتني الآن كل ما كنت أتوق إليه .. حرمتني الرقص وركوب الخيل ومباراة الأقران في كل سباق و...

فقاطعه بوسطر بقوله: هذه هي حكمة الوجود أيها الصديق، فإن أشد ما تتوق إليه نفوسنا، هو ما نشعر بافتقارنا إليه .. غير أني أبشرك بأنك سترقص وتلعب وتخاصر من تشاء وتفعل ما تشاء.

فظهر السرور في وجه جان، وقد عاد إليه بعض الأمل وقال: وكيف يتسنى لي ذلك، وأنا برجل واحدة؟

قال: ستكون لك الأخرى أيضا، فقد استدعيت أحد مشاهير الميكانيكيين واتفقت معه على أن يعمل لك رجلا صناعية لا تفرق بشيء عن الطبيعية، ولا يستطيع أحد من البشر التمييز بينهما، وسيكون ثمنها ثمانية آلاف وسبعمئة ريال.

قال: افعل ما تشاء .. ولكن قل لي بربك، هل علمت الأنسة جوزفين

ببـتر رجـلي؟

قـال: لا يعلـم أحـد في نيويـورك كلهـا بالحـادث، سـوى رجـالي الأربعـة الذيـن قامـوا بالعمـل، ولكنـك تسـتطيع أن تكـون عـلى ثقـة تامـة بأنهـم لا يذكـرون شـيئا مـن ذلـك لأحـد، وأنـا أعـرف النـاس بشـدة كتمانهـم لـكل مـا يرونـه أو يسـمعونه هنـا.

قـال: وسـأكافئهم أنـا أحسـن مكافـأة، ولا سـيما المسـتر سـام الـذي لطمتـه تلـك اللطمـة .. وقـل لي الآن، متـى يصبـح في امـكاني الخـروج مـن هنـا؟

قـال: بعـد شـهرين عـلى الأقـل، نركـب لـك في أثنائهـما الرجـل عـلى أحسـن مـا تشـتهي.

بعـد نصـف سـنة مـن تاريـخ هـذه الحادثـة نـشرت جرائـد نيويـورك الخـبر التـالي: اقترنـت الأنسـة جوزفـين سـليد ابنـة ملـك الزجـاج في نيويـورك، بالمسـتر جـان فنـدال المـثري الشـهير، وكانـت حفلـة العـرس مـن أبهـى الحفـلات وأجملهـا.

وبعـد بضعـة أشـهر مـن تاريـخ هـذه الكتابـة، أقيمـت مأدبـة حافلـة في أحـد الأنديـة الكبـيرة في نيويـورك، وكان جـان فنـدال وزوجتـه مـن المدعويـن .. وقـد دارت رحـى الرقـص في تلـك الحفلـة كأمـواج البحـر الزاخـر، وكان جـان مـن أشـد الحضـور تمتعـا بتلـك اللـذة، فلـم يكـن لتـكل قدمـاه أو تخـور قـواه، وقـد جهـد ثـلاث سـيدات وأربـع أوانـس مـن أشـهر حسـان المدينـة برقصـه معهـن .. وأنـه لكذلـك وإذا بقائـل يقـول لـه همسـا: مهـلا أيهـا

الصديـق، فـإني أخـشى الآن أن تفقـد رجليـك الاثنتـين معـا!

فذعـر جـان والتفـت إلى القائـل مغتاظـا، فـرأى بجانبـه الطبيـب بوسـطر، فابتسـم وصافحـه بـسرور. فقـال لـه بوسـطر بصـوت خافـت: أهنئـك باقترانـك بالآنسـة جوزفـين.

فتنهـد جـان وقال: يا ليتني لم أفعـل ذلك، فقد نغصت حياتي بيدي.

قـال: عجبا، فهي تحبك كثيرا.

قـال: نعـم، ولكنـي قـد أحببـت سـواها، وأود لـو جـردت مـن ثـروتي كلهـا، لأكـون حـرا طريقـا أطـير حيـث شـئت، وآوي إلى حيـث أردت.

قـال: ولكنـك قـد تخلصـت تمامـا مـن السـويداء التـي انتابتـك قبـلا .. فأحسـن عـلاج لهـا أن يشـعر المـرء بـشيء يضغـط نفسـه، ويورثـه بعـض الهمـوم، والـزواج أحسـن عـلاج لذلـك، لأنـه يعكـر عليـك كأس حياتـك، فـلا تعـاودك السـويداء.. فكيـف تـرى الآن الملاهـي والحسـان؟

قال: يـا ليتني اتفرغ لها ولهن.

قـال: قلـت لـك أن الـزواج هـو أحسـن عـلاج السـويداء، ولكنـي لم أحـب أن أشـير عليـك يـوم جئتنـي تطلـب دواء لنفسـك.

قال: ولما ذاك؟

قال: لأنه ... أشـد من بتر الرِجل.

هو وهي

المنـزل فخـم، وفيـه مـن الريـاض البديـع، والأثـاث الجميـل، والتحـف النـادرة، مـا لا يقـع تحـت حـصر. وفي غرفـة مـن غرفـه الفسـيحة جلـس ذات مسـاء السـيد فيليـب وزوجتـه السـيدة فريـدة يتحدثـان ويتذاكـران.

وكان فيليـب شـيخا وقـورا مهيبـا، وقـد كلـف الشـيب رأسـه، وجعـد الهـم وجهـه، وكان لـه مـن العمـر نحـو الثمانـين ولزوجتـه نحـو السـبعين.

ولمـا جلـس في كرسـيه مـد يـده إلى مائـدة أمامـه، فتنـاول لفافـة يريـد أن يدخـن، فابتدرتـه السـيدة فريـدة بقولهـا: وكيـف تريـد أن تدخـن، وقـد منعـك الطبيـب ذلـك؟

فأجـاب: أنـه لم يمنعنـي التدخـين بتاتـا، بـل أذن لي فيـه بعـض الأحيـان، وأنـا الآن أشـعر مـن نفـسي الارتيـاح إلى ذلـك، لأني قضيـت نهـاري اليـوم في تمـام الراحـة والعافيـة، فأرجـو أن تسـمحي لي بلفافـة أدخنهـا، وأنـتِ إلى جانبـي نتجـاذب أطـراف الحديـث، أو يمعـن كل منـا في تخيلاتـه وتأملاتـه.

هـي: أنـت مولـع منـذ زمـان بهـذه التخيـلات، ومـا هـي في الحقيقـة إلا مبعـث الأسـف والتلهـف.

هـو: لم تصيبـي في قولـكِ .. لأن المـرء لا يتأسـف إلا إذا رام شـيئا، وحـال دون الوصـول إليـه حائـل .. ومهـما يكـن الأمـر، فـلا يجـدي الأسـف نفعـا مـن كان في سـني الآن، وقـد نضـب فيـه مـاء الحيـاة، ولم يبـق لـه مـن أمـل سـوى انتظـار المنيـة، وإنمـا تلـذ لـه ذكـرى مـا مـضى مـن أيـام شـبابه

وأوقـات هنائـه.

هي: والأحزان؟ والاهتمامات؟ والمكاره؟

هـو: يـرى كل ذلـك في أفـق المـاضي البعيـد، ولكـن في صـورة مصغـرة جـدا، حتـى يـكاد لا ينظـر.

هـي: وهـل هـذا الـذي تقولـه حقيقـة راهنـة؟ وجميـع المشـقات والاضطرابـات التـي يعانيهـا المـرء شـابا ورجـلا، هـل تفقـد قوتهـا كلهـا في شـيخوخته؟

هـو: أجـل فـان المـرء يـدرك سـن الشـيخوخة، أي الحـد النهـائي للحيـاة، وهـو ينظـر إلى الـوراء، إلى حياتـه السـابقة، إلى ربيـع الحيـاة، ولكنـه لا يبـصر شـيئا، كـما أننـا ننظـر إلى رمـاد هـذه اللفافـة، نظـرا مجـردا، دون أن نتصـور وجـود نـار قبـل هـذا الرمـاد ... لا جـرم أن في كل حيـاة مـكاره وحـوادث مختلفـة، بيـد أنهـا تمـسي كلهـا في سـن الشـيخوخة رمـادا، فـلا ننظـر اليهـا وقـد نسـينا أو تناسـينا كل شيء.

هـي: فأنـت إذا موقـن جـد الايقـان أن جميـع عواصـف الحيـاة تصـير في الشـيخوخة إلى رمـاد لا نـار تحتـه؟

هو: نعم.

هـي: وتنظر إلى حوادث الماضي بخلو البال؟

هـو: نعـم. وهـذا مـا يجعـل الشـيخوخة صالحـة هادئـة مطمئنـة، لا شيء

يشـوب صفاءهـا.

هـي: هـب حادثـا مهـما جـرى قبـلا في بيتـك، لم تعلـم بـه وقتئـذٍ، بـل علمـت بـه الآن في هـذه السـن، فـماذا يكـون تأثـيره فيـك؟

هـو: لا اهتز له، ولا انزعج.

هـي: وإذا كان ذلـك الحـادث اسـاءة لا يغتفرهـا دم الشـباب، وهـو لـو ظهـر في حينـه لكـسر قلوبـا وأجـرى دمـاء، فـماذا يكـون نظـرك إليـه الآن؟

هو: كأنه لم يكن.

هـي: لعلك تقول ذلـك لتأييد ما ذهب إليه من هذه الآراء.

هـو: كلا ثـم كلا .. وإنمـا ذلـك مـا أتيقنـه حقيقـة، وهـو نتيجـة الثمانـين سـنة التـي قضيتهـا.

هي: فلو ذكروا لك عني أمورا تشـينني ..، فهل تبقى سـاكنا هادئا؟

فبهـت فيليب وقال: وكيف ذلك؟

هـي: لـو قالـوا لـك مثـلا أني لم اكـن أمينـة لـك ..، وأيـدوا ذلـك بمـا لا يحتمـل الريـب، فأنـت، كـما يجـب أن يفهـم مـن كلامـك، يجـب أن لا تضطـرب ولا تثـور عواطفـك.

هو: أصبت.

هـي: وهـل أنـت واثـق كل الوثـوق بعـدم تهيـج نفسـك لـشيء مهـما كان

وقعـه شـديدا؟

هو: نعم.

هـي: فأنا إذن مسرورة جدا.

هو،: ولماذا؟

هـي: لأني اسـتطيع أخـيرا أن أكـون صريحـة في القـول ..، فأطلعـك عـلى سر خفـي طالمـا حملـت وقـره هـذه السـنين كلهـا ..، وقـد حـان لي أن أطرحـه عـن عاتقـي لأنـه بهظنـي جـدا وأعدمنـي كل راحـة.

هو: وأي سر تعنين؟

هـي: إن ذلـك مـن أسرار المـاضي ..، فقـد خنتـك وكذبـت عليـك وسـخرت بـك، ولم أكـن زوجـة أمينـة كـما كنـت تدعـوني.

فأجفـل فيليـب لـدى سـماعه ذلـك وجحظـت عينـاه، ثـم وثـب عـن كرسـيه كمـن لدغتـه أفعـى ... ولكنـه لم يلبـث أن قهقـه ضاحـكا ضحكـة عاليـة وقـال: إني لا أصـدق هـذا الـكلام، بـل أعـده مـن بـاب المـزاح والمجـون .. فـما أمهـرك أيتهـا المـرأة بـضروب الحيـل!!

هـي: أنت واهم يـا عزيزي! لأن الذي قلته لك هو الحق الصراح.

هو: لا، لا، لسـت أصدق مثل هذا الكلام.

هي: أقسـم بحياة ولدنـا العزيز، أن كلامي لا يحتمل التأويل.

فنظـر فيليـب في وجههـا، فـرأى دلائـل الصـدق باديـة عليـه، فارتعـش وامتقـع لونـه، وقـال بصـوت أبـح: فأنـتِ إذن قـد خنتنـي وهـزأت بي! .. غـير أني لا أزال مرتابـا.

هـي: لا ترتـب ولا تضطـرب .. والحقيقـة يجـب أن تقـال، ولـو أدمـت القلـوب وكـسرت النفـوس.

وكان السـيد فيليـب يـزداد ارتعاشـا وتهيجـا، ولكنـه كان يحـاول التجلـد، فقـال: أنـا لا أضطـرب .. ولكنـي في حـيرة .. وقـد التبـس عـلي الأمـر، وأريـد أن أعلـم، كيـف حدثـت هـذه الخيانـة، ومتـى؟

هـي: حينما كنت تتعاطى تجارة المنسـوجات الوطنية.

هو: وكم اسـتمرت خيانتك؟، ومن كان حبيبك أو عشـيقك؟

هـي: سـبع عـشرة سـنة .. وأمـا الحبيـب الـذي اتخذتـه تلـك المـدة خليـلا فهـو صديقـك وجـارك ادمـون.

فانقلبـت سـحنة فيليـب لـدى سـماعه هـذا الـكلام، وقـال بصـوت يخنقـه الحـزن: ادمـون؟ .. هـذا الرجـل الـذي اتخذتـه أحسـن صديـق، وطالمـا سـاعدته وأحسـنت إليـه، وكنـت أعـول في أكـثر شـؤوني عليـه؟ .. مـع هـذا الرجـل الخائـن الغـادر كنـت تضحكـين عـلي، وتظهريـن الأمانـة والاخـلاص؟ .. ولا شـك أن ادمـون لـو بقـي حيـا، لكنـت لا تزالـين إلى الآن تحبينـه وتهيمـين بـه، وأنـت في هـذه السـن، وهـذه الشـيبة.

هـي: لا تقـل هكـذا! .. فقـد مـضى مـا مـضى، وبحـت لـك بـسر حبـي

وغرامـي .. فعليـك أن تعفـو وتسـامحني.

فزفـر فيليـب زفـرة حـارة وقـال: يـا لـك مـن خائنـة غـادرة! فقـد كنـت أمينـا لـك، ثمـلا بـراح حبـك، هائمـا برائـع جمالـك وآدابـك. وأمـا أنـت، فبـدلا مـن أن تخلـصي لي الـود وتكـرسي قلبـك لحبـي، ملـتِ إلى سـواي، وغـدرت بي هـذا الغـدر الوخيـم، فتبـا لـك، تبـا لـك!!

هـي: لـو علمـت بـأن صراحتـي تجرحـك وتقلقـك، لمـا بحـت لـك بـشيء، ولكـن ...

هـو: اخـرسي أيتهـا الغبيـة! .. لأن كلامـك لا يقلقنـي فقـط، بـل يقطـع قلبـي تقطيعـا! .. فقـد قضيـت حيـاتي إلى هـذه الشـيخوخة مـسرورا بـكِ، سـعيدا بقربـك، فكانـت مكافـأتي منـكِ أنـكِ دسـتِ بقدميـكِ عواطفـي وأمـاني، ومثلـت عـلي دورا جهنميـا! .. فـآه منـكِ أيتهـا اللعينـة!

ولما قال هذا سـقط عن الكرسي بدون حراك.

فارتجفـت فريـدة، وبـادرت إليـه تعالجـه بالمنبهـات، وقـد شـق عليهـا الأمـر كثـيرا، فقالـت في نفسـها: مـاذا عملـت؟ أمـا كان الأجـدر بي أن يبقـى هـذا الـسر في صـدري؟ .. إن الحقيقـة ثقيلـة، وقـد تقتـل الـزوج، ولـو شـيخا مسـنا كزوجـي ... نعـم إني أردت أن أعـترف لـه بجريمتـي، ليسـامحني ويخفـف وطأتهـا عنـي، لأنحـدر إلى حفـرتي بسـلام، ولكـن لا، لا، فيجـب أن أقنعـه الآن بـأن ذلـك كلـه كـذب وبهتـان .. وإلا فانـه يمـوت كمـدا وجزعـا.

واطمأنـت السـيدة فريـدة حينـما خطـر لهـا هـذا الخاطـر، وكان زوجهـا قـد

عـاد إلى رشـده، ففتـح عينيـه، وهـو لا يـزال محتبـس الصـوت، والدمـوع تنهمـر بغـزارة مـن مقلتيـه.

فدنـت منـه وقالـت: وهـل صدقـت كل مـا أنبأتـك بـه؟ .. إن ذلـك غـير صحيـح.

فاسـتوى فيليـب عـلى كرسـيه وقـال بلهفـة: مـاذا تريديـن أن تقـولي بهـذا الـكلام؟

هـي: أريـد أن أقـول أني لم أخنـك قـط، وقـد قضيـت عمـري كلـه أمينـة لـك، أحبـك وأهـواك، ولا أميـل إلى سـواك.

هو: ولكنك أقسمت!

هـي: لم أفعـل ذلـك إلا لأنتقـم منـك! .. فقـد قلـت إنـك مسـتعد أن تسـمع عنـي كل أمـر دون أن تقلـق أو تضطـرب، مـع أنـك كنـت تغـار عـلي حتـى مـن خطـرات النسـيم .. فـماذا كانـت النتيجـة؟ .. وعـلى كل فـإني أرجـو أن تسـامحني وتنـسى كلـماتي، فقـد أزعجتـك عـلى غـير قصـد.

هـو: ومن يعلم هل أنتِ صادقة الآن؟

هـي: لا تظـن بي سـوءا يـا عزيـزي، بـل ثـق بكلامـي، واقـرأ ذلـك في عينـي كـما كنـت تفعـل سـابقا، حينـما كنـت تسـبر غـور قلبـي مـن مجـرد نظـرك الي، فـلا يمكـن أن يتغـير ذلـك في وأنـا في سـن الشـيخوخة .. وهـل يخطـر في بالـك أني أسـتطيع أن أحـب ادمـون، وقـد كان أحـط منـك بعقلـه وذكائـه وجمالـه؟ .. وأنـت تعلـم أني لم أخـرج لتشـييع جنازتـه بعـد موتـه، وهـذا

دليـل كبـير عـلى عـدم ميـلي إليـه .. والخلاصـة أني لم أتحـول عـن الأمانـة لـك، وقـد كانـت حيـاتي كلهـا وقفـا عـلى خدمتـك ومحبتـك.

وكان فيليـب يصغـي اليهـا بـكل حواسـه، وقـد عـاوده نشـاطه، وبـدت عـلى وجهـه أمائـر الاقتنـاع، فقـام اليهـا يعانقهـا وقـال: إني أصدقـك يـا عزيـزتي، وأريـد أن أصدقـك!

هـي: وأرجـو ان تسـامحني لإزعاجـي اياك بمثـل هـذا الـكلام .. وهـا أنـك لا تـزال ترتعـش، وأنـا اضطـرب جزعـا .. أفـلا تزيـد أن تتنـاول شـيئا مـن الـشراب المسـكن؟

ففاضـت عينـا فيليـب بدمـوع الفـرح وقـال: كلا .. فـإني في أحسـن حـال الآن، وقـد عـادت الي الحيـاة .. كنـت كرجـل تعـرض لأشـد الأخطـار، ومـا عتـم أن نجـا فجـأة مـن كل خطـر.

هي: ومع هذا فإني أرى أن تنام قليلا لتسـتريح.

هـو: لا، لا، بـل أبقـى بجانبـي، واقـتربي إلي، فـاني أريـد أن أراك، وأحادثـك، وألمسـكِ.

هي: وهل نبذت هذا الفكر من رأسـك؟

هـو: نعـم، وبـت أضحـك مـن نفـسي، لأني كنـت السـبب في حملـك عـلى مثـل هـذا الانتقـام، بـل هـذه المداعبـة التـي كادت تخطـف أنفـاسي ... والحقيقـة التـي علمتهـا الآن، هـي أن الرجـل - مهـما شـاخ وطعـن في السـن - لا يسـتطيع أن يسـمع عـن زوجتـه شـيئا مـن قبيـل الخيانـة والغـدر.

ثم غلـب عليه النعاس والضعف فنام.

ونهضـت السـيدة فريـدة مـن جانبـه، وهـي تتمتـم قائلـة: لا أسـتطيع أن اعـترف لـه بخيانتـي، لا في هـذا العـالم، ولا في العـالم الآتي.

المقابلة المخيفة

كان لاون جالسا ذات يوم في منزله، والقلق بادٍ في وجهه، وهو من وقت إلى أخر ينهض، فيسير في غرفته ذهابا وإيابا، ثم يعود فيجلس ويمعن في الخيال.

قرعت الساعة الخامسة مساء، فتنبه لاون من غفلته وقال في نفسه: هذا موعد حضورها فستأتي الآن، وتضمني إلى صدرها، وأضمها إلى قلبي، ونتطارح أشهى أحاديث الحب والهوى.

ولما قال ذلك، شعر بدوار في رأسه، وخيل إليه أنه بإزاء الحبيبة، يستنشق أريجها الطيب، ويتمتع بعذوبة مناغاتها ورقة مغازلتها.

كان لاون شابا جميل الصورة، في الثلاثين من عمره. وقد «أحب» في زمانه كثيرا، وكان يشعر بقوة سلطانه على قلوب النساء، فيزدهي تيها بنفسه واعجابا بجماله. بيد أنه كان سريع التقلب في حبه، كثير التنقل من محبوبة إلى أخرى، إلا ماري التي كان يرقب مجيئها اليوم، فقد قيدت بصره، وملكت حواسه، وغلبت على قوة جنانه.

وكانت ماري هذه متزوجة، وزوجها صديق لاون ورفيقه في العمل. فقد كانا من مؤلفي الروايات التمثيلية، يشتغلان معا، وينشران رواياتهما باسميهما معا، وقد أنسا من اقبال الجمهور ما وطد صلة الصداقة والولاء فيما بينهما، وزادهما رغبة في الدأب والاجتهاد.

ومع هذا فإن لاون قد أحب زوجة صديقه وقريبه، دون أن يزعجه

تبكيت الضمير. وكان يرى من محبة ماري ما يزيده تعلقا بهواها، وإعراضا عن كل زاجر داخلي، ولعل ماري أحبته لأن زوجها شارل كان يكبره بعشر سنوات، وقد خطه الشيب، ولكنه كان لا يزال قوي البنية جميل الصورة، وكان فوق ذلك طيب القلب دمث الاخلاق.

***

وأقام لاون في غرفته ينتظر الحبيبة، وكان قد أعد منذ الصباح كل ما كانت تميل إليه من الحلوى والفاكهة والشراب والأزهار.

وانه لكذلك إذ قرع جرس المنزل، فهب من مكانه وهرول إلى الباب ففتحه، وإذا أمامه رسول من قبل الحبيبة ناوله رقعة وانصرف، وكان في الرقعة الكلام التالي: إن زوجي يروم مقابلتك في هذه الساعة، وقد بذلت الجهد لأثنيه عن عزمه فلم أفلح .. فصبرا أيها الحبيب. ماري».

قرأ لاون ذلك فأظلمت الدنيا في وجهه، وعاد إلى غرفته كئيبا مضطربا وهو بقول في نفسه: وماذا يريد شارل مني في مثل هذه الساعة، ونحن إنما تواعدنا أن نلتقي غدا؟ .. تبا له من سارق ولص، يريد أن يسلبني الآن أحسن ساعات حياتي.

وما كاد يفرغ من تأملاته حتى قرع الجرس ثانية، فذعر وقام بخطوات متثاقلة ففتح الباب، وإذا بصديقه شارل، فحيا كل منهما الأخر ببرودة وجفاء، ثم دخلا إلى المكتب.

فقال لاون وهو يحاذر أن يلتقي نظره ونظر صديقه: لم أكن لأتوقع

قدومك علي اليوم، فهل من أمر مهم حملك على ذلك؟

فهز شارل رأسه وقال، وهو كمن يحاول التجلد وتسكين اضطرابه الداخلي: نعم .. وهو الفصل الأخير من روايتنا، فقد خطر لي خاطر أحببت أن أكاشفك به حالا، لترى رأيك فيه قبل تدوينه.

فاستغرب لاون هذه اللهجة وقال بصوت خافت: حسن، فهات ما عندك.

قال: وصلنا في الفصول السابقة إلى توثيق الحب بين بطل الرواية ومحبوبته .. وقد خطر لي الآن أن أظهره مجرما، وأجعل الذنب كله عليه لا عليها.

لم تقع هذه الكلمات على مسمع لاون حتى ذهل وامتقع، ولم يكن من قبل قد رأى صديقه بهذه الهيئة، أو سمع منه مثل هذا الكلام، فلعله يكون قد اطلع على ما بينه وبين ماري من العلائق، وجاء ليناقشه الحساب ... غير أن ماري لم تشعره بهذا الخطر؟

وأستأنف شارل كلامه قائلا: ويجب أن يعلم في هذه الرواية أو هذه المأساة أن هذه المحبوبة زوجا شريفا رحب الصدر طويل الأناة، وأنه صديق لحبيب زوجته، وقد وثق بأمانته كل الثقة.

فقاطعه لاون بقوله: وكم تريد أن تجعل عمر هذا الزوج؟

قال: نحو أربعين سنة، أي من سني.

قال: والحبيب؟

قال: نحو الثلاثين، أي من سنك.

فارتعش لاون وعلا وجهه الاصفرار.

فقال شارل عابسا: ويجب أن يدرك هذا الحبيب أن الواجب الأدبي عليه لصديقه هو اكرامه والاخلاص له، لا خداعة بمثل هذه الدناءة التي لا يقدم عليها إلا اللصوص والسفلة الاوباش ... وهذا المبدأ أريد أن أفصله تفصيلا وافيا في الرواية، وأجعل الزوج المخدوع ملء الحق في معاملة هذا النذل الخائن كما يليق بأمثاله.

فازداد لاون ارتعاشا ووجم في مكانه لا يجسر أن يرفع طرفه إلى صديقه، وقد رأى نفسه بإزائه صغيرا حقيرا جدا .. ثم خطر له أن يمتحنه ليرى إذا كان كلامه موجها إليه رأسا، أو هو موضوع الرواية التي يريد وضعها، فقال بصوت متقطع: وكيف تريد أن تكون خاتمة هذه الرواية المحزنة؟

فقال شارل بخشونة: نعم إنها محزنة جدا، وأنا أريد أن يقتل هذا الخائن ويمحى اسمه عن وجه الأرض .. أريد أن يموت كم يموت المجرمون واللصوص الادنياء.

فقال لاون بصوت متلجلج: ألا ترى أن يفسح له ليبين سبب جرمه؟

قال: وأي سبب يؤدي إلى هذا الغدر الشنيع؟

قال: أنت روائي، وقد درست عواطف البشر وأهواءهم ودلال النساء.

فقطب شارل وقاطعه قائلا: لا تسترسل في مثل هذه الأعذار .. فعلى هذا الرجل أو هذا الصديق أن يكبح جماح أهوائه، ولا يعامل قريبه بغير ما يريد هو أن يعامل قريبه به، ولا يلتفت إلى ما تسميه دلالا .. وليست هذه المرأة إلا آية العفة والاستقامة، ولكنها أخذت بظواهر هذا الخبيث، ولم تنج من حبائل مكره وغدره .. وعليه فقد صار من الواجب الانتقام منه فقط .. وأنا أرى أن أحسن وسيلة للانتقام، هي الفتك به في منزله الخاص، فما رأيك؟

فتجلد لاون وقال: ليس ذلك بجديد في عالم الروايات.

قال: وفي عالم الحقيقة أيضا، إذ ليست الرواية إلا مظهرا من مظاهر الحياة، وما هو رأيك في نوع السلاح؟ وأيهما أفضل المسدس أم الخنجر؟

فطارت نفس لاون شعاعا، وقال: المسدس أكثر استعمالا في مثل هذه الأحوال.

قال: فهل عندك مسدسان؟

فذعر لاون وأصبح وجهه بلون الأموات وقال: ولما ذاك؟

قال: لأني أود تمثيل هذا الفصل قبل اظهاره على المسرح.

قال: لا مسدسات عندي.

قال: لا بأس إذا من الخناجر، وقد أحضرت لهذه الغاية خنجرا حادا.

وفي الحال أخرج من جيبه خنجرا ثم استأنف كلامه قائلا: هذا من أحسن الخناجر لأن طعنة منه تكفي لقتل الخائن واخماد أنفاسه إلى الأبد.

سمع لاون ذلك وهو يكاد يفقد عقله، ولكنه تحامل على نفسه وقال: ألا ترى لذلك مخرجا آخر، كأن تجعل الزوج يجهل هذه الخيانة، وحينئذٍ فالحبيب يعود إلى رشده ويدرك مقدار خطأه، فيندم على ما فرط منه ويصلح سيرته.

قال: وهمت أيها الصديق، لأن الزوج عالم بالأمر، وهو يطلب الانتقام لا سواه.

فقال لاون وهو لا يرفع نظره عن الخنجر، وقد ارتعدت مفاصله واصطكت ركبتاه وتيقن أنه هالك لا محالة: لكن ...

قال: قل، ماذا تريد أن تقول؟

قال: أريد أن تظهر كرم أخلاق الزوج وشهامة نفسه بإزاء دناءة الحبيب وعظم خيانته، بدون هذه الخاتمة المحزنة، وفي ذلك أحسن مؤدب وأقوى رادع، بل إن في ذلك انتقاما أشد من الطعن بالخنجر أو القتل بالمسدس.

فأطرق شارل مفكرا كمن يحارب أفكاره فيما يصمم عليه .. ثم رفع رأسه وأرسل إلى لاون نظرا أحد من الخنجر وقال: وأنت ماذا اعتراك أيها الصديق؟ إنك لشديد الاصفرار كأنك من عالم الأموات، فهل

تشـكو شـيئا؟

فارتبـك لاون وقـال: ذلك لأني أرقـت الليلة البارحة، فلم أذق طعم الكرى.

قـال: خذ إذا قدحـا من الكونياك لأني صرت أخشى عليك الاغماء.

فتنفـس لاون الصعـداء وقـال: أرجـو أن تناولنـي قدحـا مـن هـذه الخزانـة لأني لا أقـوى عـلى النهـوض.

فقـام شـارل وفتـح الخزانـة، فـرأى فيهـا صحـاف الحلـوى وزجاجـات الشراب، فتبسـم وقـال: الآن أدركـت علـة اضطرابـك واصفـرار وجهـك، فأنـت لم تكـن تتوقـع قدومـي عليـك في مثـل هـذه السـاعة، ولم يكـن لـك ارتيـاح لوضـع الروايـات، لاشـتغالك عنهـا بهـذه المعـدات.

فسـأذهب عنـك، وأنـا أرجـو أن أراك غـدا لوضـع تتمـة الروايـة. قـال ذلـك وخـرج، ولاون جامـد في مكانـه لا يـدري أفي يقظـة هـو أم في منـام.

ولمـا عـاد إلى رشـده قـام فكتـب رسـالتين، احداهـما باسـم شـارل، والأخـرى باسـم مـاري. وقـد قـال في الأولى: «قـد قطعـت منـذ هـذه السـاعة كل رابطـة فيـما بيننـا، فـلا أريـد بعـد الآن أن أكتـب روايـات تمثيليـة؟ وقـال في الثانيـة: «صرت أرى العيـش بقربـك وقـرا ثقيـلا عـلى عاتقـي، فسـأهجر هـذه الربـوع إلى الأبـد، وأسـافر مـن الغـد إلى اميـركا، واجتهـد في نسـيان مـا مـضى».

ولمـا كان شـارل وزوجتـه عـلى مائـدة الطعـام في اليـوم التـالي، وكان كل منهـما قـد قـرأ رسـالته، قـال شـارل: علمـت اليـوم بـأن صديقنـا لاون قـد

سـافر إلى أمـيركا.

فقالت ماري: ولا شـك أنه سـيتزوج بحال وصوله.

قال: إذا فهو أحمق.

قالت: إنك غير لطيف اليوم يا شـارل!

قـال: عفـوا يـا سـيدتي! .. إني أحـب لاون، ولكـن الـزواج مخاطـرة ونصيـب، وليـس لـكل رجـل أن يجـد جوهـرة كريمـة نظـيرك.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي